موسوعة
عالم الأديان

كل الأديان . المذاهب . الفرق . البدع في العالم

6

NOBILIS

موسوعة عالم الأديان

كلُّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

دياناتُ المجتمعات الغربيّة القديمة

مجموعة مِن كبَار البَاحِثين

بإشراف

ط. ب. مفرّج

موسوعة

عَالَــم الأديَــان

كُلُّ الأديَان والمَذَاهِب والفرَق والبَدَع في العَالَم

الجزء السَّادس

ديَانات المُجتمعَات الغَربيَّة القَديمَة

NOBILIS

طبعة أولى ـ ٢٠٠٤

طبعة ثانية ـ ٢٠٠٥

إسم المَجموعَة	:	موسوعَة عَالَم الأديان كُلُّ الأديَان والمَذاهِب والفِرَق والبِدَع في العَالَم
إسم الكِتَاب	:	ديَانَاتُ المُجتَمعَات الغَربيّة القَديمَة
الجِزء	:	السَّادِس
المؤلّف	:	مجموعَة من كبار الباحِثين بإشراف ط. ب. مفرِّج
قياس الكتَاب	:	٢٠ × ٢٨
مَكان النَّشر	:	بيروت
دَار النَّشر والتَّوزيع	:	NOBILIS
تلفاكس	:	٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١
	:	٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

المحتويات

القسمُ الأوَّل

اليُونَان القَديمَة

القِسمُ الثَّاني

ديَانَاتُ الرُّومَانِيِّين

القسمُ الأوَّل

اليُونَان القَديمَة

اليُونانُ القَدِيمَة

تتألّف اليونان Grèce، من تسع مقاطعات هي: كريت، البحر الإيجي، أبيبريا، أوبيا أو اليونان الوسطى، الجزر الأيونيّة، مقدونيا، البيلوبونيز، تساليا، وتراقيا. كانت في العصور القديمة مهدًا لإحدى أغنى حضارات الغرب والعالم. أهم مراحل تاريخها: العهد الآخيّ، من القرن الثامن إلى آخر القرن السادس قبل الميلاد. والعهد الكلاسيكيّ في القرنَين الخامس والرابع قبل الميلاد حيث بلغت أوج تقدّمها الحضاريّ. ثمّ العهد الهلّنستي وهو ذروة توسّعها السياسيّ، وقد تفاعلت أثناءه حضارتها مع الحضارات الشرقيّة والمصريّة. وكانت أبرز مدنه الدول: أثينا، إسبارطة، كورنثوس، ثيبَة، بلاتيا. ثمّ خضعت للرومان منذ القرن الثاني قبل الميلاد. دخلها الدين المسيحيّ في عهد الرسل، وأصبحت جزءًا من الأمبراطوريّة الشرقيّة إلى أن احتلّها الأتراك بين ١٣٥٤ و١٤٦١. إستقلّت عن الأمبراطوريّة العثمانيّة سنة ١٨٢٩.

إنتشرت الحضارة المينويّة في شبه جزيرة البلقان، وحوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد وفد عليها أوّل أفواج الإغريق الذين عُرفوا باسم الآخيّين، ثمّ تبعهم الأيوليّون والأيونيّون. وقد أسّس هؤلاء الغزاة عددًا من المدن الحصينة، وأخذوا بأسباب الحضارة المينويّة. وكان أهمّ تلك المدن ميكيني وتيرينس وآرغوس، التي أخذت تزداد في الاتّساع والغنى، وتصيغ حضارتها المينويّة بطابع خاص. وفي القرن الرابع عشر قبل الميلاد قضت ميكيني على كريت واحتلّت مكانها، ومن ثمّ عُرفت الحضارة في

شبه جزيرة البلقان باسم الحضارة الميكينيّة. وحولى سنة ١١٠٠ قبل الميلاد، وفد آخر أفواج الإغريق الذين عُرفوا باسم الدوريّين، وكانوا لا يزالون في حالة البداوة، فتدهورت الحضارة الميكينيّة وتفرّق أهلها في أنحاء العالم الإغريقي أمام الغزاة الجدد، ومرّت البلاد في حقبة من الركود بلغت نحو قرنَين إلى نهاية القرن التاسع قبل الميلاد، فكانت أشبه بحالة أوروبّا في العصور الوسطى.

أملت طبيعة بلاد الإغريق وظروفها الاقتصاديّة شكل العبادة فيها ونظامها السياسيّ، فإنّ الطبيعة قسمت تلك البلاد إلى وحدات اقتصاديّة صغيرة، ومن ثمّ لم يكن ميسورًا تكوين وحدات اجتماعيّة وسياسيّة كبرى، وقد كانت الحال كذلك مع أيّام الآخيين، وبقيت أيضًا بعد مجيء الدوريّين الذين ورثوا عن أسلافهم مدنهم وحدودهم وممالكهم. وترتّب على ذلك قيام مئات من المدن الحرّة المستقلّة التي كانت شديدة الحرص على حريّتها واستقلالها، فدبّت بينها المنافسة واشتعلت الأحقاد والحروب، وكانت أهمّ تلك المدن الدول: أثينا وإسبرطة وثيبة وآرغوس وكورنثوس. وإذا كان هذا الانقسام وهذه المنافسة قد ساعدا على قيام الحضارة الإغريقيّة وتقدّمها، وأنضجا التفكير السياسيّ بين الإغريق، فإنّهما من ناحية أخرى كانا سببًا في تقطيع أوصال البلاد ووقوعها فريسة لمنازعات دائمة. فهذه البلاد لم تعرف الوحدة إلاّ في أوقات الأزمات.، مثل أزمة الحروب الفارسيّة، أو إذا فرضت بالقوّة، كما فعلت على التوالي: أثينا، وإسبرطة، وثيبة، ومقدونيا، وحتّى عندئذ لم تكن تلك الوحدات إلاّ جزئيّة، إذ لم توجد وحدة كاملة إلاّ بعد أن فقد الإغريق حريّتهم وخضعوا للرومان سنة ١٤٦ قبل الميلاد. وإزاء استقلال المدن الإغريقيّة بعضها عن بعض، تطوّرت نظم الحكم والعبادة في كلّ منها تبعًا لظروفها الخاصّة، ومع ذلك فإنّنا إذا استثنينا إسبرطة التي كانت فريدة في نظمها، لاحظنا أنّ تطوّر نظم الحكم كان متشابهًا بوجه عامّ في باقي

المدن، حيث كانت الملكيّة أقدم نظم الحكم فيها، ثمّ تبعتها الأرستقراطيّة التي تحوّلت إلى حكومة الأقليّة، وعندما أوغلت الأقليّة في مراعاة مصالحها، ثارت الجماهير عليها، فأسلمت قيادتها لزعماء أقاموا أنفسهم طغاة، وبعد أن قضى الطغاة على حكومات الأقليّة تخلّصت المدن منهم ونعمت بالديمقراطيّة. وحتّى قبل العصر الذي خلّدته أشعار هوميرُس تطلّع الإغريق إلى البحر، لاستكمال ما كان يعزّ عليهم الحصول عليه في بلادهم، ولذلك ترك البحر في نفوسهم وفي دياناتهم أثرًا لا يمّحى. وفي القرون الثامن والسابع والسادس قبل الميلاد، انتشر الإغريق في البحار، وأنشأوا على شواطئ البحر الأسود والبوسفور وبحر مرمرة والدردنيل وتراقيا وجنوب إيطاليا وصقلّية وجنوب فرنسا وإسبانيا وشمال أفريقيا عددًا من المستعمرات كانت مدنًا حرّة لا تربطها إلاّ روابط الدين والحضارة. وقد كان لانتصار المدن الإغريقيّة بمواردها المحدودة في الحروب الفارسيّة أكبر الأثر في شحذ همم تلك المدن، وخاصّة أثينا، فبلغت حضارتها الذروة بمساعدة حلف ديلوس في عصر بركليس الذي ازدهرت فيه الآداب والعلوم والفنون. وإذا كان انتصار إسبرطة على أثينا في الحرب البلوبونيزيّة (٤٣١ ـ ٤٠٤ ق.م.) قد سلب أثينا زعامتها السياسيّة، فإنّها بقيت زعيمة الحضارة الإغريقيّة ومدرسة بلاد الإغريق. فقد أنجبت، أو ازدهر فيها في القرنَين الخامس والرابع قبل الميلاد عدد كبير من الشعراء والكتّاب والمثّالين والفلاسفة نذكر منهم: أسخيلُس، وسوفوكليس، ويوريبيدِس، وأريستوفان، وتوكيديس، وفيدياس، وبراكسيتيلس، وسقراط، وأفلاطون، وأرسطو...

وفي العصر الهيلّينستي، حين كانت بلاد الإغريق نهبًا للحروب والاضطرابات والفاقة، انتشرت الحضارة الإغريقيّة في ربوع الشرق والغرب، بل أصبحت عواصم الممالك التي قامت على أنقاض الأمبراطوريّة المقدونيّة أهمّ مراكز الحضارة الإغريقيّة

التي بلغت شأوًا عظيمًا في الفنّ والنحت والعلوم والرياضة والفلسفة والدراما والآداب. ويتّفق المؤرّخون على أنّ العصر الهلّنستي يبدأ بموت الإسكندر الأكبر سنة ٣٢٤ ق.م، وينتهي باستيلاء روما على مصر، وكانت آخر مملكة هلّنستيّة لا تزال مستقلّة. ويختلف المؤرّخون في تعريف هذا العصر، ولعلّ الأقرب إلى الصحّة أنّه استمرار للحضارة الهيلينيّة القديمة بجوهرها القديم موشّى بعناصر شرقيّة. وانتشرت هذه الحضارة بين ربوع الشرق، ولم تعد مراكزها تقتصر على بلاد الإغريق القديمة، بل تعدّتها إلى عواصم الممالك الجديدة التي أنشأها خلفاء الإسكندر الأكبر على أنقاض الأمبراطوريّة المقدونيّة. فلا غرو إن وُصفت الحضارة الهلّنستيّة بأنّها ملكيّة، ووُصفت الحضارة الهيلينيّة الكلاسيكيّة بأنّها حضارة المدن الحرّة. وكانت الإسكندريّة وبرغام في طليعة مراكز الحضارة. ويمثّل هذا العصر، من بعض النواحي، مرحلتَين من مراحل الحضارة، أثمرت أولاهما العلوم والفلسفة والآداب والدين وغيرها من مظاهر النشاط الفكريّ في ظلّ عالم إغريقيّ مقدونيّ مستقلّ. أمّا المرحلة الثانية فقد نضب معين الثمر العقليّ في خلالها، وقام الشرق في وجه الغرب. وحين كانت هذه الثورة تهدّد العالم الإغرقيّ المقدونيّ، انقضّت روما على هذا العالم واستولت عليه وآلت إليها زعامة الحضارة الإغريقيّة. ويمثّل العصر الهلّنستيّ من نواح كثيرة وحدة متكاملة، إذ بالرغم من أنّ الدول الإغريقيّة تمسّكت من الوجهة العمليّة بمبدأ الإنفصاليّة والاستقلال، فقد خلّف هذا المبدأ، من الوجهة النظريّة، فكرة العالميّة، ومن ثمّ نشأت فكرة وجود عالم واحد، ومن أجله وُجدت لغة مشتركة ساعدت على التقريب بين عناصر هذا العالم، كذلك حصل نوع من الدمج بين آلهة الإغريق وآلهة شعوب الشرق. ويمتاز العصر الهلّنستيّ بانتشار التعليم وتقدّمه واستيقاظ العواطف الإنسانيّة استيقاظًا خفّف من ويلات الحروب. وبارتفاع مركز المرأة، واتّساع الفارق بين

الأغنياء والفقراء، حصلت اضطرابات اجتماعيّة ساعدت على إشعال لهيبها مذاهب الرواقيّين التي كانت تنادي بالمساواة والإخاء.

مع أنّ الرومان قضوا على حضارة الإغريق، فإنّهم أقبلوا على اقتباس حضارتهم والغرف من مناهلها، وعندما انقسمت الأمبراطوريّة الرومانيّة في سنة ٣٩٥ ق. م. إلى أمبراطوريّة غربيّة وأخرى شرقيّة، كانت الأمبراطوريّة الشرقيّة قد اصطبغت تمامًا بالصبغة الإغريقيّة، وهي التي عُرفت بالأمبراطوريّة البيزنطيّة[١].

شُعوبُ اليُونَان

الشعب اليوناني أو الإغريقي، أو الشعب الهيلّينيّ، من الشعوب الهندو أوروبيّة، أتوا إلى شبه الجزيرة اليونانيّة على مراحل، كما ذكرنا، من مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وانتشروا كذلك في جزر المتوسّط الغربيّ. وإنّ الفكر اليونانيّ، أو الأعجوبة اليونانيّة كما يسمّيها المؤرّخون، لم تنطلق من العدم، بل أخذت من حضارات الشرق، ومن الشعوب التي عاشت، قبل الإغريق، في بلاد اليونان، وفي جزر بحر إيجه، وفي جزيرة كريت على الأخصّ، وتوصّلت إلى حضارة راقية نعرفها بالحضارة الإيجيّة أو بحضارة كريت.

ففيما كانت شعوب شرق المتوسّط تعيش في مجتمعات منظّمة، وتبني، لأوّل مرّة في تاريخ البشريّة، دولاً وحضارة راقية، كانت في نفس الوقت شعوب تعيش في جزر

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، دار الجيل (بيروت،٢٠٠١) ٢: ١٠٠٥، ٤: ٢٦٦٦ ـ ٢٦٦٩.

إيجه وفي بلاد اليونان، وفي جزيرة كريت على الأخصّ، وتبني حضارة لا تقلّ أهميّة وقيمة عن حضارات الشرق. وقد تحدّث اليونان بشكل غامض عن تلك الحضارة، وذكرها هوميرُس في ملحمته، وظلّ العالم لا يعرف عنها شيئًا إلاّ اسمها، حتّى كشفت الحفريّات في مطلع القرن العشرين معالم هذه الحضارة. فقد كشف العالم الألمانيّ شليمان عن طروادة وعن قصور ميسين في شرق البلوبونتيز من بلاد اليونان، فيما كشف الإنكليزيّ إيفانز عن قصور كريت وأهمّها قصر كنوسوس في شمال وسط الجزيرة. وكريت أكبر جزر إيجه، تبلغ مساحتها نحو ثمانية آلاف كيلومتر مربّع، وهي جبليّة بمعظمها، كثيرة الغابات، تتخلّلها أراض زراعيّة خصبة. عاش فيها الإنسان منذ عصور ما قبل التاريخ، وهو يرجع إلى أصل غامض. وقد عاش الإنسان أيضًا في بلاد اليونان وترك حضارة على شاطئها الشرقيّ. كما عاش في جزر إيجه وفي آسيا الصغرى. أمّا في جزيرة كريت فزرع الإنسان زراعات المتوسّط وأخصّها الزيتون والكرمة والتين والحبوب، وزادت الغلال على حاجة السكّان، فشكّلت فائضًا للبيع. والجزيرة لا تقع على طريق مرور، فعاشت زمنًا طويلاً بمأمن من الغزاة. فأتقن أهلها الزراعة وقطعوا الغابات وبنوا السفن. وقبل الفينيقيّين، تاجروا مع بلدان شرق المتوسّط، أي مع جزر إيجه وآسيا الصغرى وقبرص ومصر وبلاد اليونان وصقلّية وإيطاليا.

وقد اتّفق المؤرّخون على تقسيم تاريخ كريت إلى ثلاثة أدوار سمّوها العهود المينويّة، نسبة إلى مينا أو مينُس Minos، وهو إسم ذكرته الأخبار اليونانيّة دون أن تحدّد في أيّ عصر عاش، ولا إذا كان أسرة أو ملكًا، ويغلب الظنّ أنّه ملك من أمّ فينيقيّة هي أوروبّا أخت قدموس. فقد قسّم المؤرّخون تاريخ كريت القديم إلى أدوار مينويّة هي الدور المينويّ القديم ويمتدّ من مطلع الألف الثالث إلى حوالى ٢١٠٠ ق.

م؛ والدور المينويّ المتوسّط ويمتدّ من ٢١٠٠ حتّى ١٥٨٠ ق.ن؛ والدور المينويّ الحديث ما بعد ١٥٨٠ ق.م.

عبد أهل كريت، كغيرهم من شعوب عصرهم، آلهة عدّة، تمثّل مظاهر الطبيعة والأرض والخصب والبحر، وأعطوا مجالاً واسعًا للآلهة النساء، ومثّلوا الآلهة بجسم إنسان ورأس حيوان. ولم يبنوا المعابد، بل قاموا بالعبادة على مذبح بسيط في البيت، أو في الهواء الطلق، أو في المغاور، أو على الأماكن المرتفعة. وقدّموا لآلهتهم من غلال الأرض. وكانوا في الأعياد يقومون باحتفالات صاخبة فيها الألعاب والنشاطات الرياضيّة كالمصارعة والملاكمة والركض وألعاب الخفّة وسباق الثيران ومصارعتها[1].

أمّا في اليونان، فقد عاش الإنسان منذ عصور ما قبل التاريخ، ومنذ الألف الثالث قبل الميلاد بدأت حضارة منظّمة على يد شعوب أتت من آسيا عن طريق سهل الدانوب ومنطقة تراقيا، وأقامت على الشواطئ وخاصّة في سهل تسالا الخصب، حيث أتقنت الزراعة وبنت البيوت، وصنعت الفخّار، وعالجت النحاس وصنعت منه عددًا من الأدوات والأواني. ثمّ توزّعت في أرجاء بلاد اليونان، كما نزحت إلى الجزر فإلى شواطئ آسيا، وأسّست مدينة طروادة. أمّا الشعب اليوناني الذي تكوّن في ما بعد، فيرجع في معظمه إلى مجموعتَين من الشعوب الهندو أوروبيّة هما الآخيّون والدوريّون. أمّا الآخيّون فبدأوا يصلون إلى البلاد منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، قادمين من أواسط آسيا، دخلوا إلى بلاد اليونان من الشمال، على دفعات وبموجات متلاحقة خاصّة بين القرنين التاسع عشر والرابع عشر قبل الميلاد. وكانوا قبائل

---

١ ـ د. أبي فاضل وهيب، موسوعة عالم التاريخ والحضارة، دار نوبيليس (بيروت،٢٠٠٣) ١: ١٢٨ ـ ١٣٠.

بدويّة، يعتمدون على تربية المواشي، ويعرفون النحاس. تغلّبوا على سكّان البلاد الأصليّين بسهولة. لكنّهم اقتبسوا حضارتهم وكانوا على درجة متقدّمة من المعرفة. وقد بنى الآخيّون المدن وأحاطوها بسور لحمايتها، وبنوا قلاعًا للدفاع، وكانت ميسين Mycènes أهمّ مدنهم في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، بنوها على الطريق بين خليجَي الأرغوليد وكورنث التي كشف عنها العالم الألمانيّ شليمان سنة ١٨٧٦م، وكان ملكها القويّ أغممنون قد حارب مدينة طروادة في آسيا الصغرى. وكانت الحضارة والتقاليد في ميسين وغيرها من مدن الآخيّين تستوحى من حضارة أهل كريت.

في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، تعرّض الآخيّون لخطر شديد، فقد هدّدتهم شعوب هندو أوروبيّة أخرى هم الدوريّون، وهم من القبائل البدويّة الشديدة المراس، والتي كانت تحمل سلاحًا من الحديد. وقد دخلت تلك القبائل البلاد وأحرقت وخرّبت، فهاجر السكّان إلى الجزر وإلى شاطئ آسيا الصغرى، وحدثت حركة شعوب البحر التي بدّلت الوضع في شرق المتوسّط. وشكّل الذين انتقلوا إلى آسيا الصغرى مجتمعًا جديدًا، ارتسمت فيه الخطوط الأولى للحضارة اليونانيّة، وانتقلت من هناك إلى بلاد اليونان وإلى كافّة المدن الإغريقيّة. ومع الأيّام، امتزجت تلك الشعوب: الإيجيّون، والآخيّون، والدوريّون، وشكّلوا الشعب اليوناني أو الإغريقي، وتكلّموا لغة واحدة، وأصبحت لهم ديانة وطرق عبادة واحدة. ولكنّهم لم يتوحّدوا سياسيًا ولم يشكّلوا دولة موحّدة، بل توزّعوا في مدن سياسيّة شكّلت كلّ منها دولة. وقد أطلق المؤرّخون على اليونان أسماء مختلفة، حسب لهجاتهم ومناطقهم. فكان الأيوليّون على شواطئ آسيا الصغرى الشماليّة وفي بعض جزر بحر إيجه. والأيونيّون في منطقة الأتيك جنوب شرق البلاد، وفي أثينا، وفي جزر السيكلاد وشواطئ آسيا الصغرى. والأركاديّون في

منطقة أركاديا وباقي غرب البلاد. والدوريّون في شبه جزيرة البلوبونيز وفي عدد من جزر إيجه وكريت[1]...

الحضارة والدّين

فِي اليُونــــــــان

كان اليونانيّون شعبًا مؤمنًا، وقد عبدوا آلهة كثيرة، ولم يكن لهم كتاب مقدّس، فحاكوا الأساطير حول الآلهة حتّى أصبح لهم أدبٌ خصب هو الميثولوجيا. وآمنوا بأنّ الإنسان بحاجة إلى الصلاة والسيرة الحسنة ليرضي الآلهة، ولم يكن لهم عمومًا كهنة، بل كان الأب يرئس الصلاة في إطار العائلة، والحاكم في إطار المدينة. وكانت الآلهة اليونانيّة كثيرة، وانتشرت في اليونان عبادة الإلهة الأنثى كما هي الحال في مناطق واسعة من الشرق الأدنى، لأنها تمثّل قوّة الخصوبة في الطبيعة، وفي ذلك إسقاط للنموذج الأنثويّ الأصليّ عليها. وأُطلق عليها أسماء متنوّعة، فهي: "الأمّ"، و "الأمّ العظيمة"، كما أُطلق عليها في ما بعد "أمّ الآلهة". ويمكن كذلك أن تُسمّى "إنانا Inanna" أو "عشتار Ishtar"، و"عناة Anat"، وقد ورد في أسفار العهد القديم إسم "بيت عناة" و"بيت شمس" لتسع عشرة مدينة. أو "أتارغاتيس Atargatis"، و"ريا Rhea"، أو "ديكتينا Dictynna"، و"باوبو Baubo" أو "اللات Allat"، أو "سيبيل Cybele". وغالبًا ما يكون لها زوج أو رفيق، إله شاب، يموت فتحزن عليه، ثمّ ينهض من جديد أو يبقى حيًا بمعجزة. ولقد كان هذا الإله هو "دوموزي Dumuzi"،

---

١ ـ أبي فاضل، موسوعة عالم التاريخ والحضارة، ١: ١٣٣ ـ ١٣٤.

أو "تمّوز Tammuz"، أو "أدونيس Adonis" روح النبات الذي يموت في فصل الشتاء[1].

كانت الإلهة الأمّ موجودة بالفعل عندما وصل الهيلّينيّون إلى اليونان، وكان اسمها في "أرغوس Argos" "هيرا Hera" ومعناه "السيّدة" التي حلّت محلّ "ديوني Dione" زوجة لـ "زيوس Zeus"، وكان اسمها في "دلفي" هو " XE" ومعناه "الأرض". وكانت لها عرّافة قديمة، وفي "إلوسيس" كان اسمها أيضًا "الأرض الأمّ" "ديمتر Demeter"، فإنّ مقطع "متر Meter" في اسمها مشتقّ من "ماتر Mater" بمعنى الأمّ، وفي تفسيرات القدماء أنّ "دي" هي صيغة من "غي" أي الأرض، وبذلك يكون معناها أمّنا الأرض، أو الأرض الأمّ. وكان اسمها في إسبرطة "أورثيا Orthia"، ولقد جاءت بدورها من آسيا عبر جزر إيجه متخفّية في أشكال مختلفة. وكان اسمها في أفيسوس "أرتميس Artemis"، وأصبح معبدها أحد عجائب الدنيا، ومن هناك وصلت إلى جزيرة "ديلوس Delos"، ثم من ديلوس إلى "أركاديا Arcadia" في البلوبونيز ـ المورة، و"براورون Brauron" في أتيكا. ولقد روّضها اليونان وجعلوا منها ربّة للطبيعة البريّة، وصائدة عذراء، وإن كانت تسرّبت روايات عن حملها لطفل، وعن رفيقتها "كالليستو Callisto" التي تقول الأسطورة إنّها كانت رفيقة صغيرة لأرتميس، وكانت ترتدي دائمًا زيّ الربّة نفسها وتشاركها هواية الصيد، وقد غرّر زيوس بهذه الفتاة وجامعها وهو متنكّر في صورة دب. وقد مسختها أرتميس دبّة لغضبها الشديد عندما اكتشفت وهي تستحمّ معها في الينابيع أنّها حبلى، وانتزع زيوس الطفل من بطن أمّه قبل مصرعه.

---

١ - بارندر جفري، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ترجمة: إمام عبد الفتّاح إمام، مراجعة: د. عبد الغفّار مكّاوي، ط٢، مكتبة مدبولي للنشر والتوزيع (القاهرة، ١٩٩٦) ص ٨٣.

أمّا "أفروديت الأمّ"، إلهة الحبّ والجمال والإخصاب، المولودة من زبد البحر الذي اختلط بقضيب أورانس إله السماء بعد أن مزقه أبناؤه إربًا، فقد رحلت إلى "بافوس Paphos" في قبرص حيث شُيّد لها أقدم معبد في العالم اليونانيّ كلّه. ولتسميتها "بالمولودة من زبد البحر" معنى مزدوج: فهذه التسمية تدلّ على البحر الذي خرجت منه أفروديت كما هي الحال في لوحة الرسّام الإيطالي ساندرو بوتشيلي (١٤٤٥ ـ ١٥١٠) الشهيرة، كما تدلّ أيضًا على الرغاوى المحيطة بالحيوانات المنويّة. وهناك تقليد آخر يقول بأنّ أفروديت، في الأساطير، هي ابنة "زيوس" من "ديونا" وزوجة إله الحدادة "هيفايستوس"، ولكنّها أحبّت "آرس" إله الحرب فأنجبت منه "إيروس" إله الحبّ. وكانت تُسمّى قبرص وكوثيريا لأنّ عبادتها انتشرت بهاتَين الجزيرتَين.

وانتقلت عبادة أفروديت من قبرص فوصلت ميناء كورنثة، حيث كان معبدها يرتفع عاليًا على الأكروبوليس، مزوّدًا بأكثر من ألف معبد للبغايا، أو "بنات الضيافة" اللائي كنّ، كما يقول الجغرافيّ والمؤرّخ اليونانيّ سترابو Strabo (٦٤ ـ ٢٣ ق.م) مركز الجذب الرئيسيّ في المدينة. وأصبح فعل "يتكرنث"، المشتقّ من اسم المدينة كورنثة، مرادفًا، في نظر الأتقياء، "للاّأخلاقيّة الجنسيّة"[١].

ولقد عرف الإغريق أيضًا قصّة موت الروح النباتيّة في أسطورة حبّ أفروديت لأدونيس الذي قُتِلَ وهو يطارد الخنزير البريّ، لذلك اعتبرها باحثون نسخة عن المعبودة الشرقيّة "عشتروت" وأنّ عبادتها إلى اليونان جاءت متأخّرة. وهي نفسها "فينوس" عند الرومان. وكانت تُسمّى أيضًا "بانديموس" أي إلهة الخلق أجمعين. وعندما

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٨٣ ـ ٨٤.

قدّم لها "باريس" التفّاحة التي اختلفت عليها الربّات كافأته على ذلك بأن وهبته "هيلين" أجمل امرأة في العالم، التي من أجلها نشبت حرب طروادة، فكان لزامًا على أفروديت أن تقف إلى جانب الطرواديّين في هذه الحرب. وقد ساوى الإغريق معبودة المصريّين "حتحور" بمعبودتهم أفروديت، فحوّلوا اسم مركز عبادتها على الشاطئ الشرقيّ للنيل من "طبحة" إلى "أفروديتوبوليس" أي مدينة أفروديت. كذلك حوّلوا اسم "كوم أشقاو" على الشاطئ الغربيّ للنيل إلى أفروديتوبوليس أيضًا لأنّ معبودتها كانت "حتحور" وكان رمزها حيّة مقدّسة، أمّا اسمها القبطيّ فكان "شكو"، وقد عُثر في خرائبها على كثير من قراطيس البردى مكتوبة باللغة الإغريقيّة. وهناك في مصر أيضًا قرية لا زالت تحمل اسم "أفروديتي برينيكي" تقع في إقليم الفيّوم، فيها آثار للبطالسة.

وما يجب ألاّ يغيب عن البال هو أنّ التغلغل الحضاريّ لم يكن في مجرى واد من أثينا باتّجاه الشرق. فكما أنّ الشرقيّين تمغربوا كذلك تمشرق الإغريق أيضًا. فقد دمج الإغريق آلهة ساميّة في عداد آلهتهم، فأصبح الإله الساميّ "بعل" عندهم "زوس"، وأصبح "ملقارت" "هرقل". وأصبحت الطقوس الرمزيّة التي كانوا يقيمونها لـ"تمّوز" و"عشتروت" طقوسًا رمزيّة إغريقيّة يقيمونها لـ"أدونيس" و"أفروديت". وكان بعض الملوك السلوقيّين يضيفون اسمًا ساميًّا على أسمائهم. والحقيقة أنّ العالم الإغريقي أخذ عن الحضارة الشرقيّة ما لا يقلّ عمّا أخذه الشرقيّون عنهم[١].

وطرح اليونان الأسئلة الكثيرة عن الكون وواقع الإنسان ومصيره، وبحثوا عن الأجوبة، وقد سبقهم الشرق وطرح هذه الأسئلة ووجد الأجوبة في الدين، لكنّ اليونانيّين

---

١ ـ حتّي د. فيليب، لبنان في التاريخ، طبعة فرنكلين (بيروت ـ نيويورك، ١٩٥٩) ص٢١٩.

حاولوا أن يأتي الفكر البشريّ بالأجوبة. فبحثوا عن المعرفة والحكمة. وظهر الفلاسفة أو أصدقاء الحكمة. وبدأ الفلاسفة في آسيا الصغرى وفي اليونان الكبرى وفي جنوب إيطاليا، وبرز مفكّرون أبرزهم طاليس وأنكسيمانر وفيثاغور. وبلغ النشاط الفلسفيّ ذروته في أثينا، فظهرت المدارس الفلسفيّة، وفلاسفة كبار، وضعوا مبادئ الفكر الفلسفي، وما زال العالم يذكرهم، فظهرت المدرسة الفلسفيّة الماورائيّة وعنت بالعلوم وبحثت عن مصير الإنسان، والمدرسة السفسطائيّة وغايتها الوصوليّة في المجتمع. وكان سقراط (٤٨٦ ــ ٣٣٩ ق.م) صاحب شعار "إعرف نفسك" أكبر الفلاسفة، وتلميذه أفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق.م) ثمّ أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م).

واهتمّ اليونان في عدد من حقول العلم. ففي الرياضيّات والهندسة والحساب لمعت أسماء أبرزها طاليس وفيثياغورُس. وفي الفلك أنكساغوراس وديموقريطس. واهتمّ اليونان بصحّة الإنسان، وأعطوا الطبّ طابعًا علميًّا ووضع أبقراط أساسًا علميًّا وأدبيًّا لمهنة الطب، ووضع قسَمًا لمَن يمارس هذه المهنة. واهتمّ اليونان بأحداث الماضي، فباشروا كتابة التاريخ كما فعل "هيكاته" في آسيا الصغرى منذ نهاية القرن السادس قبل الميلاد، وكما فعل هيرودوتس (٤٨٤ ــ ٤٢٥ ق.م) أبو التاريخ، وبعده توسيديدُس (٤٦٠ ـ ٣٩٥ ق.م.). وأحبّ اليونان الجمال وجسّدوا معالمه في أعمالهم الفنيّة الغنيّة من بناء ونحت وتصوير. فقد بنوا المعابد ورفعوا الأعمدة ونحتوا تيجانها، وكان لهم منها أربعة أنماط. فمنها البسيط والقويّ مثل النمط الدوريّ، ومنها الأنيق مثل النمط الأيونيّ، والمزخرف يمثّله النمط الكورنثي، أو "الكارياتيد" حيث العمود عبارة عن تمثال امرأة. واشتهر الفنّانون بالنحت، وأجادوا بنحت تماثيل الإنسان عاريًا، ووضعوا قواعد للجَمال. وبلغ الفنّ ذروته في عصر بريكلس حيث قام بتزيين أثينا وبإقامة

ورشة فنيّة رائدة على هضبة الأكروبول حيث تمّ بناء المعابد والمسارح والحدائق والساحات ونحت التماثيل وعرضها. ولمعت أسماء عدد كبير من الفنّانين في هذا المجال[1]. وهكذا يتّضح أنّ الحضارة اليونانيّة لم تكن مرتكزة على الدين والآلهة بشكل رئيسيّ، بل هي أعارت الإنسان وفكره وفنّه اهتمامًا ساميًا، من دون أن تهمل شأن الآلهة، غير أنّ ذلك الشأن كان ثانويًا نسبيًا بالمقارنة مع غير حضارة.

العَقيـدَة

المينويّة

تُنسب المينويّة، على الأرجح، كما سبق وذكرنا، إلى مينوس Minos الملك، أو البيت الحاكم الذي سيطر على جزيرة كريت لحقبة طويلة. وهي تُعرف أيضًا باسم الديانة الكريتيّة، نسبة إلى جزيرة كريت التي كانت المركز الرئيسيّ للثقافة المبكّرة. وكان للـ"أمّ" فيها مكانة عالية. فقد سادت في البداية التماثيل الصغيرة، رغم أنّها لم تكن تقتصر على تماثيل الأنثى. ولكن في الألف الثاني قبل الميلاد، اكتملت صورة الإلهة تمامًا. ولقد ارتبطت بالحيوانات والطيور والثعابين، كما ارتبطت بالعمود والشجرة، والسيف والفأس المزدوج، وصارت لها السيطرة على جميع مجالات الحياة والموت. ويصوّرها تمثال شهير، وهي واقفة فوق الجبل، يحيط بها أسدان. وتمثال آخر والثعابين تطوّق ذراعيها، أمّا رفيقها الشاب الذي عرفه الإغريق باسم "زيوس"، فتقول الأسطورة إنّه وُلد فوق جبل "إيدا Ida". وكانت العقيدة تنطلق من عبادة الخصب، حيث

---

١ ـ أبي فاضل، موسوعة عالم التاريخ والحضارة، ١: ١٤٦ ـ ١٤٩.

ارتبطت الإلهة بالقمر، لِما للقمر من ارتباط بالطمث، وقوّة النساء. كما ارتبط زوجها بالشمس. وقد تمثّلوهما أحيانًا على صورة البقرة والثور. وكانت أسطورة حب "باسيفي Pasiphae"، زوجة الملك مينوس التي تولّدت في نفسها رغبة شاذّة نحو الثور الذي وعد زوجها بذبحه قربانًا للآلهة، ثم عاد واحتفظ به لينتج له سلالة من الثيران على شاكلته. كما كانت أسطورة اغتصاب "أوروبّا Europe" الفينيقيّة من قِبَلِ ثور، أسطورتَين تنتميان معًا إلى كريت.

وكان الزواج المقدّس جانبًا هامًّا من الطقوس. وفي إحدى صور هذه الأساطير، يروي هوميرُس في الأوديسّة أنّ "ياسيون Jasion"، وهو إله قديم للزراعة قبل مجيء الإغريق، قد جامع "ديمتر" في حقل محروث ثلاث مرّات، وأنّ زيوس قتله بصاعقة عندما علم بذلك.

ويروي هزيود أنّ ياسيون قد أنجب من الربّة "ديمتر" الإله "بلوتو" الذي يظهر في الاحتفالات على هيئة طفل يحمل ثمار المحصول رمزًا للوفرة والغنى. ونجد رابطة لا تخفي بين الأسطورة وتخصيب الأرض. والتفسير نفسه يُعطى لِما منحه أهالي كريت من سيادة عامّة للحيوانات في شعائرهم.

من آثار تلك الحقبة محاريب هامّة في الكهوف والمغاور، وقد كشفت عمليّات التنقيب في كهف "كيماريس Kamares" عن أواني جميلة من الفخّار، وأكوام من الحبوب كانت في ما يبدو تُقدّم "للأم"، وقد بقي الكهف الواقع أسفل قمّة جبل "إيدا" حتّى العصور الرومانيّة بمثابة محراب لزيوس. كما وُجِدَت قرابين من الحيوانات، وأعمال برونزيّة مبهرة. وفي كهف "بسيكرو Psychro" وُجدت لوحة برونزيّة، تمثّل وفاءً لنذرٍ منذ حوالى ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد، عليها منظر للعبادة يبيّن الربّة على شكل طائر،

وهي تقف على شجرة مقدّسة، وفي خلفيّة اللوحة: الشمس، والقمر، وقرنا التكريس، والناذر نفسه[1].

الكَـــــونْ

مَدينَة زيُوس

عندما جاء الهيلّينيّون الغزاة إلى اليونان في الألف الثاني قبل الميلاد، جلبوا معهم إله السماء الهندو أوروبيّ العظيم "ديوس Dyaus" أو "زيوس Zeus"، ومعنى الإسم في الأصل "السماء". وكان من الطبيعيّ للبدو المهاجرين أن يمجّدوا قبّة السماء، فالأرض يمكن أن تتغيّر، أمّا السماء فلا تتغيّر. ومع "زيوس" جاءت رفيقته الملازمة له ملازمة الظلّ "ديوني Dione"، والعذراء "بلاس Pallas"، التي تقوم بالإشراف على المعارك. وسوف يغدو إسم "بلاس" لقبًا من ألقاب أثينا شاع منذ هوميرُس؛ وتقول الإسطورة إنّ جبّارًا يُدعى "بلاس"، حاول مغازلة أثينا فقتلته، وأضافت اسمه إلى اسمها ليكون ذلك نذيرًا لغيره من الخطّاب، وهكذا ظلّت أثينا عذراء. وكانت العذراء "بلاس" واحدة من خادمات المعارك الاثنَي عشرة، تطوف أرض المعركة، وتختار من القتلى من تقودهم إلى العالم الآخر.

إلتقى هؤلاء الغزاة في اليونان بإلهة "الأرض الأمّ". ومع أوّل موجة من موجات المهاجرين من الهيلّينيّين، احتفظت هذه الآلهة بمكانتها المرموقة السابقة، وأصبح إله

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٨٦.

السماء "بوزيز ـ داس Posis – Das" زوجًا لـلأرض. وبذلـك تبـدّل معتقـد الهيلّينيّيـن، وأصبـح كلّمـا ثبَّـت "زيـوس" سـلطانه، انزاحـت صـورة "زنـوس" إلـى البحــر لتصبــح "بوزيدون Poseidon"، وهو إله البحر والعواصف وشقيق زيـوس، الـذي كـان مزواجًـا وله عدّة عشيقات من عرائس البحر، وحوريّات الينابيع. وقد عرّفه هومـيرُس بأنّـه إلـه الزلزال (الإلياذة ١٥: ٢٠٥) وأنّـه ابـن كرونـوس مـن "رحيـة" وهـو يشـترك فـي بنـاء أسوار طروادة مع أبّولو، ولكنّ "لاوميدون" لا يدفع له أتعابه ويهدّده باستعباده (الإليـاذة ٢١: ٤٤٢ ـ ٤٤٦). وهو يُعبد كإله للبحر فـي جميـع المناسـبات. ونبتـون هـو النسـخة الرومانيّة لبوزيدون[١].

وتطـوّرت الأمـور نحـو حـلّ وسـط، قضـى بـأن تختفـي "ديونـي" ويقبـل "زيـوس" "الأرض الأمّ" في صورها المختلفة رفيقة لفراشه، ومن هنا جاءت غراميّاتـه المتعـدّدة، فزواج السماء والأرض جعل الخصوبة مضمونة، ويمكن أن يصبح رفيق الأمّ هو ابـن زيوس مثل "هرقل Heracles". أمّا في أثينا فقد تمّت الغلبة للعذراء، وتحولـت الأمّ إلـى عذراء مقاتلة هي "أثينا ـ بلاس". ولمّا كان من الطبيعيّ أن يُعبد إلـه فـوق الجبـال، فقـد اتّخذ زيوس عرشه فوق أعلى جبل وهو جبل "أوليمبوس Olympus"، حيث شيّد في ما بعد محرابه فوق إحدى القمم المنخفضة، رغم وجود عروش كثيرة له: في الأكروبـول وفي أرغوس Argos، وفي جبـل كوريسـوس Coressus فـي أفسـس، وفـي جبلَيـن فـي أنطاكية. ومن الطبيعيّ أن يمرّ الإله العظيم نفسه بألوان مـن التحـوّلات المختلفـة، ففـي كريت، حيث وُجدت حكايات كثيرة عن مولد "زيوس"، امتزج بالإله المحليّ للخصوبة، وتوحي أسماؤه المتعدّدة بأنه كُتبت له السيادة على وظائف معظم الآلهة المتخصّصيـن.

١ ـ الحوراني يوسف، نظريّة التكوين الفينيقيّة وآثارها في حضارة الإغريق، دار النهار للنشر (بيروت،١٩٧٠) ص٨٠.

فقد أدرك اليونانيّون باكرًا، على نحو غير عاديّ، وجود إله عال محيط بكلّ شيء، وأصبح "زيوس" هو الإله الذي يرعى الاستقامة. وقد ظهر اتّجاه نحو وحدانيّة ممكنة، وممّا يشير إلى ذلك أنّه بمناسبة عيد الإله "زيوس" في أولمبيا Olympia، عُقدت هدنة بين اليونانيّين المتحاربين. وقد وضع الشاعر اليونانيّ أسخيلوس Aeschylus (٥٢٥ ـ ٤٥٦) مسرحيّة بعنوان "الأورستيا Oresteia"، كتبها في ثلاث لوحات هي: "أجاممنون" ويصوّر فيها القائد بعد عودته من حرب طروادة، وخيانة زوجته؛ ثم "حاملات القرابين" وهنّ جماعة من النساء يأتين بالقرابين إلى قبر الملك بعد أن قتلته زوجته مع عشيقها، وفيها أيضًا نجد "أورست" يقتل أمّه انتقامًا لأبيه؛ أمّا الثالثة فهي "ربّات الرحمة" أو "الراجيات الخير" وفيها يتضرّع أورست إلى الإلهة أثينا لكي تنجّيه، وتحتجّ ربّات الانتقام، فتنعقد محكمة من الآلهة لمحاكمته... وتعدّ الأورستيا أروع آيات الأدب اليونانيّ في نظر كثيرٍ من الباحثين. ففي هذه الثلاثيّة المسرحيّة نرى الإله زيوس في خلفية المسرحية يتكاثر، فهو زيوس "المنقذ"، وزيوس "محقّق الآمال"، ومع التحوّل من زيوس حامي حمى الضيافة، إلى زيوس إله المجلس السياسيّ، وجدناه يحقّق ذاته. ولقد صوّره المثال "فيدياس" في تمثال اعتقد "كونتيليانوس Quintianus" أنّه يضيف جديدًا إلى الديانة التقليديّة، وهو تمثال أوحى إلى "ديون البروزي Dion of Prusa" بموعظة نبيلة. أمّا بالنسبة للرواقيّين، فقد كان زيوس كلّ شيء ومنبثًّا في كلّ شيء؛ ولهذا كان من الطبيعيّ أن يطلقوا على الكون اسم "مدينة زيوس"[1].

لقد غدى زيوس في الديانة اليونانيّة، سيّد الأرباب، فبعد أن انتصر على أبيه كرونس في حرب طاحنة، راح يوزّع ملكوت العالم على إخوته، فأصبح هو حاكم

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٨٧.

السماء والأرض، ونصّب أخاه بوزيدون ملكًا على الماء، وهاديس حاكمًا للعالم السفليّ، واتّخذ من أخته هيرا زوجة وحامية للأسرة، ومن ديمتر راعية للحصاد... وتزوّج كثيرات من الآلهات والنساء والحوريّات، وأنجب منهنّ أطفالاً هم: أفروديت، وأرتيميس، وهيرميس، وأبّولون، وأثينا التي انبثقت من جبينه. وباعتباره إله الجوّ، يُنسب إليه الرعد والبرق، وبهما يمارس سلطته. والمطر الذي به يخصب الأرض، وهو رمز القوّة، والقانون، وصاحب الكلمة العليا في مجلس آلهة الأولمب. وهو نفسه عند الرومان "جوبيتير"، وعند الساميّين "زاويش".

مَجمَع الآلهَة

إنّ مجمع الآلهة في جبال الأولمب، أشبه بحكومة تكنوقراطيّة، ولكنّ أعضاءها من الآلهة. ففي ذلك المجمع، يُعتبر زيوس السيّد المسيطر والقائد الأعلى وأب الآلهة والبشر، ثمّ تتوزّع الاختصاصات في الوظائف: فـ "هيرا" هي حارسة الزواج؛ و"بوزيدون" حاكم البحر؛ و"أفروديت" معنيّة بقوّة الحب؛ و"آرتميس" مسؤولة عن الطبيعة البريّة؛ أمّا أثينا فهي، بالإضافة إلى خصائصها الحربيّة، ربّة الحكمة وراعية الفنون؛ و"ديمتر Demeter" هي الأرض الأمّ، وارتبطت بصفةٍ خاصة بحصّاد القمح؛ وأمّا الإله "أبّولو" فهو مركّب ومثير للخلاف: فاسمه مزدوج "فوبس أبّولو Phoebus Apollo" أي "أبّولو المطهّر"، والمركز الرئيسيّ لعبادته مزدوج أيضًا، بحيث أنّه موجود في "ديلوس"، كما في "دلفي"، وهو يرتبط ارتباطًا مزدوجًا بالشمال والشرق، وهذا يشير إلى أصله المركّب. ويوحي لقب "فوبس" بأنّه إله الشمس الذي يرسل أشعّته فتنتشر الوباء كالسهام، والذي يستطيع أن يعالج الطاعون كما يستطيع أن يأتي به، ولقد

أشرف في العصور الكلاسيكيّة على الثقافة بمعناها الواسع: الموسيقى، والأدب، والفكر الراقي؛ أمّا الإله "هرمس Hermes" فهو "ركام من حجارة"، أو "كومة من الأحجار"، ذلك أنّ اسم هرمس مشتقّ من لفظ "هيرما Herma" أو "هرمايون Hermaion" بمعنى كومة من الحجارة، أو نصب حجريّ، وكانت الأكوام الحجريّة تُستخدم كعلامات على جوانب الطريق تحديدًا لها وهداية للمسافرين، لذلك أصبح هرمس مرشدًا للمسافرين والتجّار، ورسول الآلهة الذي يرافق الموتى، وهو"المحتال النشط"، فقد وُصف هرمس بأنّه محتال مخادع ومكّار، ومن هنا نشأت شهرته في اللصوصيّة ورعاية اللصوص، وهي حرفة أعانته عليها خفّة حركته ومعرفته التامّة بالطرق والدروب، ونظرًا لمعرفته بهذه الطرق فقد أصبح إلهًا للتجّار، وهو شبيه بالـ "قيوط Coyote" في أميركا، أو "أنانسي Anansi" في غرب أفريقيا، فالقيوط ذئب صغير ماكر في أميركا الشماليّة، وأنانسي شخصيّة تلعب دور المحتال في الأدب الشعبيّ الأفريقيّ. وكلمة "هرمايون Hermaion" أو "كومة حجارة" تعني لقيّة تجلب الحظ، إذ كانت الحجارة أو الأعمدة المربّعة التي تحمل وجه إنسان وعضو الذكورة تحدّد شوارع المدينة.

كان هرمس أيضًا "إله الخطر"، ولمّا كان يُرمز إليه بعمود حجريّ يحيط بقاعدته كومة من الحصى، فقد أخذ العمود والإله يقتربان من الصورة الآدميّة في أذهان الناس حتّى شبّهوه بعضو الذكورة استجلابًا للخصب والوفرة؛ أمّا "هيفاستوس Hephaestus" فيمكن أن تتعقّب أثره حتّى حقول النفط في الشرق الأدنى، فمن الطبيعيّ بوصفه إله النّار أن يرتبط اسمه بالحدادة والتقنية؛ وأمّا "آريس Ares" فيبدو أنّه قدم من تراقيا، وأيًا كان أصله فقد كان عند الإغريق إله الحرب وعشيق أفروديت، فقد هام آريس حبًّا بأفروديت، وبادلته الربّة هذا الحبّ، فكان يزورها سرًّا في قصر زوجها هيفايستوس، لكنّ هليوس Helios، إله الشمس الذي لا يخفى عليه شيء، رأى العشيقَين في خلوتهما،

فأخبر الزوج الذي صنع شبكة من حديد وألقاها عليهما ليضبطا متلبّسَين؛ وأخيرًا هناك "هستيا Hestia" ربّة المدفأة والمنزل، وبذلك يكتمل عدد مجمع آلهة الأولمب الإثنَي عشر.

غير أنّ اسم "ديونسيوس" قد ظهر على لوح يعود إلى العصر الميكينيّ، (حوالى ١٥٥٠ ق.م) وبذلك يكون قد عُرف في زمن مبكّر. ولا بدّ أنّه أُجْبِر على التراجع أو الانزواء في ما بعد، فهو لا يظهر عند هوميرُس في أشعاره الأولى، ليعود إلى الظهور على نحو مفاجئ وعنيف، لقد جاء من تراقيا كقوّة للطبيعة البريّة، والوجد والنشوة الدينيّة، والنبيذ وثماره... وانتشرت عبادة النشوة بين النساء اللاتي كنّ يصعدن هائمات إلى قمّة الجبل في نوبة سعار مقدّس، ويصطدن إلههنّ في صورة حيوان ثم يلتهمنه. وهي صورة أعاد "يوربيدس" إبداعها على نحو بالغ الروعة في مسرحيّة "عابدات باخوس The Bacchae"، في الاحتفال بموت ديونسيوس وبعثه، حيث كانت النساء تصعد التلال في فصل الربيع لرؤية الإله حين يولد من جديد، وكنّ يقضين يومَين كاملين في احتساء الخمر بلا حساب حتّى يفقدن العقل من شدّة السكر، وكنّ يرقصن أثناء الشراب بطريقة هيستيريّة، ويُمسكن بماعز أو ثور يمزّقنه إربًا وهو على قيد الحياة، إحياء لذكرى تمزيق ديونسيوس، ثم يشربن من دمه، ويأكلن لحمه معتقدات أنّ الإله سيدخل بهذه الطريقة أجسامهنّ، ولفظ الحماس الإنجليزيّ Enthusiasm مشتقّ من إنثيوس Entheos أي "إله في الداخل" أو أن يمتلك إله جسم الإنسان[1].

إنّ هذه الطقوس تذكّرنا بطقوس عبادة أدونيس أو أدون وعشتروت الفينيقيّة التي كانت تجري في معبد أفقا في لبنان، ووجه التقارب بين هذه الاحتفالات يجعلنا نميل

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٨٩.

إلى اعتبار أنّ الواحدة مقتبسة عن الأخرى. وفي المقاربة التاريخيّة يظهر أنّ اليونان قد اقتبسوا تلك العبادة عن الفينيقيّين. فقد ظهرت تلك الطقوس في بلاد الإغريق عند مستهلّ القرن الخامس ق.م.، وليس بمستبعد أن تكون قد دخلت إليها من الشرق[1].

لقد أطلق الباحثون على قصائد هوميرُس اسم "إنجيل الإغريق"، وهي إن لم تكن كذلك، فقد كانت مسؤولة أكثر من أيّ عامل فرديّ آخر عن تثبيت وتدعيم صورة الآلهة الشبيهة بالبشر في أذهان الناس، غير أنّه من الأهميّة بمكان، أن نتذكّر أنّ هناك قوّة القدر "Moria " التي تعني أنّ زيوس قد يستطيع تحدّي القدر، لكن من الخير له ألاّ يفعل. ذلك أنّ زيوس ملك الملوك، وسيّد الآلهة، كان يطيعه كلّ شيء إلاّ ربّات القدر أو المقادير Fates القاطنات في العالم السفليّ "هاديس"، واللائي يجري قضاؤهنّ على زيوس نفسه.

وتحوّل بعض الآلهة إلى آلهة مدن، وسرعان ما دخلت الديانة السياسيّة. ولدينا "أثينا" كمثال واضح. ففي عام ٤٠٥ قبل الميلاد، صدر قرار يعطي حقّ المواطنة الأثينيّة إلى أبناء "ساموس Samos"، وهو قرار يوضّحه منظر "هيرا" إلهة ساموس، "وأثينا" إلهة الأثينيّين وهما يتصافحان، وتمثّل "هيرا" أيضًا مدينة "آرغوس Argos"، كما يمثّل أبّولّو مدينة إسبرطة وملطية وقورينة. أمّا الإلهة أرتميس فهي تمثّل "أفيسوس"، والإله هرقل جزيرة "تاسوس thasos"، و"بريابوس Priapus" إله الخصب والحدائق، الذي وُلد نتيجة لاتّصال ديونسيوس بأفروديت، فكان يمثّل مدينة "لامبساكوس La mpsacus" على الدردنيل حيث نشأت عبادته[2].

---

١ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص١٦٠.

٢ - بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٩٠.

الطبيعَة تَعني
قــوّة الحيَـاة

تحتلّ الطبيعة مكانة عالية في الميثولوجيا اليونانيّة. والملاحظ أنّ آلهة الإغريق مفعمة بالحياة، ومرتبطة بقوى الطبيعة ارتباطًا مثيرًا، سواء على صعيد النبات أم الحيوان أن الطبيعة أم الكواكب.

فالجبل هو عرش إله السماء، ويصعد المتعبّدون إلى قمّة الهضبة للصلاة من أجل المطر. ولكلّ شجرة حوريّة من حوريّات الغابة، وشجرة البلّوط مقدّسة عند زيوس، وشجرة الزيتون مقدّسة عند الإلهة أثينا، والغار عند أبّولّو، والنباتات العطريّة عند أفروديت، وخشب الحور عند هرقل، والأيكات والبساتين، بصفة خاصّة كانت موضع التقديس، فهي ملجأ وملاذ كما عبّر عن ذلك إسخليوس في مسرحيّة "الضارعات". ولكلّ ينبوع حوريّة، ولكلّ نهر إله. ولقد ألّف "جيمس ر. سميث James R. Smith" مجلّدًا ضخمًا صنّف فيه "الينابيع والآبار في الأدب اليونانيّ والرومانيّ" مع عرض لأساطيرها وقصصها المقدّسة. ومَن يضلّ طريقه في الريف يمكن أن يلتقي بالإله "بان Pan"، وهو إله الرعاة والقطعان والغابات والمراعي، كانوا يصوّرونه نصف إنسان من الرأس حتّى الفخذَين، ونصف جدي، فقد كان فيه من الجدي ساقاه وأذناه وقرناه، تُسمع صفّارته في كلّ جدول ووادٍ، وتبعث صيحته الفزع، وكلمة Panic الإنجليزية التي تعني الفزع مشتقّة من الإله "بان"؛ أو بالإلهة، "ساتير Satyrs"، إلهة الغابات في أساطير الإغريق، لها ذيل وأذنا فرس، وتميل إلى العربدة والانغماس في الملذّات؛ أو بالـ"كناطير Centaur"، وهي جماعة من الوحوش البريّة، يُقال إنّ لها رأس إنسان وجسد حصان، كانوا يعتقدون أنّها كانت تعيش في الغابات وأعالي الجبال، وأنّها من

نسل أكنطورس إبن إكسيون Ixion، الـذي يقـال إنّـه كـان يجـامع الأفـراس قـرب جبـل بيليون. وكان البحر مسكن الإله بوزيدون، وهو أيضًا بيت "بروتيوس Proteus"، الإلـه الصغير من آلهة البحر، الذي كان في البداية راعـي قطعـان البحـر كالأسماك وكـلاب البحر...، وعند هوميرُس أنّه كان جنيًّا مصريًّا يخدم بوزيـدون إلـه البحـر، وكـانت لـه قدرة سحريّة على تغيير شكله؛ وعروسة البحر الرماديّة "غلوكس Glaucus"، التي كانت كانت تُسمّى الرماديّة المائلة إلى الزرقة، وهذا هو معنى غلوكس؛ والحوريّة المقدّسة "إنو ليوكوثيا Ino Leucothea"، التي ساعدت أوديسيوس في محنته بعد أن هشّم بوزيدون زورقه، فأعطته وشاحًا لفّه حول وسطه، واستطاع أن يسبح بـه ثلاثة أيام حتّى وصل إلى الشاطئ؛ وعرائس البحر الفاتنات "تاريدات Nereids"، وهنّ مجموعة من الحوريّات التي تزعم الأسطورة الإغريقيّة أنّهنّ من بنات إله البحر "نيريوس Nereus"؛ والتريتون المتوحشّة "Tritons"؛ نصف الإله من آلهة البحر، صاحب جسم الرجل وذيل السمكة؛ والسيرينيّات المهلكات، وهنّ مجموعة من كائنات أسطوريّة لها رؤوس نساء وأجسام طيور، كانت تسحر الملاّحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك، ولهذا اضطرّ أوديسوس إلى إغلاق آذان رجاله بالشمع عندما مرّ بجزيرتها أثناء عودته من طروادة؛ أمّا فوق في السماء، فكان "زيوس" يمارس قوّته الردعيّة؛ وأمّا الشمس والقمر المقدّسان، فيتحركّان في هدوء، رغم ما قد يعلنه أحد العلماء الملاحدة الفيلسوف اليونانيّ أنكساجوراس Anxagoras (٤٩٦ ـ ٤٢٧ ق.م)، الذي ذهب إلى أنّ الشمس ليست إلهًا، وإنما هي حجر ملتهب تفوق في الحجم شبه جزيرة المورة، وأنّ القمر مسكون، وفيه جبال ووديان... وكان للنجوم أساطيرها المناسبة، ولقد أعلن فيلسوف عميق مثل أفلاطون أنّها مفعمة بالروح، وكلما مرّ الزمن امتلأت القبّة الزرقاء بين السماء والأرض بقوى وسيطة.

ويعتبر باحثون[1] أنّ هذا يؤثّر في فهمنا لبعض النصوص في الأدب اليونانيّ، فهناك تقدير ضعيف لجمال الطبيعة في ذاته، فاليونانيّون لا يتسلّقون جبالهم لكي يستمتعوا بالمناظر الطبيعيّة، فقد كانت الطبيعة تقدّم الطعام والشراب، والظلال الدافئة أو الباردة، فهي مفيدة ونافعة أو هي مرعبة ومدمّرة. غير أنّ الطبيعة تعني أساسًا قوّة الحياة، ولهذا كانت مقدّسة. والمنظر الشهير في بداية محاورة "فايدروس" لأفلاطون ليس وصفًا للجمال الطبيعيّ، وإنّما هو وصف لأيكةٍ مقدّسةٍ ولظلٍ مريحٍ، وعشبٍ، وماءٍ، ففي بداية المحاورة يبحث فايدروس وسقراط عن مكان منعزل على ضفّة نهر اليوسس "فهناك طلّ ونسيم عليل وحشائش خضراء نجلس أو نستلقي عليها إن شئنا". وإنّ "ديوتيما Diotima"، الإمرأة صاحبة الأعمال الجليلة، وهي على ما يروي سقراط في "المأدبة" أنّها علّمته فنّ الحب، لا تذكر جمال الطبيعة ضمن قائمة الجمال التي سردتها في محاورة "المأدبة" لأفلاطون. والواقع أنّ الريف اليونانيّ يكاد يزخر بالهياكل والتماثيل الصغيرة، والقرابين. ولقد وصف الجغرافي سترابو مصبّ نهر "ألفيوس Alpheus" على النحو التالي: ضفّة النهر كلّها مليئة بهياكل للإلهة أرتميس Artemis، والإلهة أفروديت، وحوريّات البحر في بساتين مزدهرة ترجع أساسًا لوفرة الماء، والعديد من تماثيل "هرمس" على الطريق، وتمتدّ هياكل للإله "بوزيدون" على لسانٍ من الأرض داخل البحر...

ويعلّق العالم السويديّ المتخصّص في الحضارة الإغريقية "مارتن نيلسون Martin Nilsson" بقوله: يكاد يصعب على المرء أن يخطو خطوةً واحدةً خارج الدار دون أن يلتقي بهيكلٍ صغير، أو سياجٍ مقدّس، أو صورةٍ، أو حجر مقدّس، أو شجرةٍ مقدّسة،

---

[1] ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٩١.

وربّما لا تكون هذه هي الصورة المثلى للديانة اليونانيّة، لكن من المؤكّد أنّها أكثر الصور ثباتًا.

وهكذا يتّضح أنّ اليونان قد أعاروا الطبيعة في عبادتهم ومعتقداتهم أجلّ اهتمام. وإذا كانت الديانات الهنديّة قد قدّست الطبيعة من منطلقات التناسخ والتحوّل وما شابه، فإنّ الإغريق قد أعطوها في تقديسهم معنى آخر: معنى الإجلال والرهبة.

الـوَرَع
الشعبيّ

كان لمفهوم "التطهّر والقداسة" اعتبار كبير في الديانة اليونانيّة. فالمحراب، أو قاعة الأسرار الدينيّة "Temenos" كانت مفصولة ومعزولة على حدة، وليس كالمعابد التي تحفل بها أماكن العبادة العامّة بالمعنى الحديث، فقد لا يدخلها بعض الناس إلا مرّة واحدة فقط في السنة، أو قد لا يدخلها سوى الكهنة فحسب، وقد لا تدخلها الكاهنات إلاّ منقّبات، كمثل معبد "سوسيبوليس Sosipolis" في مدينة "إليس Elis"، ويُكتب على الهيكل الداخليّ كلمة "Adyton" أي ممنوع الدخول. وهناك أماكن أخرى يُمنع فيها المشي مثل أريكة الإلهة ديمتر، والإلهة "Kore" ابنة ديمتر التي اختطفها هاديس إله العالم السفليّ، وعُرفت بعد زواجها منه باسم "برسيفوني Persephone" وهي ربّة الربيع في مدينة "ميجالوبوليس Megalopolis"، المدينة الرئيسيّة في الجزء الغربيّ من أقليم أركاديا، الواقعة على نهر "الفيوس Alpheus".

كان الدنس تهمة بشعة. ويمكن أن نسوق مثلاً جيّدًا على ذلك من مأساة أوديب الذي قتل أباه وتزوّج أمّه، ولا ندري إذا كانت هذه الجريمة قد ارتُكبت عن علمٍ وتعمّدٍ أم لا. كما كان على "أورست"[١]، أيضًا أن يتطهّر، ونحن نراه مرسومًا على مزهريّة وقد رشّ فوقه دم خنزير. وفي بعض الأحيان تستأصل الموضوعات الماديّة المرتبطة بجريمةٍ ما، ففي جزيرة "قوس" بعد أنْ انتحر رجل بشنق نفسه على شجرة، عوقب الحبل والشجرة بالإبعاد.

وفي أعياد "بوفونيا Bouphonia" الغربيّة ـ وهو عيد يحتفل فيه بزيوس في أثينا، يفرّ الكاهن بعد التضحية الرسميّة، وتحاكم الفأس وتدان، ويلقى بها في البحر. ويمثّل كبش الفداء صورة من صور التطهير. ففي أثينا، وفي غيرها من المدن الأيونيّة في عيد "ترجيليا Thargelia"، وهو عيد الإله أبولّو، تلقى خطايا الجماعة على عاتق فرد واحد يُسمّى "فارماكوس Pharmakos" أي العقار أو الدواء، فقد كان اليونانيّون إذا داهم المدينة قحط أو مرض قدّموا للآلهة ضحيّة بشريّة تطهيرًا للمدينة في هذا العيد، إذ كانوا يأتون بمواطن فقير ويطعمونه ويلبسونه ثيابًا كهنوتيّة ويزيّنونه بالأغصان المقدّسة، ثمّ يلقون به من فوق صخرة، ويقوم مَن حوله بالدعاء لأن يكفّر بعقابه هذا عن سيّئات مواطنيه! أو أنّهم كانوا يكتفون بطرد "الفرماكوس" من المدينة[٢].

وهناك أساليب عديدة للتطهر، أبسطها، التضحية بخنزيرٍ أو كلبٍ أو ديكٍ أو الاغتسال في ماء البحر، ثمّ امتدّت هذه الأساليب إلى خبرات كثيرة متكرّرة تعيد ذكرى

---

١ ـ إبن "أجاممنون" الذي انتقم من أمّه وعشيقها لقتلهما لأبيه،

٢ ـ كلمة PHARMAKOS : كانت تعني في الأصل "رقيّة سحرية" ثم أصبح معناها "العقار الشافي".

الإلهة "مانا Mana"، وهكذا يُقْضَى على المرض، أو تُهدى ملابس امرأة في المخاض إلى الإلهة "أرتميس البروريّة Artemis of Brauron"[1].

إنّ الورع الشعبيّ عند اليونان القدماء، الذي كان يسود الطبقات الإجتماعيّة المتديّنة، ولا سيّما الريفيّة منها، من منطلق حاجتها إلى الإيمان من أجل الحماية، جعل أفراد تلك المجتمعات يمارسون بعض الطقوس التي غالبًا ما يجهلون مغزاها الأصليّ، ويتردّدون على معابد محليّة كثيرة يكتفي آلهتها المؤالفون، الذين أوجدتهم تقاليد قديمة جدًّا، بنذوراتهم المتواضعة، ويخلو عملهم هذا من أيّ سموّ، وما الغاية منه سوى الحصول على عون فوريّ في الصعوبات اليوميّة ووقاية المواشي والحصيد المقبل، والتخفيف من ألم ورهبة مراحل الحياة البشريّة، منذ أوجاع الولادة حتّى أهوال الموت. ولا يخرج عملهم هذا عن مستوى العقول البسيطة التي تحسّ باستمرار وغموض بوجود قوى فائقة قريبة منها لا سبيل إلى إرضائها إلاّ بمراسم لا مكان للمنطق فيها. فإنّما الخوف هو الذي يوحي بهذه المراسم، لا الشعور الدينيّ بالمعنى الحصريّ. ومن شأن قدم تلك العبادات وتفاهتها أن يدهشها كلّ مَن لا يفكّر بوجود المجالات المظلمة في أرفع الحضارات بهاء. بيد أنّه يحدث أن تتغلّب هذه الخرافات وتقيّد النخبة على الرغم من اشمئزازها. ففي صبيحة يوم، كما جاء في بلوتارك، إذ كان "تيمستوكليس" يقدّم الذبيحة، أحضر أمامه ثلاثة أسرى من ذريّة "كسركسيس"، فشاهد أحد العرّافين إذ ذاك شهبًا يرتفع من وسط الذبائح وسمع عطسة عن يمينه. فأمر في الحال "بالتكريس"، أي بتضحية الأسرى لـ"دينيسيوس أومستيس" آكل اللحم النيء. فمانع تيمستوكليس، أوّلاً

---

[1] - بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٩٤.

ثمّ اضطرّته الجماهير اضطرارًا إلى التسليم بذلك. ويقـول بـاحثون إنّـه باسـتطاعتنا أن نستشهد بأمثلة أخـرى كقضيّـة بتر أعضــاء تمـاثيل هرمـس، لأنّـه "إلـه محتـال مخـادع ومكّار، اشتهر باللصوصيّة ورعاية اللصوص"، ودعوى القـادة فـي جزر "أرجينـوز" والحكم على سقراط بالإعدام بتهمة "إنكار آلهة المدينة وإدخال آلهة آخرين جدد فيهـا". وليست الصوفيّة ما يبعث انفجار الغضب الشعبيّ هذا، وباستطاعتنا أن نتصوّر والحالة هذه، عنف ثورة تتميّز بفطرة وحشـيّة يندفـع فيهـا الشـعب الأثينـيّ نفسـه، فـي سـاعات الشدّة، على الرغم من اشتهاره بالحلم والشـفقة، وبقـدر مـن السـموّ الفلسفيّ والجمـاليّ الذي توصّلت إليه ديانته الرسميّة.

وليس في الحقيقة باستطاعة المعاصرين أن يدركوا "الحروب المقدّسة" الأولى فـي القرن الخامس، والثانية ولا سيّما الثالثة والرابعة في القرن الرابـع، التـي أُعلنـت باسـم الإله على مدنّسي المقدّسـات، إلاّ كحـروب عاديّـة تسبّبها شـهوات السيطرة المتقابلـة، وتستتبع أحلافًا دبلوماسيّة وعسكريّة ليست الديانة لها سوى حجّـة واهيـة فحسـب. وقـد كـان مـن سـبارطة نفسـها، المشـهورة بتعبّدهـا العميـق لأبّولّـون المنتصـر علـى "الحيّـة الأصليّة"، أن ساندت، تشفّيًا من طيبة، الفوسيديّين المقيمين فـي دلفـي علـى الرغـم مـن استئجارهم المرتزقة بأموال الإله. وحين قام "فيليبُّس المقدوني" في حربه ضدّ مدنّسـي القدسيّات، بتتويج جنوده بغار أبّولّون، لم ينخدع أحد بهذا المشهد التمثيليّ.

وقد اتّفق قيام وضع مماثل لوضع دلفي في مكان آخـر مـن اليونـان، فقد بلـغ مـن تشيّع معبد "ديلُس" لأثينا ما حال دون استمراره في تقبّل إكرام الأيونيّين التقائيّ. وليـس غير القسر ما حفظ لأعياده ظاهر الاجتماعات "الدوليّة" التي كانت تتفاوت فـي الحقيقـة تفاوت نفوذ المدينة الحامية. وقد بلغ من إدراك الدبلوماسيّين لهذا الواقـع أنّهـم حـاولوا، دون جدوى على كلّ حال، حتّى قبل انتصار فيليبّس على أثينا، أن يتوجّهوا إلى دلفـي،

أي عمليًّا إلى الملك المقدونيّ، لنيل استقلالهم. وعلى الرغم من بعدها عن الطرق الكبرى المطموع فيها ومن كونها أكثر المعابد حيادًا حتّى ذلك العهد بين معابد الدرجة الأولى، تطرأ على أولمبيا نفسها، في القرن الرابع، تبدّلات سياسيّة المصدر. فقد فرضت سبارطة الطاعة بالقوّة على المدينة التي يرتبط بها المعبد. ثمّ سكّت كنوز المعبد نقودًا للانفاق على الحروب، وقد كان من حدّة المنافسات أن جرت المعارك حتّى داخل الأسوار المقدّسة[1].

عبَادَتَا الأسـرَار

والبَعث الرُّوحيّ

كان لدى اليونان عبادتان مميّزتان غلب فيهما طابع الديانة الشخصيّة، هما عبادة "الأسرار"، و"البعث الروحيّ".

تراءت صبغة عبادة الأسرار في بعض المعابد التي يتجاور فيها مؤمنون مختلفو التابعيّات، وكانت تلك العبادة محصورة في المعابد التي تُلقَّن فيها أوليّات بعض الأسرار. وعدد هذه المعابد كبير في اليونان. ولكنّ واحدًا منها فقط يجمع أتباعه في دائرة كانت تتّسع باضطراد، هو معبد "إليوسيس Eleusis"، في الأتيك، وهي المدينة التالية لأثينا، وكانت تقع على خليج شبه مقفل على سهل ساحل خصيب، كانت تُقام فيه

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، الشرق واليونان القديمة، ج ١، تأليف: أندريه إيمار، وجانين أوبوايه، نقله إلى العربيّة: فريد م. داغر، وفؤاد ج. أبو ريحان، ساهم في الترجمة يوسف أسعد داغر، وأحمد عويدات، إشراف موريس كروزيه، منشورات عويدات، الطبعة الثانية، (بيروت ـ باريس، ١٩٨٦)، ص ٣٦١ ـ ٣٦٣.

"عبادة الأسرار"، أو عبادة أسرار ديمتر، وكوري "برسيوني"، وكان يفد إليه الناس من جميع أرجاء اليونان. ولم يكن هناك عقبات تعترض الدخول إليه. فالعبيد أنفسهم كانوا يُقبلون فيه، ولا توصد أبوابه إلاّ في وجه المجرمين والبرابرة. غير أنّ الاحتفالات التي كانت تجري فيه غير معروفة معرفة تامّة، ولكن ما هو معروف عنها يكفي للقول بأنّ كشف بعض أسرار الحياة الثانية كان يتخلّل بعض الطقوس المنقولة عن العبادات الزراعيّة. فقد أُشرك في عبادة إليوسيوس ثلاثة آلهة من آلهات النباتات: ديمتر وابنتها كورا وديونيسيوس. وكان ذلك عاملاً هامًّا ثابتًا من عوامل نجاح هذه الأسرار. وقد اتّفق أسمى مفكّري العصور القديمة على تقريظها، ممّا يحمل على الاعتقاد بأنّها انطوت على تفسير رمزيّ عن طريق عرض غير مثير وتمثيل مختصر. غير أنّ ذلك كان يستدعي فكرة الموت، مصدر القلق الدائم عند الإنسان. وكان المشترك في هذه الأسرار يغادر المعبد مطمئنًا إلى المصير الذي سيكون عليه بعد الأجل المحتوم[1].

كان الناس في "إليوسيس"، يروون أسطورة اغتصاب إله العالم، "كوري" العذراء، وحزن أمّها الإلهة "ديمتر" وهي تبحث عنها، والآفات التي ضربت بها "ديمتر" الأرض، واستعادة الأمّ ابنتها في قسم من السنة، واتّحاد الابنة من جديد مع الربّة. وتقول الأسطورة إنّ كوري أكلت حبّ الرمّان وهي في العالم السفليّ، ولهذا كانت تنام نصف العام في العالم السفليّ، وتصحو نصفه الآخر فوق سطح الأرض! أمّا الاحتفالات بالطقوس السريّة الكبرى في إليوسيس فكانت تُقام في شهر أيلول (سبتمبر) لمدّة ستّة أيام، وكانت تقترن بذكرى عودة كوري إلى أمّها ديمتر في مستهلّ الربيع،

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، ١: ٢٦٤.

عندما تكون الخضرة قد عادت إلى الحقول. وتعكس الأسطورة دفن بذور القمح تحت الأرض في قدور تخزين أثناء الجفاف الشتويّ المظلم، وظهورها من جديد عندما تبذر في الربيع. وكانت كوري تمثّل الروح المودَعة في القمح والحبوب، تجيء بمجيئها وتختفي باختفائها. ومن هنا كانت صلتها بالعالم السفليّ تحت التربة حيث تُدفن البذور، ومن هنا أيضًا جاء ارتباطها بإله العالم السفليّ "بلوتو" أو "هاديس" الذي اختطفها ونزل بها إلى دولته تحت الأرض، وبحثت ديمتر عن ابنتها دون جدوى حتّى بلغت إليوسيس فتمكّنت من عقد اتّفاق معه قضى بإعادتها لها في جزء من السنة. وهذه الأسطورة أيضًا، تذكّرنا بأسطورة أدونيس وعشتروت في الدين الفينيقيّ، والاحتفالات المماثلة التي كانت تجري بمناسبتَي موت أدونيس وقيامته على ضفاف نهر أدونيس من بلاد جبيل في لبنان.

فقد كان يُقام في إليوسيس احتفال عظيم في شهر أيلول (سبتمبر) يبدأ بالحثّ على البعث الروحيّ والتعميد في البحر، وفي ١٩ أيلول (سبتمبر) يأتي موكب من أثينا وتُقام عمليّة الترسيم، وكانت الأسرار تُصان، ويُحرم على أيّ إنسان البوح بها، لكنّ الاستنتاج المعقول لتلك العبادة من شأنه أن يفي بأنّ هناك أداءً دراميًا للأسطورة، كان ينتهي بزواج مقدّس، إذ كانت الإحتفالات تصل إلى ذروتها بزواج خفيّ بين كاهن يمثّل زيوس وكاهنة تمثّل ديمتر، وكان هذا الزواج رمزيًا. وكان يحدث تمثيل لتجلّ رمزيّ تصاحبه أضواء لامعة تتركّز على سنبلة قمح، وسط وليمة مشتركة، حيث يحدث نوع من الاتّحاد مع الربّة. ويُنسب إلى هوميرُس نظم "ترنيمة إلى ديمتر"، وردت فيها أسطورة اختطاف إله العالم السفليّ "هاديس"، العذراء "كوري"، وهبوطه بها إلى مملكته تحت الأرض، وقد جاء في الترنيمة:

"مبارك بين البشر على الأرض، مَن رأى هذه الأشياء، لكن مَن لم يشارك في مراسم الطقوس المقدّسة، فلن يستمتع بالمشاركة في مثل هذه الأشياء، عندما يرقد بعد الموت تحت الظلام المنتشر"[1].

يقول باحثون إنّ من خواص عبادة الأسرار أنّها توجّهت إلى الفرد كفرد، بعيدًا عن كلّ نظام قانونيّ وعن كلّ أثر عائليّ أو مدنيّ، بل إلى الفرد وحده كما سيكون يوم موته. ولذلك كان نجاح هذه الأسرار موازيًا لنجاح الديمقراطيّة الأثينيّة نفسها التي حقّقت النصر بتحريرها المواطن من ضغط الجماعات العائليّة. فأصبح نجاح أثينا، بفضل إليوسيس، منقطع النظير. فهي توصّلت إلى خلق عبادة شاملة من عبادة تحميها المدينة ويشرف عليها القضاة ويُحتفل بها في معبد هو ملكها، تتّخذ هي حيال إدارته مقرّرات نافذة. وقد اقتضى منها ذلك الإعراض عن بعض ادّعاءاتها، بدليل فشلها، في القرن الخامس، حين أهابت بكافّة الإغريق لأن يكرّسوا بواكير حصادهم لآلهات إليوسيس اللواتي أطلعن البشر على أسرار زراعة القمح. ولم يصبح النجاح دوليًا إلاّ بعد ثبوت الحياد السياسيّ وبعد الاقتناع بأنّ عبادة إليوسيس ليست عبادة مدينة، على الرغم من كونها عبادة المدينة[2].

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٩٥.

٢ ـ تاريخ الحضارات العام، ١: ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

أسطـورَةُ ولادَة

الجِنسِ البَشَريّ

تقول الأسطورة اليونانيّة إنّ الـ "تيتان Titans" الأشرار، وهم جبابرة عددهم أثنا عشر، ستّة منهم ذكور وستّة إناث، كانوا آلهة قدامى بدائيّين يتّصفون بالوحشيّة، أصغرهم "كرونوس" وأخته "ريا" وهما والدا زيوس، قد قتلوا ديونسيوس وأكلوه، وقد تم إنقاذ قلبه الذي وُلد منه ديونسيوس مرّة أخرى، ثمّ قضى عليهم زيوس بصواعقه، ووُلد الجنس البشريّ من بقايا رمادهم. وهكذا أصبح الإنسان مؤلّفًا من عنصر "تيتانيّ" هو" الجسد، وعنصر ديونيّ هو: الروح، ومطلوب منه لكي يطهّر النفس من الأثر التيتانيّ أن يراعي السلوك الدينيّ، بما في ذلك أن يكون نباتيًّا. وهذه العبادة اليونانيّة تُعرف بعبادة "أورفيوس Orphus"، وهو موسيقيّ أسطوريّ، وصورة أخرى من دينسيوس. وكان للأورفيّين أتباع في اليونان في القرن الخامس ق.م، وفي صقليّة حيث عُرفوا بالـ"جماعة الأورفيّة". وقد كشفت الحفريّات في "بتليا Petelia" عن ألواح ذهبيّة، يعطي فيها أورفيوس تعليمات لأرواح الموتى. كما نلتقي بالترانيم الأورفيّة لفرع آخر لـ"الإخوة الديونسيوسيّين" في الأمبراطوريّة الرومانيّة، حيث كانت عقيدة التجسّد تمثّل "دورة مرهقة محزنة" من الموت والميلاد من جديد، يكون الترسيم مهربًا سريعا منها. وقد كان الشخص الذي يتمّ ترسيمه يخصّص بالاستماع إلى كلمات ترنيمة تقول: "طوبى لك، ومباركٌ أنت يا مَنْ أصبحت إلهيًّا بدلاً من أن تكون فانيا". بيد أنّ الترسيم وحده لا يكفي كي يصبح المرء إلهيًّا، بل كانت المطالب الدينيّة تمثّل عنصرًا أخلاقيًّا قويًّا بالنسبة للعضو المرتسم[1].

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٩٦.

آلهَـــةُ
المَدينَة

ترتبط الديانـة اليونانيّـة الكلاسيكيّة، علـى العمـوم، ارتباطًـا وثيقًـا خاصًّا بالمدينـة نفسها. ويُسهم هذا الارتباط إلى حدّ كبير، والحالـة هذه، فـي جعل الحضـارة اليونانيّـة حضـار الـ"بولِس" بـالذات. لأنّ تفتُّـح هذه الديانـة يسبّب بدوره مظـاهر أخـرى فــي الحضارة.

إنّ للمدينـة آلهتهـا وعباداتهـا، وكلاهمـا متفـاوت مرتبـة ومنشأ وأهميّـة حتّـى فــي نظرها، ولم تتبنّ ما تبنّت منهما إلاّ فـي عهـود حديثـة نسبيًّا ولأسـباب مختلفـة كثيرة. فهنـاك الدرجـة الأولـى للآلهـة "البولسيّين"، أي المفـروض فيهـم أن يحمـوا المدينـــة أو "البولِس" بنـوع خـاص، لأنّ المدينـة تعلـن انتسـابها إليهـم معتــبرة عبـاداتهم كنظامهـا الأساسيّ وكعنوان وضمانة لميثاقها الإجتماعيّ. وهكذا فإنّ أثينا هي مدينة الإلهة "أثينـا" التي تُعبد بهذه الصفة وتُدعى لذلك "أثينا بولِس". ولكنّ "أثينا" نفسها تُعبد أيضًـا بصفتهـا "أثينا أرغاني" أي "أثينا العاملة"، و"أثينا نيقي" أي "أثينا النصر"، و"أثينا هيجيا" أي "أثينـا الصحّة"... فبأيّ نسبة تبقى "أثينا بولس" في جوهرها، والحالة هذه، إلهة المدينة؟ ومـن جهة ثانية، فإنّ العبادات "البولسيّة" لا تـرى ضـيرًا فـي قيام عبـادات أخـرى متوازيـة كثيرة.

تتنوّع طبيعة هؤلاء الآلهة تنوّعًا كبيرًا جدًّا. فبعض آلهة الأولمب العظماء الذين قد تميّزهم صفة عبادة خاصّة، يجاورون بعض آلهـة العـائلات القديمـة. وبعـض الأبطـال المرتبطين بتاريخ المدينة يجاورون آلهة غربـاء توخّـى الإغريـق مـن تكريمهـم تجنّـب عداوتهم. ولم توضع قطّ لائحة نهائيّة بالآلهة. فلا يُختصر فيها، أقلّه نظريًّا، خوفًـا مـن استياء قوّة فائقة الطبيعة. وليس ما يحول دون إطالتها. لذلك فليس هنـاك عبـادة لمدينـة

بل عبادات المدينة. وقد يترابط بعض هذه العبادات، على تفاوت في قوّة الترابط، تقرّب بينها الأسطورة أو ظروف تبنّي الدولة لها. ولكن ليس ما يوحّدها كلّها في مجموع نظاميّ. فقد جعلها قرار المدينة تتجاور دون انصهار، وليس ما يجمع بينها سوى الجوار الجغرافيّ في أرض واحدة وفي بوادر، وربّما في نفوس جماهير واحدة. وتتنوّع هذه البوادر نفسها تنوّعًا لا نهاية له. فالأعياد والذبائح والقرابين والصلوات واحدة في جوهرها ولكنّها تختلف بتفاصيلها وتنظّم وفاقًا لبرامج لا تُحصى. لا بل إنّ الأنظمة المتعلّقة بكلّ عبادة لم توضع بصيغة لا تقبل التغيير. فهي لا تلغى البتّة إلغاء رسميًّا بل يُكتفى بإهمالها إلى أن تسنح فرصة ممكنة للعمل بها. ولكنّها توسّع وتحوَّر ويُضاف إليها، ويكفي لحدوث ذلك أن تمليه تقلّبات الذوق أو الشعبيّة أو السياسة أحيانًا.

يتّضح من هذه المبوعة في لائحة العبادات المُدنيّة وطقوسها، أنّ الآلهة "البولِسيّين" لا يهتمّون لا لإبعاد حسود ولا لموجبات ملزمة. فتعدّد الآلهة مدعاة للتسامح. وليس هناك طبقة خاصّة بالكهنوت يميل أفرادها بالفطرة إلى العناية بحقوق الآلهة. فالكهنوت وظيفة عامّة تُسند، لزمن محدود، إلى مواطنين لا يُفرض فيهم معارف خاصّة، فهم يعيَّنون بالانتخاب أو بالقرعة وفاقًا لطريقة أشبه بطريقة تعيين القضاة. ويحدث غالبًا أن يضيف هؤلاء القضاة إلى صلاحيّاتهم الإداريّة أو السياسيّة صلاحيّات دينيّة يتبعون في استخدامها إرشادات موظّفين ضليعين في معرفة الطقوس والصيغ. ولا وجود للعقائد الإيمانيّة نفسها لأنّ الأساطير التي تقوم مقامها تنطوي على فوارق لا عدّ لها.

يحمي التشريع الديانة المُدنيّة. وذلك ثابت في ما خصّ أثينا على الأقلّ، حيث يواجه القانون جريمة "الزندقة" التي يتعرّض مرتكبها لأقسى العقوبات. وإذا كان لم يُعمل بهذا القانون إلاّ نادرًا، فإنّ هذا القانون واقع راهن، وهو سلاح رهيب لا يتردّد المسؤولون عن شهره عندما تبدو الدولة في خطر أو عندما يعتبرون، مخلصين أو

غير مخلصين، أنّ بعض الممارسات التقويّة تسيء بشكل فاضح للأخلاق العامّة. فقد استصدر "ديموستين"، مثلاً، حكمًا بالإعدام على امرأة وجميع أعضاء عائلتها بتهمة تعاطي السحر والتسميم. فلا يصحّ إذن أن ننسب، حتّى لأثينا الديمقراطيّة نفسها، روح تسامح مثاليّة.

غير أنّ ما لا شكّ فيه هو أنّ العبادات الأجنبيّة المنشأ، لا تتعرّض البتّة للتحريم، بهذه الصفة، لا بل تكاد لا تكوّن موضوع شبهة أو ريبة. فإنّ إله الواحة الليبيّة، "آمون"، مثلاً، الذي تمثّل بـ "زفس" دونما صعوبة، قد انتقلت عبادته، عن طريق "كيريني" إلى القارّة الأوروبيّة حيث أُقيمت له المعابد، ولم ينتظر بعض مشاهير الإغريق، من أمثال "ليسنذروس"، مثل الإسكندر لاستشارة عرّافيه. وقد اضطرّت أثينا، بسبب مرفأ البيريه الذي يؤمّه البحّارة والتجّار والمسافرون من كلّ البلدان، أن تبالغ في التساهل. فسمحت، في الدرجة الأولى، بأن تؤسّس جمعيّات خاصّة يعبد أفرادها الآلهة الغرباء كالإلهة "بنديس" التراقيّة، و"إيزيس" المصريّة، و"الوالدة الكبرى" الفريجيّة، و"أدونيس" و"عشترت" السوريّين. ومنذ البدء انضمّ بعض المواطنين، دونما تستّر وتعرّض لأيّ لوم، إلى صفوف الأجانب المقيمين وغير المقيمين في هذه الجمعيّات. وأقرّت أثينا، بعد ذلك، دخول العدد الأعظم من هؤلاء الآلهة إلى العبادة الرسميّة. وقد رأى باحثون أنّ في هذا التساهل، أو بالأحرى في هذه القابليّة للتستّر، ما يثير الدهشة. فالمدينة التي تصلّبت ذاك التصلّب في الدفاع عن استقلالها السياسيّ للحفاظ على قحاحة مواطنيها العنصريّة، تفتح الثُغر بيدَيها في تفرّدها الدينيّ، ولا ترى ضيرًا في أن تُصاب بعدوى ديانات البرابرة. وقد برهن "أفلاطون"، مرّة أخرى، عن منطقه السليم في حكمه القاسي بإلغاء العبادات الأجنبيّة. غير أنّ الدولة اليونانيّة قد استسلمت، في الحقيقة، لتيّار لا يقاوَم، كما ستستسلم له الدولة الرومانيّة في ما بعد. فقد

كان كافيًا لعامّة المواطنين أن يتخلّصوا، بعض الشيء، من خرافات الورع الشعبيّ حتّى لا يجدوا في الآلهة اليونانيّين الحرارة والحميّة اللتين تستطيعان إشباع نهمهم للتأثّر الداخليّ الخالص. لذلك فقد بحثوا عنهما في غير مكان وفرضوا على الدولة العبادات التي وجدوهما فيها[1].

إقتصرت الديانة المُدنيّة، ظاهرًا، على الطقوس. ففي حوار وضعه "أفلاطون"، يحمل "سقراط" محدّثه على التصريح بما يلي: "إنّ التقوى وضمان خلاص العائلات والمدن في معرفة ما يُرضي الآلهة إمّا بتأدية الصلاة وإمّا في تقديم الذبيحة". فلم تكن عامّة المواطنين لترى أبعد من هذا. ولم يتح لغير الفلسفة أن تعيد إلى هذه الديانة الآليّة عاطفة أكثر عمقًا. وفي القرن الخامس على الأخصّ، اكتشف قسم من النخبة، وفي طليعتهم "بريكليس"، مفتاح سرّ ذلك في التفسير العقليّ: فهو يصعّد ديانة المدينة بتجريد روحيّ وأخلاقيّ يحافظ على بعض البرودة في الأعالي التي تسمو الديانة إليها. أمّا في القرن الرابع فتُستخدَم الأساطير، بفضل "أفلاطون" بصورة خاصّة، دعامة لصوفيّة تحاول خلق وحدة بين نزعات النفس الخالصة وبعض المبادئ المجرّدة. ولكنّ هذه النزعة وتلك تتعدّيان كلتاهما إمكانيّات المواطن العاديّ. بيد أنّ المشرفين على إدارة البولِس قد حاولوا إحاطة طقوس الديانة المدنيّة بهالة من البهاء والنضارة. فإنّ "توسيديد" ينسب إلى "بريكليس" قوله: "نحن قد وفّرنا للروح سبل إراحة لا تُحصى عن طريق الألعاب والذبائح الدوريّة المنتظمة". وكان، في الواقع، للتسلية والراحة الضروريّتين للسكّان أهميّتهما الخاصّة، لا سيّما وأنّ الإغريق قد جعلوا "يوم الأحد" الذي يحدّد تعاقب أسابيع العمل. ولكنّ اعتبارات أخرى كانت لها أهميّتها أيضًا. ويأتي،

---

١ - تاريخ الحضارات العامّ، الشرق واليونان القديمة، ١: ٣٦٦ - ٣٦٧.

في الدرجة الأولى منها، الحرص على تقريب وبالتالي على توحيد جميع أعضاء المدينة في بادرة تكريم جماعيّ لآلهتها الحامين، أي للمدينة نفسها عمليًا. وهكذا، تسير الديانة جنبًا إلى جنب مع المصلحة الأنانيّة، التي هي مرتبطة بها على كلّ حال، وتقوم مقام الأساس بالنسبة للوطنيّة. وتأتي، في الدرجة الثانية، الرغبة في استمالة هُواة المشاهد الجميلة وإعلاء شهرة المدينة في حرارة التقوى في أعين الأجانب، وذلك توطيدًا لأركان نفوذها وخضوعًا لطمع مستمرّ في رفع العيد البلديّ إلى مرتبة الأعياد الشاملة.

وهكذا، فإنّ كلّ المدن قد اندفعت في المنافسة. فاحتفلت سبارطة نفسها، التي سخر خصومها من حياتها المستوحشة الضجورة، ولجملة "بريكليس، التي سبق واستشهدنا بها، ما يبرّرها ويبرّر التأبين الذي وردت فيه مقارنة ضمنيّة لغير مصلحة العدو... نقول إنّ سبارطة نفسها احتفلت بأعياد كثيرة تتخلّلها الحركات وأغاني الجوقات المتعاقبة التي أطنب المعجبون في تمجيد نقاوتها القديمة. غير أنّ أثينا، بفضل ثروتها وذوق حكّامها وبفضل شمول وقيمة ما تركته للأجيال اللاحقة من مستندات أدبيّة وفنّيّة، قد بزّت كلّ منافساتها على هذا الصعيد أيضًا. ولكن تجدر الإشارة، إذا ما استثنينا أعياد "الفسيس" التي كان لها نجاحها النادر، إلى أنّ قيام الأمبراطوريّة الأثينيّة هو وحده الذي استطاع، بصورة عابرة بالتالي، أن يطبع أشهر أعياد أثينا بطابع شامل جزئيًا. وما كانت التقادم التي أتت بها وفود حلفائها إلى إلهتها "أثينا" سوى تعبير عن اعترافهم بقوّتها المادّيّة. فإنّ تأدية الإكرام فيها لإلهة مدينة أجنبيّة، لم يكن ليوافق النزعة إلى الاستقلال التي تجيّشت في كلّ مدينة مهما بلغ من ضعفها.

إشتهر عيد الإلهة "أثينا" الكبير باسم "باناثينا"، وكان يذكّر بتأسيس المدينة نفسها، وبتوحيد كافّة الأثينيّين سياسيًا. وكان الاحتفال به سنويًّا، لكنّه كان يُحاط بجلال خاصّ

كلّ أربع سنوات. ويُنسب إحداثه إلى "صولون" أو "بيسيسترانُس" في الربع الأوّل من القرن السادس. فقد وضع برنامجه المتنوّع المستبدّون أوّلاً وسارت الديمقراطيّة على خطاهم، وأصبح يستغرق، في النهاية، تسعة أيّام. وكان يستلزم المباريات المختلفة: المباريات الفنّيّة من إلقاء أو "موسيقى"، أي غناء على ألحان آلات موسيقيّة؛ والمباريات الجياديّة أو الرياضيّة؛ ومباريات الأفراد أو الجماعات؛ ومباريات القوى أو الخفّة؛ والاختبارات المتناسبة وأعمار المتبارين من فتيان وشبّان ورجال: السباق على ظهر الجياد والرقص بالأسلحة والسباق بالمشاعل. وكان الفائزون في أشهر المباريات يُعطون الجوائز قوارير ملأى بزيت زيتون الإلهة، وهي القوارير الباناثينيّة الذائعة الصيت المصنوعة والمزدانة خصّيصًا لهذه الغاية. ويُترك المشهد الرئيسيّ من مشاهد هذا العيد لليوم الأخير. وهو تطواف طويل تسير على رأسه الشخصيّات الرسميّة، ويشترك فيه المقيمون الأجانب أنفسهم. ينطلق الموكب من شماليّ غربيّ المدينة مصطحبًا معه، حتّى معابد القلعة، الذبائح والقرابين. وبين القرابين قطعة فاخرة هي الـ "ببلوس" المعدّة لتمثال "أثينا" تحيكها وتطرّزها، طيلة سنوات أربع، فتيات العائلات الكبرى وفاقًا لقاعدة تقرّها السلطات، تدور حول موضوع دائم هو صراع "أثينا" ضدّ الجبابرة. ويشكّل هذا التطواف وهذه التقادم إكرامًا يؤدّيه، للإلهة البولياسيّة الأولى، المدينة كلّها وكلّ مَن يرتبط بها وتوحّد بينهم فكرة واحدة هي: عرفان الجميل والأمل.

وإذا كان تطواف عيد "أثينا" الكبير، الذي يذكّرنا به إفريز البارثنون، يحملنا على الإحساس فورًا بالصلة القائمة بين الديانة والفنّ، فإنّ أعياد "ديونيسُس" تنتقل بنا، عن طريق المسرح، إلى الحياة الأدبيّة. وكان لـ "ديونيسُس" عدّة أعياد في السنة، خلال الخريف وفي أوائل الربيع. يُحتفل ببعضها في القرى الإقليميّة، أي في الأرياف، حيث عرفت الوجود، وفي المدينة أيضًا. وقد نُظّمت في القرن السادس، خصّيصا لأحد هذه

الأعياد في المدينة، التمثيليّات المسرحيّة التي شملت، في ما بعد، أعيادًا أخرى، واهتمّت الأقاليم نفسها خارج المدينة، لا سيّما في البيريه، بتنظيم مثل هذه التمثيليّات، بالنظر للنجاح الذي كان يصادفه مثل هذا المشهد في العيد. وكانت هذه التمثيليّات، في الواقع، بعد التطواف، مباريات موسيقيّة، مأساويّة أو هزليّة. وقد أخذ بعض أغنياء المواطنين الـ "خوريغي" على أنفسهم إلباس وتدريب الجوقات الموضوعة تحت تصرّف المؤلّفين الذين وقع اختيار أحد القضاة على مؤلّفاتهم. وكانت الجوقات، في المباراة، تنتصر لقضيّة قبيلة الـ خوريعوس"، وكان فخر النجاح، بعد قرار الحكّام، يُعزى للـ "خوريعوس" والمؤلّف على السواء. وهكذا يتّضح نشوء المسرح الأثينيّ ووثبته السريعة بفضل تزايد عدد التمثيليّات ونجاحها، وبفضل مساهمة الحكّام في هذه النهضة، إذ إنّهم عمدوا إلى دفع رسم الدخول إلى المسرح لجمع شعب بكامله وتحريكه بمشهد واحد يثير فيه الضحك، أو القشعريرة من هول المأساة، ووضعه، بشكل جذّاب حيّ، أمام معاضل هو مدعوّ للتفكير بها في مكان آخر غير الجمعيّة السياسيّة، وبكلمة موجزة "لتجميل الحياة" عن طريق السموّ بالأفكار، وفاقًا لحلم رجال الدولة الديمقراطيّين آنئذ. وهذا ما يفسّر ضخامة التضحيات الماليّة التي فرضتها هذه الأعياد على الخزانة العامّة وعلى المواطنين الأغنياء المنوط بهم انتقاء الجوقات وإكساؤها وتدريبها[١].

يتّضح أيضًا، من العناية الفائقة التي أحاطت بها الدولة هذه الأعياد ومن الأكلاف التي كانت تقتضيها، أنّها تتخطّى الإطار الدينيّ تخطّيًا بعيدًا. أجل، إنّها تحتفظ، عن أصلها، بالخطوط الأساسيّة: الذبائح والتقادم والتطوافات وشكل المباريات. وتستجيب

١ ـ تاريخ الحضارات العامّ، الشرق واليونان القديمة، ١: ٣٦٧ ـ ٣٦٩، ٣٩٣.

المباريات، في المجهود الذي يُبذل إكرامًا للإله، لفكرة التنافس نفسها في المباريات الرياضيّة والألعاب في الأعياد الشاملة. ولكنّ مميّزات أخرى، فرضت بعضها النخبة الحاكمة ونشأ بعضها الآخر بفعل التطوّر الطبيعيّ، تظهر باكرًا جدًّا ولا تلبث أن تتغلّب رويدًا رويدًا. وتخدم الأعياد الدعاية دوليًا للمدينة، وتقوّي التحام الشعب أدبيًّا وتوفّر لهذا الأخير، بالإضافة إلى أسباب الراحة، عناصر ثمينة للاستقصاء الفكريّ والجماليّ. وقد حرص حكّام الديمقراطيّة الأثينيّة على أن لا تقتصر الإفادة من هذه الأعياد على الطبقات الميسورة دون غيرها، لاقتناعهم بنتائجها الخيّرة على هذا الصعيد. فمنذ عهد بريكليس تلقّى الفقراء مساعدة من الدولة تتيح لهم دفع رسوم الدخول إلى المسرح الذي كان إذ ذاك مجرّد مدرّج خشبيّ يجهّزه الملتزمون، إذ إنّ المسرح الرخاميّ والحجريّ الدائم لم يُنجز، في منحدر القلعة الجنوبيّ، قبل أواخر القرن الرابع، بعد أن أنجز إقليم البيريه إعداد مسرحه. ولكن ما لبثت أن رفعت قيمة هذه المساعدة ودفعاتها لمناسبة أعياد لا توجب على المشاهد أيّ إنفاق، باستثناء أجره عن يوم يعطّله. ففقدت هذه المساعدة ما يبرّرها وغدت، في الواقع، مساعدة ماليّة من شأنها، إذا أُضيفت إلى تعويضات الاشتراك في الحياة السياسيّة، أن تشجّع بطالة المواطنين وتسهم في صرفهم عن العمل المنتج لمصلحة الأجانب المقيمين، وتقتطع، في الوقت نفسه، قسمًا من الموارد العامّة كان بالإمكان الانتفاع به في حقل آخر.

وفي حوالى الوقت نفسه من القرن الرابع قبل الميلاد، انخفض عدد التمثيليّات الجديدة المعدَّة لأعياد ديونيسُس، ودرجت العادة على أن تُعتمَد، في كلّ عيد، تمثيليّة منتجة بين التمثيليّات التي عرفت شهرة واسعة في القرن الخامس. وكان لهذه العادة ما يبرّرها تدنّي مستوى التمثيليّات الجديدة، ولكنّها لم تتلافَ قطّ هذا التدنّي. فكانت النتيجة

أن أفضى الحرص على إرضاء الجماهير بما تنتظره إلى إقصار المباراة على التنافس في الإخراج والجوقات والممثّلين.

وأفضى تطوّر موازٍ إلى إعطاء الممثّل مركزًا أكبر في المباراة المسرحيّة. وكان هذا المركز، في البداية، على درجة قصوى من الإغفال، إذ كان المؤلّف نفسه يقوم بدور الإنشاد. ولكنّ ازدياد عدد الأشخاص في التمثيليّة رافقه ازدياد الاقتناع بما يمكن لموهبة وخبرة الممثّلين أن تضفياه من أهميّة على التمثيل، لا بل من قيمة للتمثيليّة أحيانًا؛ فظهر حينئذ الممثّل الممتهن كما ظهر من قبل، في الألعاب، الرياضيّ الممتهن. ثمّ شملت المباراة المسرحيّة الممثّلين الذين نالوا التيجان على غرار الـ "خوريغي" والمؤلّفين والذين انتظموا فرقًا وانتقلوا من مدينة إلى مدينة، عاقدين اتّفاقيّات كثيرًا ما تحدَّد فيها الغرامات التي يتوجّب دفعها على من يُخلّ بشروط العقد. وقد عرف بعض هؤلاء الفنّانين شعبيّة دوليّة. وقد أتاحت لهم تنقّلاتهم، والعلاقة الطيّبة التي ربطتهم بالحكّام أحيانًا، أن يتداخلوا في الظروف السانحة في المفاوضات الدبلوماسيّة. وممّا لا ريب فيه، على كلّ حال، أنّ شهرتهم، قبل إيمانهم، هي التي اجتذبت الجماهير الطامعة بالمشاهد الرفيعة النادرة. وقد تنمّ هذه التبدّلات المتجانبة عن انحراف في الفكرة التي نهضت، في البداية، بالأعياد الدينيّة، فغدا فيها جوهرًا ما كان في البدء مجرّد مشاهد ثانويّة أو ملحقات فقط. واضمحلّت صبغتها الدينيّة المميّزة أمام قيمتها المسلّية والجماليّة والأدبيّة والسياسيّة. وأصبحت الديانة مجرّد فرصة وحجّة[1].

في ذلك العهد، لم تكن هندسة العمارة لتعير كبير اهتمام للمساكن البشريّة، بل اقتصر عملها على الأبنية ذات المنفعة الفوريّة كالأسوار ودُور الصناعة والمخازن

---

١ ـ تاريخ الحضارات العامّ، الشرق واليونان القديمة، ١: ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

العموميّة التي لا اهتمام فيها البتّة للناحية التزينيّة. فقد كرّست المدينة كلّ مواردها لخدمة وتكريم آلهتها متجمّلة بما يعبّر عن ورعها الخاصّ. لا بل إنّها كانت تدّخر مجهودها الرئيسيّ لمساكن الآلهة، أي المعابد. ولا تهمل الأبنية المفيدة للاحتفالات أو الأعياد الدينيّة، لكنّها تحلّها في الدرجة الثانية. ولم يظهر المسرح كبناء دائم ثابت، على الرغم من فائدته لراحة المشاهدين، قبل أوائل القرن الرابع. ومهما كان من روعة أعياد ديونيسُس، فإنّ أثينا تأخّرت على هذا الصعيد، عن عدّة مدن أخرى. وما تجدر ملاحظته، من ناحية أخرى، أنّ المعابد الكبرى الجامعة تحاول أن لا تتأخّر عن ركب المدن. واستمرّ بعض المدن يشيّد الأبنية في حرم بعض المعابد، وبقي بعض المذاخر، من أمثال تلك التي كرّسها الأثينيّون لـ "دلفي" بعد انتصارهم في ماراتون، يتبع تقليد القرنَين السابع والسادس. لكنّ هذه الطريقة راحت تخفّ رويدًا رويدًا مفسحة المكان لتقادِم أكثر تواضعًا، كالتماثيل والنذورات المختلفة. غير أنّ المشرفين على إدارة المعابد الكبرى، كانوا يعوّضون عن تقاعس المدن بإقدامهم على البناء بفضل ثروات الإله الخاصّة التي لا تزال تغذّيها هبات تأتيها من شتّى المصادر. وهكذا فإنّ معبد "أبّولون" في حرم دلفي، بعد أن تهدّم سنة ٣٧٣ قبل الميلاد، قد أُعيد بناؤه بفضل الأعطيات الدوليّة. أمّا مردّ التأخير الذي حصل في هذا العمل، وقدره نحو أربعين سنة، فيعود إلى اضطرابات الحرب المقدّسة الثالثة. وقد بُذلت الجهود نفسها وحُقّقت النتائج نفسها بحيث تعود إدارة المعبد إلى المدينة، لا إلى المقاطعة كما في دلفي، فأمّنت المواردَ الضروريّة إذ ذاك تبرّعاتُ الحجّاج التقويّة الكثيرة. وهذا ما حدث في أولمبيا حيث شُيّد معبد "زفس" قبيل السنة ٤٥٠ قبل الميلاد، وحيث تعدّدت الأبنية في الـ "أتيس". وحدث هذا أيضًا في مدينة "أبيذورس" الصغيرة في "الأرغوليد" التي استطاعت، بفضل الشعبيّة المتزايدة التي عرفتها معجزات إلهها الشافي "اسكليبيوس"،

وبسرعة مدهشة، أن تجهّز معبدها وتنشىء هيكلها والبناء المستدير السرّيّ ومسرحها الذي يتّسع لأربعة عشر ألف مشاهد.

حافظ المعبد على المنظر العامّ الذي خلّفته له القرون السالفة، والذي لم يُخالَف إلاّ في حالات خاصّة جدًّا لا نستطيع اليوم تبيانها بصورة كاملة. ويبدو هذا الخرق في أبنية "أبيذورس" المستديرة، وفي معبد "مرماريا" الصغير داخل حرم دلفي مثلاً. ويبدو كذلك في بناء الإيرختيّون الأثينيّ المعقّد، المعدّ لإيواء الذخائر القديمة وأقدم التقاليد العباديّة العائدة للمدينة، برواقه الرائع المزدان بأعمدة على شكل تماثيل نساء يستند إليها ساكف المعبد الذي لا يخفي سحرها ما فيها من غموض وإبهام. وتمثّل هذه المخالفات نزولاً عند متطلّبات قاهرة خاصّة لا إحداثًا يستجيب لتصميم على التجديد كان من المحتوم أن تقاومه قوّة التقليد. على أنّه لم يكن أيّ تبديل في الرسم العامّ الذي يؤول أبدًا، بالتبسيط، إلى قاعة مستطيلة تتقدّمها، عند طرفَيها، أروقة تعلوها الواجهات الثلاثيّة الشكل. ولم يكن هناك حلّ جديد لمعضلة السقف الذي يفرض، كما في السابق، تحديد العرض بين الجدران أو اللجوء إلى الأعمدة الداخليّة، ولا يحول هذا التشابه الجوهريّ دون الفوارق الخاصّة: كوجود الأعمدة حول المعبد أو فقدانها، والمسافات بين الأعمدة وارتفاعها، وقياسات وترتيب المساحة الداخليّة. غير أنّ بعض المعابد يحافظ بدقّة، في النسبة بين أعمدتها، وفي تنضيد الأقسام التي تعلو الأعمدة، وفي توزيع النقوش الزخرفيّة، على مبادئ الطراز الدُّوريّ أو الطراز الأيونيّ. وهناك معابد تؤلّف بين الطرازَين تأليفًا زاد في تنويعه ظهور عمود جديد في القرن الخامس، هو العمود الكورنثيّ ذو التاج المليء بالنقوش الذي صادف نجاحًا متزايدًا، ولكنّ كلّ ذلك مجرّد فوارق لا يمكن نعت أيّ منها بالثوريّة.

ولا شكّ في أنّ الديانة كانت مصدر الإلهام الأكبر للفنّانين. فهي تقدّم لهم المواضيع بصورة شبه دائمة، مباشرة أو غير مباشرة، للتماثيل والنقوش الناتئة على السواء، كما تقدّم لهم أبنيتها أو معابدها الأمكنة المعدّة لها هذه النقوش. وقد استوحى الفنّانون نقوشهم أيضًا من مشاهد الحياة الدينيّة والذبائح وعدّتها والتطوافات والمباريات على اختلاف أنواعها وأوضاعها. ثمّ إنّ المعبد الدُّوريّ أخيرًا، قد فرض وجود النقوش في لوحاته الرخاميّة، كما فرضه المعبد الأيونيّ في إفريزه، وكما فرضاه كلاهما في المثلّثين المتقابلَين فوق الأعمدة الخارجيّة. وكان كلّ بناء، أو كلّ حرم مقدّس، يتقبّل، إذا ما صادف الإله فيه بعض الإكرام من قِبَل الأفراد أو الجماعات، النذورات والتماثيل التي يعتمد الشبهان في تحقيقها بالتفضيل على المرمر[1].

من الأسَاطير

إلى الفلسَفة

كثير من النظريّات اليونانيّة التي تدور حول نشأة الكون، تتحدّث عن انفصال السماء والأرض، وعن ارتباطهما عن طريق الاتّحاد الجنسيّ. ففي كتاب "هزيود"، في القرن الثامن قبل الميلاد، "أنساب الآلهة Theogony"، نجد أنّ "العماء "haos"، أو الفجوة المتثائبة "قد ظهرت إلى الوجود" هكذا ببساطة، وكذلك فعلت الأرض، وأيضًا "طارطاروس "Thartarus" أي العالم السفليّ أو الجحيم، والحبّ، وهذه الموجودات

١ ـ تاريخ الحضارات العامّ، الشرق واليونان القديمة، ١: ٣٧١ ـ ٣٧٤.

تؤخذ كما تعطى. ولم تقم أسطورة الاتّحاد الجنسيّ بعملها إلاّ بعد ظهور الحبّ، فنحن إذن على أبواب العقلانيّة.

كان طاليس الملطيّ، في فجر القرن السادس قبل الميلاد، هو مؤسّس الفلسفة العمليّة، قد سأل أسئلة عن نشأة الكون، وبحث لها عن أجوبة بمصطلحات المادّة، فرأى أنّ الأشياء جميعًا أشكال منوّعة من الماء الذي لا غنى للحياة عنه. ففي استطاعته أن يتجمّد، أو أن يصبح غازًا، وتلك هي بداية العمليّة التي أنزلت "زيوس" عن عرشه، وأحلّت "فورتكس Vortex" أو "الدوّامة" محلّه. وبما أنّ الفلاسفة الذريّون سوف يذهبون، في ما بعد، إلى أنّ حركة الدوّامة هي التي تجعل الذرّات المتشابهة تتجمّع فتتكوّن العناصر الأربعة التي ظهرت منها جميع الموجودات، فإنّ طاليس يكون قد وضع قدمه على بداية الطريق الفلسفيّ الذي أنهى التفكير الأسطوريّ فحلّت الفلسفة، ثمّ العلم، محلّ الدين في تفسير ظواهر الطبيعة. ومع ذلك فإنّ هذه النظريّات العلميّة لم تتحرّر من الأسطورة، فالماء الذي يتمثّل في صورة "الأوقيانوس الأعظم Oceanus"، الذي كان أحد الموجودات الأوليّة في الأساطير اليونانيّة، هو ذلك البحر الذي لا تثيره ريح، وهو مصدر جميع الماء الذي تفيض به البحار والأنهار والقنوات والينابيع والعيون، ويجري باستمرار في حلقة دائريّة حول الأرض. ولقد ذهب طاليس متأثّرًا بالخصائص المغناطيسيّة للمادّة إلى أنّ "كلّ شيء مملوء بالآلهة". أمّا "انكسمنيس" الذي أحلّ الهواء محلّ الماء، فقد أعلن أنّه إلهيّ، وكان هناك اعتقاد عامّ في ألوهيّة مادّة واعية تحيط بالكون وتتسرّب من خلاله لتشكيل الهواء العلويّ أو الأثير. وبحث فلاسفة آخرون عن قوة محرّكة، فكانت المحبّة والنزاع عند "أبناذقليس"، والعقل عند "أنكساجوراس". غير أنّ الحركة كانت تتّجه نحو العقلانيّة، فهاجم الفيلسوف اليونانيّ الكبير "أكزينوفان Xenophanes" (٥٧٠ ـ ٤٨٠ ق.م) النزعة التشبيهيّة، أي تشبيه

الآلهة بالبشر، بعنف حيث يقول: "إنّ الناس هم الذين استحدثوا الآلهة، وأضافوا إليها عواطفهم، وصورتهم وهيئتهم، فالأحباش يقولون عن آلهتهم إنّهم سُود فطس الأنوف، ويقول أهل تراقيا إنّ آلهتهم زرق العيون حمر الشعور، ولو استطاعت الثيران والخيول والأسود لصوّرت الآلهة على مثالها، وقال إنّه لا يوجد غير إله واحد هو أرفع الموجودات السماويّة والأرضيّة، ليس مركّبًا على هيئتنا، ولا يفكّر مثل تفكيرنا... كذلك أنكر "أنكساغوراس" ألوهيّة الشمس، وذهب إلى أنّها حجر أحمر ملتهب أكبر حجمًا من جبل البليونيز في شبه جزيرة المورة. وكتب "كريتياس Critias" مسرحيّة ذهب فيها إلى أنّ القانون هو اختراعٌ أُريد به وضع القوى تحت السيطرة، كما أنّ الآلهة اختراع أُريد به إرهاب الماكر. وفي ما بعد جاء أحد مواطني مسّينا الذي عاش في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد، وهو "أويهيمروس Euhrmerus"، فوضع نظريّة تقول: إنّ الآلهة ليست سوى أبطال وطنيّين كانوا بشرًا في الأصل، أدّوا للناس خدمات جليلة، فنسج الخيال الشعبيّ القصصيّ تمجيدًا لهم، ورفعهم إلى مصافّ الآلهة، اعترافًا بفضائلهم، أو تزلفًا إليهم، وما زلنا حتّى الآن نسمّيها النزعة "الأويهيميزيّة Euhemerism"، نسبة إلى أوهيميروس هذا. وأنكر أحد الأطبّاء أن يكون الصرع مرضًا مقدّسًا مرجعه إلى عقاب إلهيّ، كما كان يُعتقد بصفة عامّة، وذهب إلى أنّه يوصف بأنّه إلهيّ لأنّه لم يُفْهَمْ بعد. واستعاد أفلاطون (٤٣٠ ـ ٣٤٧ ق.م.) البعد الدينيّ، فقال إنّ الحقيقة التي يطلبها العالم ليست في الظواهر المنفردة والزائلة، بل في الفكر السابق لوجود الكائن، وتضمّنت فكرته عن الخلق وجود إله صانع، وصور أو مُثُل أزليّة لا تتغيّر، وهي نماذج وأنماط للعالم، أمّا "الوعاء" فهو ما يمكن أن نسمّيه المادّة. والعالم الماديّ عالم قابل للفناء، كذلك الجسد الذي يدركه هو أيضًا قابل للفناء. أمّا عالم الصور، أو المثل، فهو التقوى الحقّة، والعدالة التامّة، والجمال في ذاته، خالد

لا يفنى، والروح التي تدركه بدورها خالدة، وعالم الصور أو المثل هو وحدة العالم الحقيقيّ، ويكمن خلفه، بل وراء عالم الواقع، معيار الوجود كلّه وهو: مثال الخير. أمّا الفيلسوف اليونانيّ أرسطوطاليس (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م.)، مربّي الإسكندر، وهو أحد كبار مفكّري البشريّة، ومؤسّس مذهب "فلسفة المشّائين"، صاحب المؤلّفات في المنطق والطبيعيّات والإلهيّات والأخلاق، وهو أنبغ تلاميذ أفلاطون، فقد قدّم بدوره فلسفة دينيذة، فرأى أنّ هناك سلسلة كبرى من الموجودات تبدأ من المادّة الخالصة التي لا يمكن أن نعرفها، في القاع، وتسير صعدًا إلى الصورة الخالصة التي هي الله في القمّة. وهي سلسلة تمتدّ من الإمكان البحت، أو الوجود بالقوّة، إلى الفعل الكامل، أو الوجود بالفعل التامّ، وينشغل الإله بتأمّل ذاتيّ لا نهاية له، فهو لا ينشغل بالعالم، وإنّما يحرّكه كما يحرّك المحبوب محبّه دون أن يحتاج إلى أن يقوم بأدنى حركة، فهو المحرّك الذي لا يتحرّك[1].

أشهر

العرّافات

أشهر المتنبّئات عند الإغريق هي عرّافة "دلفي"، وكانت في الأصل عرّافة الأرض الأمّ، غير أن أبّولّو أخذ بعد ذلك وظائفها. وقد جرت العادة أن تكون الإستشارة من خلال كاهنة أبولّو "بثيا Pythia" التي كانت تقدّم الإجابات عن أسئلة المتسائلين عن

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٩٦ ـ ٩٨.

المستقبل، وهي جالسة على مقعد ذي ثلاثة أرجل، وتروح في شبه غيبوبة بسبب التركيز العقليّ والروحيّ الكامل، ولم تكن هناك أبخرة كريهة الرائحة، كتلك التي كانت تستعملها الكاهنات التي تتلقّى الوحي، إذ كانت، تلك الكاهنات، تجلس فوق نضد عالٍ، وتستنشق رائحة كريهة مقدّسة تنبعث عن غار عجيب يخرج من فتحة في الأرض تحت الهيكل، ويعزوه الناس إلى تحلّل الأفعى التي قتلها أبّولو في ذلك المكان. بل كانت بثيا تنطق بأصوات مبهمة غير مفهومة. وكان الكهنة الذين كان لديهم نظامٌ كفءٌ يستخدمونه في نقل المعلومات، يحوّلون هذه الأصوات إلى أنباء مناسبة في لغةٍ مفهومة بالشعر والنثر، وإن تكن أحيانًا مزدوجة ومن الإجابات الغامضة المشهورة: الإجابة عن سؤال للملك كوريس ملك ليديا إذْ المعنى. كانت الإجابة: "إذا ما عبر كرويس نهر "هاليس Halys"، فسوف يدمّر أمبراطوريّة هائلة" وكان هذا ما فعله، إذ دمّر أمبراطوريّته هو. فقد كان معنى الإجابة غامضًا ويحتمل تأويلين، ذلك لأنّ الإله الذي تتحدّث الكاهنة بوحي منه، معصوم من الخطأ، فإذا حدث ولم تنطبق النبوءة، فإنّ ذلك لا يرجع إلى خطأ الإله وإنّما يرجع إلى أنّ السائل لم يفهم الإجابة على وجهها الصحيح. وهناك طريقة أخرى للاستشارة، تقضي بأن يسحب السائل مجموعة حبوب ملوّنة بألوان مختلفة تعني "نعم" أو "لا"، ولقد تمّ اختيار ملك تساليا ذات مرّة لسحب حبّة نُقش عليها اسم المرشّح الذي نجح.

ومن الطبيعيّ أن نسمع أكثر من ذلك عن الاستشارات السياسيّة الكبرى. غير أنّ "يوربيدس" في مسرحيّته "أيون"، قد بيّن أنّ الاستشارات الخاصّة كانت كثيرة، حيث جاء سؤال "أيون" في المسرحيّة للمرأة وزوجها اللذين جاءا إلى معبد دلفي لاستشارة الكاهنة: "أجئتما من أجل محصول التربة أم من أجل الذرية؟!"، وكان الزائران يتوقّعان أن تدور الإستشارة حول المحاصيل والأولاد. ويمكن أيضا أن تكون الاستشارات حول

المرض. كما يسجّل لنا التاريخ استشارة يقدّمها عبدٌ يريد أن يعرف كيف يُرْضِي سيّده. ويقول بلوتارك (حوالي ٤٥ ـ ١٢٥م): إنّ السلم الرومانيّ "Paxa Romana"، جعل الإستشارات السياسيّة القديمة غير ضروريّة في عصره، إذ أصبح الأفراد يسألون عن الزواج، والسفر، وتدبير المال. وعلينا أن نتذكّر أنّ عرّافة دلفي، مثل عرّافة مدينة "إيف Ife"، في النيجر الشهيرة بين شعب "يوربا Yoruba"، التي كانت تستخدم ٢٥٦ تمثالاً صغيرًا مرقّمة على لوحة من الرمل، يقوم خبراء التنجيم بتأويلها. وقد كانت عرّافة دلفي "المستودع الجامع للحكمة". وهناك بعض الأسئلة الطريفة التي كانت تُطرح عليها مثل: "كيف أستطيع أن أعالج ابني من مرض الحُبّ" وكانت الإجابة: "عامليه بلطف"! وكانت دلفي هي التي أشاعت الحكمتَين العظيمتَين "إعرف نفسك" و "وإيّاك والإفراط".

وهناك عرّافات أخريات كعرّافة الإله "زيوس" في بلدة "دودونا Dodona" التي كانت تفسّر أصوات حفيف الأوراق في شجرة البلّوط، وغيرها من الأصوات، بأنّها إرادة الإله وفي بعض الأحيان كانت تعلّق في الشجرة أوان نحاسيّة لتجعل الحفيف أكثر وضوحًا ورنينًا. وفي أحيان أخرى كانت الإجابات على أسئلة السائلين تقوم على تفسير هديل الحمام الواقف على أغصان الشجرة. وكانت الأسئلة تُكتب على رقائق معدنيّة بقي بعضها حتّى الآن. ولقد أراد "ليزانياس Lysanias" أن يعرف ما إذا كان هو والد الطفل الذي كانت تحمله "أنيلا Annyla". وتسأل "نيكوكراتيا Necocratia" إلى مَنْ مِنَ الآلهة تضحّي من أجل اكتساب الصحّة. ويسأل صبيٌّ ما إذا كان عليه أن يمتهن حرفة أبيه في صيد السمك. ويسأل "الكوركيريون Corcyreans" سكّان جزر أيونيا: كيف نتجنّب الحرب الأهليّة. وفي بلدة "لبيديا Lebadeia" كانت هناك عرّافة قديمة لـ "تروفونيس Trophonius" الذي كان في الأصل مهندسًا معماريًّا عظيمًا، قام بالإشتراك

مع أخيه ببناء معبد أبّولّو في دلفي، ثمّ رفعه الناس إلى مرتبة التقديس. وكان سائل عرّافة تروفونيس، بعد التطهير وتقديم القرابين، يُدْفَعُ به إلى مغارة تحت الأرض ليلتقي على نحوٍ مباشر وحيًا يثير الرهبة، ولقد كان لأبّولّو بعض العرّافات الشهيرات في آسيا مثل عرّافة معبد "ديديما Didema" المدينة اليونانيّة الواقعة على الساحل الأيّونيّ، والتي تبعد عن مالطة مسافة نحو أحد عشر ميلاً، وكان زمن تلكّ العرّافة يعود إلى القرن السادس قبل الميلاد. لكنّ عرّافة مدينة "كلاروس Claros" الواقعة على ساحل أيونيا بالقرب من مدينة كولوفون، قد طغت على عرّافة معبد ديديما في ما بعد، وكان لمعبد كلاروس في العصر الرومانيّ جهاز إداريّ كبير، فضلاً عن جوقة من المنشدين، ولقد انتشرت شهرة هذه العرّافة حتّى وصلت إلى مناطق بعيدة مثل "دالماتيا Dalmatia" في يوغوسلافيا، و"توميديا Numidia" في شمال غرب أفريقيا، بالإضافة إلى بريطانيا[١].

صُـــــــورٌ
عَن الخُرَافَات

الفيلسوف اليونانيّ ثاوفراسطوس (٢٧٢ ـ ٢٨٧ ق.م) الذي خلف أستاذه أرسطو في زعامة المدرسة الأرسطيّة، صوّر في كتابه "الطباع" الرجل المؤمن بالخرافة في صورة كوميديّة بقوله: "من الواضح أنّه يمكن تعريف عالم الخرافة بصفة عامّة بأنّه ضرب من الجبن أمام القوى الخارقة للطبيعة. إنّ المؤمن بالخرافة هو ذلك النوع من

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٩٩ ـ ١٠١.

الناس الذي لا يخرج من داره أول النهار إلاّ بعد أن يغسل يدَيه ويرشّ نفسه بالماء من العيون التسعة، ويضع في فمه قطعة من ورق شجر الغار يأتي بها من أحد المعابد، فإذا ما اعترضت طريقه قطّة لم يواصل السير حتّى يمرّ به إنسان آخر، أو يقذف بثلاثة أحجار في الشارع، وإذا أبصر أفعى في بيته وكانت من النوع الأحمر اللون يستنجد بديونسيوس أو سبازيوس، أمّا إذا كانت الأفعى مقدّسة فإنّه يقيم هيكلاً من فوره في البقعة التي أبصرها فيها، وإذا مرّ بحجرٍ أملس من تلك الحجارة المقامة في مفترق الطرق صبّ عليه الزيت من قنّينة، ولم يواصل السير في طريقه إلاّ بعد أن يركع له، ويحني رأسه إلى الأرض. وإذا قرض فأر جراب طعامه، توجّه مباشرة إلى العرّاف وسأله ماذا يفعل، فإذا أشار عليه بأن يرسل الجراب إلى الإسكافيّ ليرقعّه، أهمل هذه النصيحة، وتخلّص من النذير المشؤوم بطقوس تمنع عنه الشرّ المرتقب. وهو يحتفل دومًا بتطهير بيته، لأنّ الإلهة "هيكاتي Hecate" التي تسيطر على طقوس السحر والشعوذة، كانت تسكنه. وإذا سمع نعيب البوم وهو يمشي خارج البيت، ارتعش ولم يكمل سيره إلاّ وهو يتمتم "القوّة للإلهة أثينا". وهو يرفض أن تطأ قدمه حجر ضريح، أو أن يسير في أيّ مكان بجوار جثّة ميت، أو إمرأة في المخاض، مردّدًا أنّه لا يريد أن يعاني النجاسة. وفي اليومَين الرابع والسابع من كلّ شهر يصدر تعليماته بإعداد الخمر للأسرة، ويخرج ليشتري أغصان الريحان، وبخورًا، وصورًا مقدّسة، ثم يعود إلى البيت ليقضي بقيّة النهار في صناعة أكاليل الزهور ليزيّن بها تماثيل "هرمفروديت Hermaphrodite" الذي يجمع بين صفتَي الذكورة والأنوثة، لتقدّم كقرابين. وفي كلّ مرّة يرى فيها حلمًا يهرع إلى مفسّري الأحلام، وإلى العرّافين والمنجّمين ليستفتيهم في ما ينبغي عمله ليرضي الإله أو الإلهة. وعندما يكون على وشك الترسيم في أسرار "أورفيوس" فإنّه يزور الكهنة مرّة كلّ شهر، مصطحبًا معه زوجته، فإن كانت مشغولة

اصطحب الأطفال مع مربّيتهم. والكلّ يعلم أنّه كثيرًا ما ينزل البحر ليرشّ جسده بالماء المقدّس. وكلّما رأى أحد تماثيل "هيكاتي" في مفترق الطرق مع حزمة ثوم، فإنّه يذهب إلى البيت فورًا ليغسل يديه، ويرسل للكاهنات يسألهنّ أن يُطَهِّرْنه بأن يحملن جروًا أو زنبقة ويطُفْنَ بها في موكب. وإذا وقعت عينه على رجلٍ مصابٍ بالجنون ارتجف وبصق في صدره. ولو تخيّلنا أنّ هذه صورة كاريكاتوريّة، فمن الخير أن نتذكّر أنّ "نيكاس Necias" القائد العسكريّ ورجل الدولة الأثينيّ، بعد موت "بركليس"، فقدَ جيشَين سنة ٤١٢ قبل الميلاد، لأنّ عرّافَيْن نصحاه بأن "ينتظر بعد خسوف القمر في ٢٧ آب (أغسطس) ثلاث مرّات تسعة أيّام"، أي سبعة وعشرين يومًا، قبل أن يتحرّك بقوّاته. ولقد أدان "بلوتارك" المؤرّخ الإنسانيّ العطوف الذي جاء بعد ذلك بخمسة قرون، ذلك الإيمان بالخرافة، لكنه أوضح أنّه كان هناك كثيرون في عصره "ممّن كانت كلماتهم وإرشاداتهم الخرافيّة، وسحرهم وشعوذتهم، وجريهم إلى الأمام وإلى الخلف، ودقّهم للطبول وتطهّراتهم المشينة، وتزمّتهم القذر، وزهدهم الغريب غير المشروع، ما يدفع بالعقلاء من الناس إلى الإلحاد". ومع ذلك فإنّ بلوتارك نفسه لم يجد حرجًا في التشاؤم من العطس[١].

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، مرجع سابق، ص١٠١ ـ ١٠٣.

العصـــرُ الهلّنستيّ

تقع مكدونيا في شمال بلاد اليونان، وهي جبليّة بمعظمها، تتخلّلها سهول وأودية خصبة، مساحتها ٣٠ ألف كيلومتر مربّع، وسكّانها آنذاك نحو نصف مليون، يتميّزون بالخشونة والقساوة. إعتبرهم اليونان برابرة، أي غرباء عنهم، وهم يتكلّمون لهجة تختلف عن اللهجات اليونانيّة. لكنّ ملوك مكدونيا أُعجبوا بالحضارة اليونانيّة، فكانوا يشجّعون دخولها إلى بلادهم، ويرسلون أولادهم إلى بلاد اليونان، ويأتون بمعلّمين يونانيّين لأولادهم. كما كانوا يشاركون بالحفلات الدينيّة والرياضيّة. وفي سنة ٣٦٠ قبل الميلاد، رقّي فيليبُّس عرش مكدونيا، وعمره ٣٢ سنة. وكان تتلمذ على اليونان، وعاش ثلاث سنوات في مدينة ثيبة. وأُعجب بالحضارة اليونانيّة فاستوحى منها لتطوير بلاده، واستعان بالفيلسوف أرسطو معلّمًا لابنه الإسكندر. وأدار مملكته على الطريقة اليونانيّة، فأدخل القوانين، ونظّم الإدارة، وقام بالمشاريع العمرانيّة والاقتصاديّة. كذلك نظّم الجيش على الطريقة اليونانيّة، فنظّم المشاة في كتائب، وسلّحهم بالسيوف وبالرماح الطويلة، ورافقهم رماة السهام والمقلاع. وأنشأ خيّالة قويّة، وأعدّ الأدوات لحصار المدن. وقد عرف فيليبّس حقيقة المدن اليونانيّة، فهي غنيّة ومتحضّرة، لكنّها ضعيفة عسكريًا. وقد أرهقتها حروب البلوبونيز بين سنتَي ٤٣١ و٤٠٤ قبل الميلاد. وكان فيليبّس عبقريًا، يجمع بين الدهاء والقوّة، بين القساوة والمرونة. وكان فصيحًا ومفاوضًا لبقًا يغري خصومه بالوعود، ومتى بلغ هدفه فرض ما يريد. كان متى أراد احتلال مدينة، يرسل الأموال ليجد جماعة تساعده، وكان يردّد: "ليس من مدينة عاصية إذا أرسلنا إليها حصانًا محمّلاً ذهبًا". وقد أدرك أنّ أثينا رأس المقاومة ضدّه. فعمل للسيطرة عليها، مرسلاً إليها الأموال، فاشترى حزبًا يميل إليه، وأغدق الوعود. لكنّ

الخطيب "ديموستين" عارضه، فألقى الخطب ضدّه وألّب الناس عليه، فقاومته أثينا عشر سنوات، لكنّ فيليبّس كان مرنًا لا ييأس في تنفيذ خطّته. بل استمرّ يقاتل أثينا وغيرها من المدن، حتّى أحرز نصرًا حاسمًا سنة ٣٣٨ في كيرونيا بمنطقة بيوسيا، وفرض الصلح على اليونان، وأنهى بذلك نظام "الدولة المدينة"، ليوحّد جميع المدن ويؤسّس المملكة الموحّدة. وبدأ بعد هذا النصر يعدّ حملة لغزو الشرق ومحاربة الفرس. إلاّ أنّ أحد الأشراف المكدونيّين اغتاله سنة ٣٣٦ قبل الميلاد لأسباب شخصيّة، فخلفه إبنه الإسكندر[١].

دفعت حياة الإسكندر الأكبر القصيرة (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) بالحدود إلى الوراء بعدّة طرق، ومات شابًّا، دون أن يعيّن أحدًا لخلافته. وكان له من أبيه أخ أبله، ولم يكن قد وُلد ابنه بعد من زوجته الفارسيّة "روكسانا"، فاحتفظ القادة بوحدة الأمبراطوريّة، وعندما وُلد ابنٌ للإسكندر أصبح مع عمّه على رأس الأمبراطوريّة، لكن بما أنّهما كانا قاصرَين، شكّل القادة مجلس إدارة لحكم الأمبراطوريّة. لكنّ القادة اختلفوا، وقتلوا أرملة الإسكندر وابنه وأخاه، وقسّموا الأمبراطوريّة نهائيًّا سنة ٢٧٥ قبل الميلاد، فأصبحت تتألّف من ثلاثة أقسام هي مكدونيا واليونان وتحكمهما أسرة الأنتيغونيّين، ومصر ويحكمها البطالسة وعاصمتهم الإسكندريّة، وآسيا ويحكمها السلوقيّون، وهي بلاد واسعة عاصمتها أنطاكية، ما لبثت أن تجزّأت بين برغاما في آسيا الصغرى، وسلوقيا في شمال سوريا، وإيران التي سيطر عليها البارانيّون الفرس[٢].

---

١ - أبي فاضل، موسوعة عالم التاريخ والحضارة، ١: ١٥٢ - ١٥٣.

٢ - أبي فاضل، موسوعة عالم التاريخ والحضارة،١: ١٦١.

عُرِف هذا العصر بالعصر الهلّنستيّ، وقد اختلطت فيه حضارة الإغريق بفكر الشرق، فاهتزّت الآلهة القديمة، وعظّم اليونانيّون "أبطالهم" ومؤسّسي المدن، وحاول الإسكندر أن يجعل ألوهيّته هي الفكرة التي تربط الأمبراطورية، ومع أنّه فشل في ذلك، لكنّه وضع سابقة خطيرة. وعندما زار "ديمتريوس" الملقّب بـ" فاتح المدن" أثينا عام ٣٠٧ قبل الميلاد، أنشدوا له ترنيمة جميلة تعلن أنّ الآلهة الأخرى غائبة صمّاء، غير مكترثة أو غير موجودة، أمّا ديمتريوس فهو تجلٍّ للإله الواحد الحَقّ، وقدموا "البارثيّون" ليكون قصرًا له. وبعد ذلك اتّخذ الحكّام ألقابًا مثل "Euergetes" أي "المحسن" أو "المنقذ"، و"تجلّي الإله"، بل اتّخذ بعضهم لقب الصاعقة "كيراونوس Keraun" . وقد استمرّ وجود الآلهة القديمة، ولكن كان هناك تأكيد جديد على الشياطين والأرواح الوسيطة. كما جاءت آلهة جديدة من الشرق ومن الجنوب لتبقى جنبًا إلى جنبٍ مع الآلهة القديمة. ودخل التنجيم عن طريق بابل، واشتد الطلب على آلهة الشفاء، كما أصبح محراب "أسكليبيوس Asclepius" في "أبيدوس" شعبيًّا إلى أقصى حدّ. وأسكليبيوس إله في العالم القديم، يقال إنّ عبادته الأصليّة كانت في أبيدوس، ثمّ اختار الثعبان المقدّس رمزًا لإله جزيرة التيبر مقرًّا له وبنى له فيها معبدًا. ولقد أدّت الشكوك إلى الإعلاء من شأن "تيكي Tyche" إلهة الحظّ أو الصدفة، أو ربّما وجدت لكلّ إله نقيضة. ومن هنا ظهرت فلسفات ثنائيّة مثل "الغنوصية Gnosticism" غير أنّ المسألة كان لها وجه آخر. فقد كانت هناك وحدة عظيمة أكثر من أيّ وقت مضى، وقد تطلّب ذلك تعبيرًا دينيًّا جديدًا. وكان هناك ميل نحو الوحدانيّة، أو على الأقلّ نحو إمكانيّة الوحدانيّة، في الإعلاء من شأن "زيوس"، وازدياد الجانب الأخلاقيّ في الدين. وظهر المذهب التوفيقيّ "Syncretim" تعبيرًا عن هذا المزاج نفسه. وكان الإله "سيرابيس Sarapis" واحدًا من أطرف إبداعات العصر، وهو صيغة جديدة من الإلهين

المصريِّين: "أوزيريس" الذي اتّخذ في الإغريقيّة إسم "سيرابيس" أي "الإلـه المخلّص"، و"أبيس Apis" الإله العجل، كما هو واضح من اسمه، ومـع ذلك فهـو يرتبـط ارتباطًـا غريبًـا مـع "سينوب Sinope" الواقعـة علـى البحـر الأسـود، إذ اتّحد مـع زيـوس الإلـه الشافي، الإله المخلّص، الإله الأب الذي نألف ملامح وجهه الطيّب الملتحي من تماثيلـه الكثيرة، والذي يشكّل موضوعًـا للحبّ والتفاني ليلبّـي الحاجات التـي اقتضاها تغيير البيئة. أمّا الإلهة " تيكي"، إلهة الحظّ أو الصدفة، فكانت تُعبد كما تُعبد الآلهـة والإلهـات الأخرى. وقد اعتبر المؤرّخان العظيمـان للعصـر القديم: "ثوكيديـز"، و"بوليبيـوس"، الصدفة أو الحـظ، مـن دون كتابتـه بـأحرف كبـيرة، أي بـدون تضخيـم، العنصـر الرئيسـيّ فـي التحليل التـاريخيّ. والفيلسـوفان العظيمـان أفلاطـون وأرسـطو، اللـذان نظرا إلى الكون نظرة غائبة تمامًا، جعـلا الصدفـة مسـاوية لكـلّ مـا لا ينتمـي مباشـرة إلى الفعل الغائي للآلهة والناس، أي في النهايـة، لكـلّ مـا لا ينتمـي للقـانون الطبيعـيّ. وإذا كـانت الصدفـة قد سيطرت علـى هـذا النحـو، علـى خيـال المثقّـف، فـلا يعـود مستغربًا أن يعبدها رجـل الشـارع. ولمّـا كـانت الصدفـة توصـف بأنّهـا هوائيّـة، ولا يمكـن التنبّـؤ بمسلكها، فقد تصورّها وعـبّر عنهـا برمـوز الرخـاء والإزدهـار الـذي تمنحـه أو تمنعـه، مثـل قرنَـي الوفـرة، أو أجنحـة النصـر، أو برمـوز الشـهوة، مثل العجلـة التـي تقـف عليهـا بغير استقرار، أو برمـز الدفّـة المشـهورة كتعبير عـن اتّجاهها في الحياة. أمّا الكرة التي تقف عليها في بعض الأحيـان، فهـي رمـز غـامض، فقد تكون إشارة إلى كرة الكون الذي تسيطر عليـه، ولكنّهـا مهـزوزة، ووضعهـا غير مأمون[١].

---

١ ـ بارنارد، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، مرجع سابق، ص١٠٤ ـ ١٠٥.

كان العصر الهلّنستيّ أبهى عصور "تيكي"، وإنْ عُرِفَت قبل ذلك بفترة طويلة، فقد ذكرها "هوميرُس" في "ترنيمة إلى ديمتر" منسوبة إليه، على أنّها واحدة من الـ "ناريدات Nareides". أمّا "هزيود" في كتابه "أنساب الآلهة Theogony" فيقول إنّها ابنة الإلهة "أوقيانوس". ويقول "أرخيلوخوس Archilochus"، أشهر شعراء اليونان في الهجاء، الذي عاش في منتصف القرن السابع قبل الميلاد، إنّ الحظّ أو الصدفة والقدر، تسيطر على مصائر البشر. و"بندار Pindar"، أعظم الشعراء الغنائيّين عند اليونان (٥١٨ ـ ٤٣٨ ق.م) نظَم أناشيدَ كثيرة لأبطال الألعاب الرياضيّة ضمّنها أسطورة تتّصل بالفائز، تنمّ عن المزج بين الصدفة وإحدى ربّات القدر. والمبدأ نفسه يبدو بارزًا في مسرحيّات "يوربيدس". ولقد لعبت "تيكي" دورًا هامًّا في الرواية إبّان العصريَن: الهلّنستيّ، والرومانيّ. وتصوّروها عمياء حاقدة متحيّزة. وقصّة "شريتون Chriton"، الروائيّ اليونانيّ الذي ازدهر في القرن الثاني الميلاديّ في آسيا الصغرى، وهي القصّة المسمّاة "كارياس وكاليروه Chaereas & Callirheo"، هي حكاية صراع عنيف بين الصفة التي تسبّب جميع الأمراض، وأفروديت التي تنقذ العشّاق. وفي قصّة الكاتب اللاتينيّ من أصل أفريقيّ: "أبوليوس Apulius"، الذي اشتهر في القرن الثاني الميلاديّ، والذي تُعتبر قصّته "الحمار الذهبيّ" من أهمّ ما وصل إلينا من القصص الرومانيّة، وقد ذاعت شهرتها في العالم القديم، نموذج مماثل في ما عدا أنّ إيزيس، وليست أفروديت، هي المنقذ.

لا شكّ في أنّ هؤلاء الروائيّين قد عبّروا عن رأي كان شائعًا بين النلس، وهذا ما نراه في نقوش الأضرحة، حيث في بعضها إشارة إلى "تيكي"، باستثناءٍ واحدٍ فريد، جاء التعبير عنها بعبارات ملؤها المرارة والكراهية اليائسة: "هنا أرقد أنا فليرموس

Phileremus جثّةً هامدة، وهو ما كانت تشتهيه الطاغيةُ، تيكي، فقد أرادت أن تجرّني الأرواح من الدنيا"[1].

ويرى باحثون أنّ ثمّة ثلاثة تعديلات لهذه الصورة، لها بعض الأهميّة: فهناك أوّلاً: روح الخصوبة المعروفة باسم الروح الخير، روح "أغاثوس Agastos"، الذي احتاج إلى رفيقة فكانت له "تيكي أغاثي" أو الصدفة الطيّبة. وقد كان الروح الخير يتّحد أحيانًا مع "زيوس"، ومن هنا جاء النقش البارز من أثينا، وهو الآن في كوبنهاغن، الذي يرجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وهو يصوّر "زيوس" بقرنَي الوفرة مع قرينته الصدفة الطيّبة. وهناك، ثانيًا: في آسيا، حيث حكمت الإلهة طويلاً، وكان من الطبيعيّ أن ينظر إلى تيكي على أنّها شكل آخر من أشكالها الكثيرة. وثالثًا: في الحياة العامّة إبّان العصرين الهلّنستيّ والرومانيّ، أصبحت الصدفة إلهة مدينة. وهناك تمثال برونزيّ شهير نحته "يوتكيز Eutychdes" للإلهة "تيكي" إلهة أنطاكية، وهي جالسة فوق شجرة تمثّل عرش الأمّ الجبليّ، وفي يدها حزمة قمح ترمز إلى الرخاء، وتضع على رأسها تاجًا على شكل حصن يرمز إلى حماية المدينة. وبالمثل نجد أنطيوخوس الأوّل الكوماغيني الملقّب بالمنقذ ابن سلقوس الأوّل (٣٢٤ ـ ٢٦٢ ق.م)، آخر حكّام سوريا من خلفاء الإسكندر الأكبر، نجده يقوم بوضع نقوش هائلة مع تماثيل تجسّد مدينة كوماغيني على هيئة الإلهة تيكي. وقد كتب الموسوعيّ الروماني "بليني الأكبر"، الذي كان يعرف العالم اليونانيّ معرفة تامّة، ملخّصًا ممتازًا حول وضع "تيكي" العامّ، قال فيه: "إنّ تيكي هي الوحيدة في جميع أنحاء العالم التي نتوسّل إليها، وهي الوحيدة المدّعى عليها والمتّهَمة، والفكرة الوحيدة التي تشغل أذهان الناس، وهي

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص١٠٥ ـ ١٠٦.

الوحيدة موضع الثناء... إنّنا نرزح تحت رحمة الصدفة بحيث صارت الصدفة هي إلهتنا"[1].

العبَادَة السُّلاليَّة

تؤلّف العبادة السلاليّة واحدًا من أغرب تجديدات العهد الهلّنستيّ. وقد تساءل باحثون: هل يجدر بنا ربط هذه العبادة بالأنظمة الملكيّة، لا بالديانة؟ وقرّروا أنّه لا ريب في أنّها تحتلّ مكانها الأفضل في موضوع الديانة، لأنّها مثاليّة الإنسان المتفوّق الناعم برضى الإله وأقرب الناس إليه، أي المثاليّة الملكيّة السائدة. من الجدير بالملاحظة أنّ العبادة السلاليّة لم تتسرّب يومًا بشكل من الأشكال إلى مكدونيا، أي إلى الملكيّة التي لم تتسرّب إليها مثاليّة الإنسان، سفير العناية الإلهيّة، إلاّ تسرّبًا نادرًا، لأنّها اصطدمت فيها بمفهوم آخر، هو مفهوم الملكيّة القوميّة. فبين الملكيّة الشخصيّة والملكيّة القوميّة يكمن الخلاف الحقيقيّ. قد يستهوينا أن نبحث عن هذا الخلاف عندما نلاحظ أنّ الملكيّة المكدونيّة قد حكمت أرضًا أوروبيّة، ما يجعل الباحث ينسب نشأة العبادة السلاليّة ونموّها، إلى تأثيرات شرقيّة، لأنّها لم تتخطّ البحر الإيجي. ولكنّ هذا التفسير غير مقبول، إذ إنّ ملوكًا مكدونيّين عديدين يرجّح أنّهم كانوا موضوع عبادة في أوروبّا، ولكن في اليونان ولا في مكدونيا، بل في مدن قد تكون ارتبطت بالملك ساسيًّا ولكنّها غريبة عن المملكة المكدونيّة بالمعنى الحصريّ. وإذ إنّ العبادة السلاليّة، كما مورست في الشرق نفسه، ليس لها سابقات محليّة. فالفرعون وحده، بين كافّة الملوك

---

[1] ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١٠٦.

الشرقيّين، كان موضوع عبادة قبل الإسكندر. وقد استمرّت هذه العبادة التقليديّة بأقدم مظاهرها. فاعتُبر اللاجيّون، شأن الفراعنة، أبناء آلهة وآلهة، ولكن لرعاياهم البلديّين فقط. ثمّ انتظمت في الوقت نفسه عبادة موازية جديدة في مفهومها ومظاهرها، نرى عبادات أخرى مماثلة لها في الملكيّات الشرقيّة الأخرى حيث لم يُعتبر الملك من قَبل أكثر من وسيط بين الآلهة والشعب.

وهكذا فإنّ العبادة السلاليّة، التي هي العبادة الهلّنستيّة الحقيقيّة، قد اشتقّت من أصول يونانيّة بنوع خاصّ. وقد وفّرت لها العبادات اليونانيّة مرتكزًا وافي المتانة والاتّساع لتحقيق النموّ الذي أحرزته. وكان هذا المرتكز معقّدًا على كلّ حال، أو بالأحرى كثير الأجزاء. فهنالك في الدرجة الأولى مثال غامض جدًّا وقابل بالتالي لشتّى التفسيرات، هو مثال "Dãimôn" و"Lyché" أي الحظّ، والروح، أو الكائن الإلهيّ الذي يحيي ويلهم ويحمي كلّ فرد. فعندَ مَن يستطيع هذا الجزء الصغير من الألوهة أن يظهر أعظم قوّة وجدارة بالعبادة منه عند "لفاسيفلس"، وهو يوفّر له النجاح والسلطة؟

وهنالك في الدرجة الثانية عبادة الأموات التي يقوم بمراسمها أحفاد لم تعوزهم الوسائل في هذا المجال، لاستمالة أصدقائهم والمعجبين بهم بغية الحصول على اشتراكهم فيها. وهنالك أخيرًا عبادة "البطل"، ذلك الإنسان العظيم الذي أتى المعجزات وانتقل بعد موته إلى جوار الآلهة، ولا سيّما البطل "المؤسّس"، مؤسّس المدن بنوع خاصّ، أي ذلك الذي أوجد مجموعة بشريّة جديدة تعبّر له، في تأدية عبادتها له، عن تقواها وشكرها، وتضمن في الوقت نفسه تلاحمها الداخليّ ووثوق الصلة التي تشدّ جميع أعضائها: فهل يا ترى من أبطال يفوقون الملوك الهلّنستيّين بمآثرهم وتشييد المدن الكثيرة؟ كلّ ذلك قد اتّحد بعضه ببعض،

وربّما بعناصر أخرى أيضًا، وأعطى النور للعبادة السلاليّة في كافّة الملكيّات المقيمة في الشرق[1].

جرت من قبل محاولات رضي عنها الإسكندر، وشجّعها لإقامة عبادة لشخصه وهو بعد على قيد الحياة، غير أنّها لم تحرز على العموم نجاحًا باهرًا. ولكنّه كان من الطبيعيّ، بعيد وفاته، أن تضعف أعظم المقاومات شدّة، نظرًا لصفاته ومآثره التي فاقت مقاييس الطبيعة البشريّة. فقامت المنافسة حول إرثه الروحيّ وحتّى حول بقاياه الفانية. فضرب "أفمينُس" رئيس ديوانه القديم، الذي في وسط المعسكر، الخيمة الملكيّة وأقام فيها مذبحًا وعرشًا وضع عليه شارات الملكيّة. وقد اعتُبر الإسكندر متربّعًا عليه بشكل غير منظور، وملهمًا المذاكرات الجارية بحضوره. وأفلح مرزبان مصر، بطليمُس الأوّل المقبل، في أن يستولي بخداعه على رفات الإسكندر ونقله إلى الدلتا. وشيّد أخيرا في الإسكندريّة ضريحًا ضخمًا غدا مركزًا لعبادة الإسكندر التي فُرضت كعبادة رسميّة على كافّة سكّان مصر. ولكنّ عبادة الإسكندر، إذا هي كانت سابقة، لم تكن مثالاً وقدوة. ففي مصر نفسها، حيث نستطيع تتبّع تطوّر العبادة العامّ، ظهرت عبادة السلالة اللاجيّة، ونمت دون أن تُربط بعبادة الإسكندر.

يقول باحثون إنّ وضع تاريخ العبادة السلاليّة يذهب بنا بعيدًا ويغدو بالنتيجة مستحيلاً. لا بل إنّ درس الأشكال التي انطوت عليها لا يمكّن الباحث من أن يسير فيه إلى حيث يتمنّى. ولكن هناك حقيقة راهنة هي تنوّع هذه الأشكال الكثيرة تنوّعًا غريبًا.

فهنالك تنوّع في غاية ممارسة العبادة. إذ يمكن أن تؤدّى لهذا الملك الميت أو ذاك من السلالة، أو لمجموع ملوكها الموتى، أو للملك الذي على قيد الحياة، أو للملكة، أو

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، الشرق واليونان القديمة، ١: ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

لأعضاء آخرين من الأسرة الملكيّة على السواء؛ بل إنّ السراري الملكيّات أنفسهنّ، وحتّى غلام الملك، قد حظوا أحيانًا بمظاهر التكريم الإلهيّ.

وهنالك تنوّع في العبادة نفسها. فالشخص الذي هو موضوعها قد يشرك بالألوهة التي قد تتنوّع هي نفسها إلى ما لا نهاية له، ولكنّ التفضيل يكون ظاهرًا وطبيعيًا لمصلحة أفروديت عندما يكون هذا الشخص امرأة. ولكنّ مرحلة الإشراك هذه، وحتّى مرحلة المماثلة، لا يقتصر عليهما؛ فالعبادة تؤدّى إلى ملك أو، كما في مصر، إلى ملك وزوجته يؤلّهان شخصيًّا ويُضاف إلى اسمَيهما الشخصيَّين لقب أو عدّة ألقاب عبادة أو لقب "ثيوس" الإله، أحيانًا.

وهنالك تنوّع في مظاهر العبادة: معبد خاصّ أو مذبح فقط؛ تمثال مزدان بخاصيّات مختلفة أو موضوع في معبد إله آخر؛ صلوات وذبائح وتقادم في مواعيد قد تكون قريبة أو بعيدة يقدّمها كهنة أو قضاة من مراتب مختلفة؛ أعياد خاصّة ترافقها احتفالات ومباريات تختلف نوعًا وفخفخة باختلاف الأمكنة.

يبرّر تنوّعَ الأشكال هذا تنوّعُ المؤمنين، والحريّة التي تطلقها الحكومة في مبادهات لا يمكن أن تقع منها موقع الاستقباح. إذ يعلن بعض الأفراد وبعض الجماعات المحدودة العدد عن تقواهم بتقادم متواضعة. أو تنشئ المدن عبادات بلديّة، وهي أكثر أشكال العبادة رواجًا، بإقرار مراسيم أبعد من أن تقتفي المراسيم التقليديّة، ولكنّ ذلك لا يمنع الملوك عن الإسهام في النفقات بهبات هي في الغالب أوقاف تُستخدم إيراداتها لتوفير المزيد من الزهو والعظمة للاحتفالات. ويقدّم الملوك أنفسهم أخيرًا على بعض المبادهات، إمّا إكرامًا لجدودهم، وإمّا إكرامًا لأنسبائهم، أو إكرامًا لأنفسهم أحيانًا. وهم يتصرّفون في عملهم هذا تصرّف الأفراد، والفارق الوحيد هو أنّ لديهم وسائل دعاوة وعمل لا تتوفّر للأفراد. فلديهم النقد الذي تتداوله كافّة الأيدي، والذي ينتقون له، على

هواهم، الرسم والخاصيّات والنصوص، ولديهم الأراضي والموارد لتشييد المعابد ومكافأة خدّامها وإقامة الأعياد. ولديهم "الأصدقاء" والموظّفون الذين لا يرضون إلاّ بالاشتراك بحماس في هذه العبادة، ولو كانت عبادات خاصّة مبدئيًا[1].

عند هذا الحدّ، وقفت سلالة الأطاليّين، وقد برهنت، على كلّ حال، عن ترزّن نادر في هذا المجال، إذ إنّها، من جهة ثانية، لم تؤلّه سوى الملوك الموتى ولم تسمح بتأليه غيرهم. ولكنّ بعض الملكيّات الأخرى قد ذهبت إلى أبعد من ذلك لا سيّما وأنّه ليس هنالك من حدّ طبيعيّ بين الملك في حياته الخاصّة والملك في حياته العامّة، ولا بين أملاك الملوك والمملكة. فقد أُضيف في مصر إلى عبادة الملك، كفرعون، التي استمرّ البلديّون في ممارستها، وفاقًا لطقوسهم التقليديّة، عبادات يونانيّة فُرضت على جميع السكّان، وسهرت الإدارة على الاحتفال بها باللغة اليونانيّة ووفاقًا للطقوس اليونانيّة: عبادة بطليموس الأوّل، وعبادات سلسلة الأزواج الملكيّين الموتى، وأخيرًا عبادة الزوج الملكيّ الذي على قيد الحياة أي الأخ والأخت المتّحدين بالزواج والمشتركين في السلطة. أمّا في أوج سلالة السلوقيّين، في أواخر القرن الثالث، فإنّنا نعرف، بأقلّ تفصيل، ودون جزم في استمرارها اللاحق، عبادة الجدود وعبادة الملك الحيّ وعبادة الملكة التي تنظّمها الدولة معيّنة في كلّ مرزبانيّة كهنة ورئيسة كاهنات. وهكذا فإنّ اللاجيّين والسلوقيّين، على الأقلّ، قد أضافوا، إلى عبادات متنوّعة جدًّا، عبادة رسميّة متشابهة الشكل، شاملة أرض المملكة بكلّيتها، موزّعة على مقاطعات هي المقاطعات الإداريّة نفسها، يخدمها كهنوت قد يشرف رؤساؤه على الكهنة المحلّيّين وعلى العبادات المحلّيّة، وتستلزم موجبات تُفرض على عموم الرعايا. وإنّ هذه

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، الشرق واليونان القديمة، مرجع سابق، ١: ٤٣١.

المرحلة لنتيجة منطقيّة للنظام السائد، إذ إنّ موالاة السلالة تستتبع في النهاية التعبّد للمالك سعيدًا[1].

لفت بعض المعاصرين النظر إلى أنّه ربّما كان هنالك، في بعض مظاهر التقوى نحو الملك، شعور، برز بقوّة عظيمة عند نشأة شعوب كثيرة، ثمّ استمرّ أو عاد إلى الظهور، في أنّ حيويّة الملك ضمانة للخصب العام، وبالتالي لرخاء مملكته وسكّانها. وهذا أمر ممكن إذ إنّ الفكرة تتراءى فعلاً في بعض الصيغ النادرة على كلّ حال. ولكنّ صدق هذه الصيغ موضوع شكوك مشروعة: فكيف السبيل إلى اكتشاف المشاعر الصادقة حقًّا في سير إدارة يرضى عنها الولاة حتّى ولو استخدموا سلطتهم لفرض الاشتراك فيها؟ أضف إلى ذلك أنّ ما يعوزنا بنوع خاصّ هو الاصالة الضروريّة بين هذه الفكرة والتأليه. فقد كان يكفي الملك، حتّى يكون ضمانة ورمزًا، أن يكون وسيطًا دونما الحاجة إلى أن يصبح إلهًا. ولنا في أكثر من بلدان الشرق القديم مصداق على ذلك.

في الحقيقة تعبّر العبادة السلاليّة، نظريًّا، عن عواطف المؤمنين، لا من حيث هم رعايا، بل من حيث هم بشر. وتشمل هذه العواطف الإعجاب المبهوت أمام هذا القدر من العبقريّة، وهذا القدر من السلطة في جميع الحقول، وهذا القدر من السعادة، وهذا القدر من الإنعامات يهبها الآلهة بشريًّا لسفير العناية الإلهيّة، وعرفان الجميل للخدمات المؤدّاة، والأمل الوطيد بإحسانات مقبلة أعظم شأنًا أيضًا. وبكلمة موجزة تشمل مثاليّة "الفاسيلفس" نفسها كما وردت في اللغة الرسميّة بتسميات "المخلّص" و"المحسن" التي ترتدي قيمة عباديّة في الدرجة الأولى. وهنالك لقب أقوى إيحاء: فمن حيث الملك هو

---

١ - تاريخ الحضارات العام، الشرق واليونان القديمة، مرجع سابق، ١: ٤٣١ - ٤٣٢.

"أبيفانيس" أيضًا، فإنّه إله "يتجلّى". ومن ناحية نظريّة أيضًا، يبقى إنشاء أكثر هذه العبادات وإسهام المؤمنين فيها أعمالاً حرّة وبديهيّة: فالعواطف التي سبق تحديدها ليست من تلك التي تستطيع سلطة سياسيّة أن تفرضها. وكانت هذه القاعدة مطّردة باستثناء حالتَين: حالة العبيد الملكيّين المرغمين بالضرورة على ممارسة عبادات سيّدهم الخاصّة؛ وحالة العبادات الرسميّة، مع أنّنا لا نعلم شيئًا عن مدى موجباتها حيال الرعايا. فواقع الموجبات الماليّة نفسه لم نتحقّق منه إلاّ في مصر فقط. وإنّ فكرة العبادة السلاليّة، في الحقيقة، تذكّرنا بالعبادات البلديّة العديدة التي ليس من ريب في أنّ إنشاءها يعود إلى قرار السلطات في كلّ مدينة، كما يتّضح ذلك من تنوّع أشكالها ومن اختلاف تواريخ إنشائها[١].

أورد باحثون في موضوع العبادة السلاليّة أنّه ممّا لا ريب فيه، أنّ بداهة عواطف المؤمنين الراغبين في الإعراب عن تعلّقهم، أو الخاضعين لضغط ليس ضغطًا معنويًّا فقط، لم تكن في أكثر الأحيان سوى مظاهر بداهة فحسب. وأنّه يجوز القول نفسه عن بداهة عواطف المدن التي تنشد أبدًا الإنعامات الملكيّة والتي تدرك مسبقًا أحيانًا، إيحاءات المراجع العليا. وهكذا فإنّ العبادة السلاليّة تعبّر عمليًّا عن عواطف كثيرة المفارقات يتعذّر علينا أن نميّز بين نصيب الصدق ونصيب التملّق فيها، سيّما وليس أمامنا، كما يقول الباحثون، سوى المستندات الرسميّة التي انتقلت إلينا عن طريق الكتابات. فمن حيث أنّ العبادة السلاليّة تحمل، بمثل هذه القوّة، طابع المثل السياسيّة والواقع السياسيّ، فهل هي تعبّر عن عاطفة دينيّة حقيقيّة يا ترى؟ قد يكون من الحكمة ألاّ ننفي ذلك نفيًا باتًّا. لكنّ الشيء الثابت هو أنّ الاحتفال بالعبادة قد اقتصر في أغلب

١ ـ تاريخ الحضارات العام، الشرق واليونان القديمة، مرجع سابق، ١: ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

الأحيان على القيام بطقوس اصطلاحيّة لا تتعدّى قيمتها قيمة الحركات الرمزيّة. ولعلّه يجدر بنا أن نفسّر بذلك كيف أنّ اتّساع العبادة السلاليّة، وحتّى تعميمها كعبادة رسميّة، لم يصادفا مقاومة، على ما نعلم. فإنّ الوثنيّة، التي لم تقِم حدودًا واضحة المعالم بين ما هو بشريّ وما يفوق قوّة البشر وما هو إلهيّ، قد أوجدت، بهذا الصدد، حقلاً مؤاتيًا جدًّا. أجل كان هنالك شعب يؤمن بإله واحد، هو الشعب اليهوديّ. ولكنّ السلطة قد سلكت حياله سلوكًا حكيمًا، وإن هو ثار على الملكيّة السلوقيّة بعد السنة ١٦٦، فالعبادة الملكيّة أبعد من أن تكون السبب الرئيسيّ للثورة، لأنّها لم تدخل أورشليم إلاّ بمظاهر عيد لمناسبة ذكرى جلوس الملك، وليس لهذه المظاهر، بالضرورة، أيّ مغزى دينيّ. أمّا في المناطق الأخرى، فلم تقم أيّ صعوبة بوجه السلطة على الرغم من أنّها كانت حرّة طليقة في تصرّفاتها.

أضف إلى ذلك، كما يقول الباحثون، أنّ تأدية العبادة، سواء كانت بديهيّة أو موصى بها أو مفروضة فرضًا، لم يكن لها، في ما يظهر، فعاليّة سياسيّة. ولا يعجب من ذلك إلاّ مَن ينسى أنّ الإغريق قد جهلوا أبدًا النظام الثيوقراطيّ، وأنّ آلهة مدنهم لم يتدخّلوا قطّ في شؤون مدنهم، وأنّ أعظم هاتفي الغيب شهرة قد أخفقوا على العموم عندما خرجوا عن تحفّظهم المتحذّر. ولعلّه من المرجّح أنّ الملوك، بقبولهم تعظيم هؤلاء الهاتفين، أو بلجوئهم إليهم، قد استهدفوا إعلان شأن نفوذهم الشخصيّ، وإيثاق تعلّق مؤمنيهم بهم. ولكنّ هذه الطريقة قد بقيت دون جدوى لأنّها طُبّقت على جميع الملوك دون استثناء، ففقدت بالتالي قوّتها. فالقرارات الشرعيّة والمظاهر المؤثّرة، مهما بلغ من أمرها، لم تخدع أحدًا. ولم تحُل دون إقدام المؤمنين على العصيان والثورة عندما تتعرّض مصلحتهم للضرر، أو عندما تعطيهم الظروف بعض الأمل بالنجاح.

ومن الأمور الثابتة أنّ كمال تنظيم العبادة هنا أو هناك لم ينجح في تأخير انحطاط أيّة ملكيّة من الملكيّات[1].

إنّ قدرة الإغريق على الابتكار السياسيّ لم تنطوِ إذن، في العهد الهلّنستيّ، على أيّ دليل من أدلّة النكهة. فهم قد حاولوا إنقاذ المثال الجمهوريّ بتنظيم الاتّحادات وتوسيعها. ولكنّهم ابتكروا، مع الملكيّة، أشياء جديدة تنطبق على الظروف التي نشأت عن الفتوحات. فقد ألّفت الملكيّة، أقلّه في الشرق، بين مثاليّة الإنسان المتفوّق وبين النظريّة القانونيّة للشرعيّة، أي نظريّة الحقّ السلاليّ في التملّك. وتكوّن هذه النظريّة قاعدة متينة للسلطة المطلقة كحقّ إلهيّ وبشريّ معًا من جهة، وللخلافة الوراثيّة التي تجنّب الفوضى وتتيح تلافي نتائج الكوارث من جهة أخرى. وانطلاقًا من هذه السلطة تكوّن جهاز إداريّ وماليّ وعسكريّ كامل، توجّته العبادة السلاليّة، بغية ضمان تنفيذ قرارات الملك، وجمع القوى الماديّة والأدبيّة في أراضيه بين يدَيه، وهو جهاز على قليل أو كثير من التعقيد، لأنّه يأخذ بعين الاعتبار الظروف المحليّة، ولكنّه يقرب من الكمال أحيانًا. وفي الحقيقة برهنت العبقريّة اليونانيّة، في الملَكيّات، عن إمكانات عقليّة وتقنيّة فائقة. غير أنّ الملَكيّات كلّها قد أخفقت. وقد بدأ الانحطاط يدبّ فيها جميعًا في أوائل القرن الثاني كأبعد حدّ، وبرزت ماديًّا في عجزها عن مقاومة قوّة روما. فكان أمر زوالها المبكّر منوطًا بروما دون غيرها. ولم تضمن هذه أو تلك من الملكيّات بقاء أطول إلاّ بفضل تردّدات روما فحسب. ولكنّ هذا الانحطاط يبرز أيضًا في حقول أخرى من التنظيم الملكيّ. إذ يجب الاعتراف هنا بأنّ الإغريق قد أخذوا على عاتقهم، بسبب قلّة عددهم، وفي وجه الكتل البشريّة التي كان من الواجب عليهم تحريكها

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، الشرق واليونان القديمة، ١: ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

وتطويرها، مهمّة ثقيلة جدًّا، لا سيّما على الصعيد الاجتماعيّ. ولم تكن ظروف الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة دون ظروف الحياة السياسيّة تغيّرًا، إنّما الجدّة الكبرى هنا هي توسيع النطاق الجغرافيّ المفتوح أمام مشاريع الإغريق والاتّصال الذي أُقيم، للمرّة الأولى في التاريخ، وبهذا القدر من التآلف، بين اقتصاديّات ومجتمعات مختلفة في الأصل اختلافًا كلّيًا. هذه هي النتيجة المباشرة لفتح الأمبراطوريّة الفارسيّة على يد الإسكندر، وقد أبقى عليها في جوهرها، طيلة قرون عديدة، خلفاء الفاتح. وقد شبّه بعضهم حملة الإسكندر باكتشاف أمريكا الذي كان منطلقًا للأزمنة الحديثة. ولكنّ في هذا التشبيه بعض المغالاة، لأنّ الأمبراطوريّة الفارسيّة لم تكن "أرضًا مجهولة" للإغريق قبل أن يمسوا أسيادها. غير أنّ المقارنة بين الحدثَين أمر ممكن من حيث اتّساع نتائجها وديمومتها في بعض النطاق[١].

الفَلسَفَة الهلّنستيَّة وأفلاطونيَّة أفلُوطين

سعت جميع الفلسفات في العصر الهلّنستي، بطرق مختلفة، لتحقيق الكفاية الذاتيّة، أو الاستغناء. وكانت الرواقيّة تدين بمذهب شمول الألوهيّة، أو وحدة الوجود "Pantheism"، وفي نهاية الكتاب الأوّل من قصيدة الشاعر الإنكليزيّ "ألكسندر بوب Pope" (١٦٨٨ ـ ١٧٤٤): "مقال عن الإنسان" عرض رائع للمذهب الرواقيّ، حيث يقول: "ليست الأشياء كلّها إلاّ جوانب من كلّ رائع: جسده الطبيعة، وروحه الله". ويتساءل سنيكا: "أتسمّيه القدر؟ لن تكون مخطئًا! أتسمّيه العناية الإلهية؟ ستكون على

١ ـ تاريخ الحضارات العام، الشرق واليونان القديمة، ١: ٤٣٤ ـ ٤٣٥.

صواب! أتسمّيه الطبيعة؟ لن تكون تسميتك كاذبة! أتسمّيه الكون؟ لن تكون قد انخدعت!"

والواقع أنّ مؤسّس المدرسة الفلسفيّة الرواقيّة كان رجلاً قبرصيًّا فينيقيًّا إسمه زينون (حوالى ٣٣٣ ـ ٢٦٢ ق.م) وُلد في مدينة كيتيوم وهي مستعمرة فينيقيّة في جزيرة قبرص. وكان يُعرف عند معاصريه بأنّه كان فينيقيًّا. ولمّا كان في طريقه بحرًا إلى ميناء أثينا: بيريه، غرق المركب الذي كان مسافرًا عليه، وكان محمّلاً بالأرجوان، فنجا زينون بنفسه وأتى أثينا مركز الفلسفة آنذاك، وكان في الثلاثين من عمره. فأخذ يعلّم منذ حوالى سنة ٣٠٢ قبل الميلاد في أحد النوادي العامّة المسمّى Stoa Poikile أي "الرواق المدهون"، ولذا سُمّيت مدرسته الفلسفة الرواقيّة[١]. وهناك فيلسوفان فينيقيّان آخران اشتركا في تقدّم الفلسفة الرواقيّة هما: "بيوثُس الصيداويّ"[٢] من رجال القرن الثاني قبل الميلاد، و"أنتيباتر الصوريّ" (٩٥ ـ ٤٦ ق.م). وقد دحض بيوثُس الصيداويّ نظريّة الحلول القائلة إنّ الله يحلّ في كلّ أجزاء الوجود، أو إنّ الكون هو الله، ورفض الأخذ بها، ومن ثمّ عكف على دراسة علم الفلك الذي أصبح عند الرواقيّين جزءًا من فلسفتهم. أمّا أنتيباتر فقد حمل الفيلسوف الرومانيّ "كاتو اليونيكي" من شمالي أفريقيا على اعتناق الفلسفة الرواقيّة[٣].

---

١ - Diogenes Laërtius, *Lives of Eminent Philosophers*, Loeb Classical Library (London, 1925) Bk. VII, sec. 1.

٢ ـ هناك رجل آخر من صيدا بهذا الإسم، درس عليه سترابو الفلسفة الأرسطوطالميّة وهو من رجال القرن الأوّل قبل الميلاد.

٣ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص٢٢٢.

بيد أنّ الإسم الرواقيّ المفضّل كان "زيوس"، وبهذا الإسم ترنّم أعمق المتديّنين من الرواقيّة المتأخّرة، وهو كليانتيس (٣٣١ ـ ٢٣٢ ق.م) في قصيدته المشهورة التي وجّهها لزيوس وقال فيها: "تحيّة لك يا أعظم الخالدين، أيا زيوس المعبود، هذا العالم الكبير يتحرّك بإرادتك، ويطيع أوامرك أيّها الإله الرحيم"... أمّا ابكتيتوس (٥٥ ق.م. ـ ١٣٥م) نظير كليانتيس في الأمبراطوريّة الرومانيّة، فقد قال "إنّ عمله الحقيقيّ هو أن ينشد ترنيمة للإله". وكان الرواقيّون جبريّين، وعندهم أنّ كلّ شيء يقف بين يدَي اللـه، ودورنا هو أن نتنبّل الأمر فحسب، فنحن مجرّد ممثّلين في الدراما الإلهيّة، وسواء قمنا بدور الملك أو العبد فهو دورٌ جوهريّ بالنسبة للكلّ. وقد كان من بين قادة الرواقيّة عبيد مثل "إبيكتيتوس" وأباطرة مثل الأمبراطور ماركوس أوريليوس (١٢٠ ـ ١٨٠م). أمّا عند اليهود فقد كان الأبيقوريّون والملاحدة إسمَين مترادفَين ولم يكن ذلك عدلاً. صحيح أنّ أبيقور (٣٤١ ـ ٢٧٠ ق.م) هاجم الخرافة وما تتضح به من شرور، لكنّه كان رجلاً متديّنًا، ونصائحه الأربعة لكي تنال الصحّة هي:

١ ـ لا يصحّ أن تخاف من الآلهة.
٢ ـ إنّنا لا نشعر بالموت.
٣ ـ من السهل الوصول إلى الخير.
٤ ـ من السهل تحمّل الشر.

وقال الأبيقوريّون بفناء النفس "التي هي بنية من الذرّات، تنحلّ مع انحلال الجسد". وأنكروا أنّ الآلهة تعاقب الشرّير وتكافئ المستقيم، لكنّهم يجمعون على أنّ الآلهة موجودة، "ويقول بهذا إجماع الناس، ونحن ندركها في الأحلام أنّها تعيش في نعيم مقيم، دون أن تهتمّ بشؤون البشر. غير أنّ الروح التي هي في حالة تناغم مع اللامتناهي، تستطيع أن تلتقط فيوضاتهم، وذلك لمنفعتها وسعادتها".

وبعد حقبة من الشكّ، والإنشغال بالمشكلات الـ"إبستمولوجيّة"، أي مشكلات المعرفة، عادت الأفلاطونيّة إلى اللاهوت، فخلط الفيلسوف اليونانيّ السوريّ الأصل "نومينوس Numenius" في القرن الثاني الميلاديّ، بين أفلاطون وفيثاغورس، كما خلط "ألبينوس Albinus" بين أفلاطون وبين أرسطو، أمّا "أوغسطين" و"كلمنت" و"أوريجينس" فقد مزجوا بين أفلاطون وبين المسيحيّة. ولكنّ أعظم عبقريّة دينيّة في العالم القديم هي عبقريّة "أفلوطين Plotinus" (٢٠٥ ـ ٢٧٠م) الذي يقف بارزًا بين خلفاء أفلاطون، ويتركّز فكره حول "الواحد The One" الذي يعلو على الشخصيّة ويجاوز الواقع، والفكر، والتعريف، والفهم، وتتطلّع جميع الأشياء إليه، وعنه صدر الكون بأسره بعمليّة فيض أو صدور. وأعلى مراتب الحياة هي صعود الروح إلى الله بواسطة الاشتياق المسمّى بالحبّ Eros. والواقع أنّ أفلوطين يقول صراحة إنّ الله هو الحبّ، وربّما لم يكن هذا التعريف إلاّ الشعار المقابل للتعبير المسيحيّ: "الله محبّة"، وهي الـ"أغابيّة Agape" أي "المحبّة المسيحيّة". والغاية الحقّة للروح هي الإتّحاد الصوفيّ مع الواحد في نشوة الوجد، أو تحليق المتوحّد إلى المتوحّد. وقد جرّب أفلوطين الذي كان هو نفسه صوفيًّا، هذه الوحدة أكثر من مرّة[1].

لقد جارت الحركة الفلسفيّة، الحركة الدينيّة منذ زمن بعيد أيضًا. فقامت في القرن الثالث بآخر خلق عظيم طلعت به العبقريّة اليونانيّة في حقل برهنت فيه عن إخصابها، وذلك من خلال الأفلاطونيّة الحديثة التي رسم خطوطها في الإسكندريّة "أمونيوس ساكاس" في أوائل القرن الثالث. وقد أتقنها ودرّسها في روما، ما بين حوالى السنة ٢٤٤ والسنة ٢٧٠، إغريقيّ من مصر هو أفلوطين. فبرزت فيها نزعات العصر

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ١٠٨.

بالذات، أي الحرارة المتهوّسة والدعوة إلى الرفق واشتراك عناصر نظريّات أخرى بالجوهر الأفلاطونيّ، أي البيثاغوريّة والأرسطوطاليسيّة والرواقيّة[1].

إستحثّ أفلوطين الفكر على أن يتصوّر، بفعل جهد تجريديّ جريء، وحدة مطلقة تنبثق عنها كلّ الموجودات، العقل والنفس والجسد، وكأنّها سلسلة انعكاسات يزداد ضعفها تدريجيًّا. ولم يكن للواقع الظاهر من أهميّة، في نظره، إلاّ بالترتيب الذي يُدخله عليه كائن أوّل تنصهر وتتّسق فيه كلّ الأشياء. فيمكن القول، من ثمّ، إنّ دافعًا داخليًّا قد حدا به إلى الوحدة الإلهيّة. ولكنّ نظريّته في وحدانيّة الكون قد انطوت على ألوهيّة الكون أيضًا، لا بل إنّها لم تتنافَ ونظريّة تعدّد الآلهة. أفليس الآلهة جميعهم منبثقين عن الكائن؟ أضف إلى ذلك أنّ بين العالم الإلهيّ الذي تنتسب إليه الكواكب، وبين العالم الأرضيّ، جمًّا غفيرًا من الأبالسة ليس باستطاعة الإنسان إهمالهم. وقد انتهى تعليمه عمليًّا إلى الحثّ على قهر النفس والتقشّف أمام المحسوسات. فإذا ما أخفق الإنسان في ذلك، فإنّ هذه النفس الخالدة تتجسّد في الحيوانات، لا بل في النباتات أيضًا. وإذا ما نجح، فإنّها تشارك الكواكب نورها وتتلاشى في النهاية بذوبانها في الإله. ولكنّ النجاح منوط بالاختطاف الصوفيّ الذي يعطي وحده الإلهام السماويّ ويوفّر رؤية السعادة الأخيرة الأكيدة، ويتيح بالتالي الفوز بهذه السعادة. وهكذا فإنّ الأفلاطونيّة الحديثة قد صرفت العقل عن البرهنة ولم تلجأ إليها لدحض فعاليتها[2].

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريتها، ٢: ٦٢٦ ـ ٦٢٧.

٢ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريتها، ٢: ٦٢٧.

بينَ اليُونَان
والرُّومـان

لقد ظهر أثر الشرق، في ما يعود للوثنيّة، بصورة قويّة جدًّا، منذ الأمبراطوريّة الأولى، لكنّ البروز الأقوى كان في القرن الثالث حيث عرفت عبادات الآلهة الشرقيّين منتهى نجاحها. ونذكر على سبيل المثل عبادات إيزيس وسيبيل ولا سيّما ميترا، وهي العبادات الرئيسيّة، قد بلغت آنذاك أوج انتشارها الذي سهّله، لا تساهل الأباطرة فحسب، بل مشايعتهم الشخصيّة أيضًا. ففي السنة ١٩٧ أحيا سبتيمُس ساويرُس، في مدينة ليون، بتضحية ثور عظمي، في ذكرى انتصاره على كلوديوس ألبينُس. وشيّد ابنه كركلاّ، في روما، هيكلاً لسيرابيس، وجهّز معبدًا لميترا في ديامِيس، وأنشأ حمّاماتها العامّة. وغدا لقب ميترا (المنيع) لقبًا من الألقاب الأمبراطوريّة، ويتّضح من كتابة رسميّة تعود إلى عهد كليسيانُس أنّهم جعلوا من هذا الإله شفيع الأمبراطوريّة. وقد برز في القرن الثالث، بمزيد من القوّة، ميل إلى توحيد الآراء حظي بمساندة السلطة. فجسّده إيلاغابال تجسيدًا يستدعي السخرية باحتفاله بأبّهة بزواج بعل حمص، الذي هو كاهنه الأكبر وحمل اسمه، من سيليستيس أي تانيت التي استحضرها من قرطاجة. وكذلك فقد نقل إلى المعبد الذي شيّده لإلهه نارفيستا، وتروس مارس المقدّسة، وكعبة الأمّ العظمى، أي سبيل، التي أتى بها مجلس الشيوخ من بسّينونته إلى روما، في أواخر الحرب البونيقيّة... لكنّ الواقع، إذا ما وضعنا المستهجنات جانبًا، هو أنّهم رغبوا في التقريب بين الآلهة فوق رغبتهم في الإبعاد بينهم. ولعلّهم شعروا أيضًا بميل فطريّ إلى أن يقيموا، في وجه إله المسيحيّين، إلهًا واحدًا يجمع في ذاته كافّة الطاقات الكونيّة، وبحسب الفكرة التي كوّنوها عنه، كانت الغلبة لهذا الإله الخاصّ أو ذاك: كالشمس مثلاً، إمّا باسم أبّولّون، وإمّا مباشرة باسمها اليونانيّ: هيليوس، أو اسمها

اللاتينيّ سول، أو كجوبيتر وسيرابيس وميترا. وقد يحدث أن تُطلق عليه جميع هذه الأسماء في آن واحد. ومهما يكن من الأمر، فقد انتقلت الصفات الإلهيّة من لمعان وسيطرة على العلم كلّه، ومناعة، دون أيّ تمييز، من هذا الإله إلى ذاك، ونُسبت في آن واحد إلى الأمبراطور نفسه الذي غدا تجسيدًا لهذا الإله الكلّيّ القدرة على الأرض[1].

لم يرض أفلوطين الاعتراف بديانة لا تكون داخليّة. غير أنّ الأفلاطونيّة الحديثة، بما انطوت عليه من تعليم حول الأبالسة ومن تخلّ عن العقل، قد أفضت إلى نتائج بعيدة الأثر. فقد انضمّت إلى نزعات أخرى قديمة وكثيره تعهّدها واستغلّها ممخرقون عديدون. ولم يؤمن الإنسان يومًا، أقلّه في العالم اليونانيّ الرومانيّ، بمثل ما آمن به في هذا العهد من تأثير القوى الخارقة عليه تأثيرًا مباشرًا يوميًّا، أي العرافة والتنجيم والسحر والرقية. وكان من أهمّ فلاسفة الأفلاطونيّة الحديثة، "فرفوريوس الصوري"، ومعنى اسمه "المتجلبب بالأرجوان"، واسمه السامي الأصيل "ملك". وهو من مواليد مدينة صور في سنة ٢٣٣م، ويقول بعضهم إنّه وُلد في بثينة من أعمال جنوب حوران. وقد تلقّى العلم في صور ولكنّه أقام في روما التي شوّقته إليها شهرة أفلوطين المصريّ مؤسّس تلك الفلسفة التي تجمع بين خصائص الفلسفة الإغريقيّة وعناصر الفلسفة الشرقيّة، والتي عُرفت في ما بعد بالأفلاطونيّة الحديثة. وقد ظلّ فرفوريوس يعلّم في روما حتّى مماته سنة ٣٠٥م. وكان فضله أنّه جمع مقالات أستاذه أفلوطين الفلسفيّة وصنّفها حسب مواضيعها ورتّبها بشكل مجموعات أطلق عليها عنوان "التاسوعيّات Enneades" ونشرها. ولولاه لظلّ أفلوطين اسمًا مجهولاً[1]. وقد كان

١ - تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريتها، ٢: ٦٢٦.

٢ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص٢٤٨.

فرفوريوس مؤلّفًا كثير الإنتاج، فقد ذُكر لـه ٧٧ مؤلّفـا فـي الفلسـفة والنحـو والبلاغـة والحساب والهندسة والموسيقى[١].

من المؤلّفات الأدبيّة التي عرفت مزيدًا من النجاح حتّى أواسط القرن الرابع، "حياة أبولونيوس الثاني" التي وضعها معلّم البيان "فيلوستراتُس" بناء على طلب "جوليا دومنـا" امرأة "سبتيمُس ساويروس". فقد أظهر هذا البيثاغوريّ، الذي عـاش فـي عهـد نـيرون، وسـلالة فلافيـانُس، ليس فقط كزاهد يطبّق المبـادئ التـي وضعهـا مؤسّس المدرسـة وعزّزها أحيانًا بالإنقطاع عن أكل اللحم، وارتداء الكتّـان الـذي لا يداخلـه أيّ خـطّ مـن أصل حيوانيّ، والسير محتفيًا، وإرسال لحيته وشعر رأسه، والامتناع عن الكـلام طيلـة خمس سنوات، والتجوال في آسـيا الصـغرى وإيـران والهنـد ومصـر قبـل أن يقيـم فـي روما حيث دعا إلى عبادة الشمس وتعاليم حكمته، بل كعجائبيّ أيضًا يجترح المعجزات المدهشة وينفذ إلى أفكار البشر الخفيّة، ويفهـم لغـة البهـائم، وينبـئ بالمسـتقبل، ويشـفي العرجان والمخلّعين، ويوقف الأوبئة والزلازل.

نحو هذا الاتّجاه انزلقت الأفلاطونيّة الحديثة بتـأثير مـن خلَفَـي أفلاطـون فـي إدارة المدرسـة: بروفيرُس الصـوريّ، ولا سـيّما غمبليكُس السـوريّ مـن خلقيـس فـي عهـد قسطنطين. فقد صادق غمبليكُس ممتهني علم "هتافات الغيب الكلدانيّـة". ودرجـت عـادة الكلام عن "السحر" بدلاً من "اللاهوت" الذي لم يـفـِ بـالمرام، لأنّهـم لـم يكتفـوا بمعرفـة الآلهـة، بـل طمعـوا بـالعمل معهـم وبواسـطتهم وعلـى غرارهـم. فـبرز كهنـة أنشـأوا "مختبرات" أخرجوا فيها مشاهد خادعة أذهلت المبتدئين بما تخلّلها مـن أشـباح نورانيّـة وموسيقى وأصوات غير مألوفة وروائح عطريّـة وأبخـرة، وظـلال وتمـاثيل متحرّكـة،

---

١ - BIDEZ J., *VIE DE PROPHYRE* (GRAND, 1913) APPENDIX IV.

وأضواء متقلّبة. وممّن كانوا، في آن واحد، فلاسفة وسحرة يتمتّعون بكلّ سلطة وجاذب، ففي أفسس، علّم مكسيمُس، في أواسط القرن الرابع، أوّليّات أسرار هيكات التي تأثّر بها الأمبراطور يوليانُس، وقد ساعده على ذلك إلحاده، كما تأثّر بالتفسيرات التي قُدّمت له عن هذه الطقوس وهذه الرموز. وقد عرف يوليانُس في أثينا، بعد مرور عدّة سنوات، بريسكُس الذي كان شبيهًا بمكسيمُس. وربطته بكلَيهما، عندما أصبح أمبراطورًا، علائق صداقة كانت له جليلة الفائدة. فعندما علم بدنوّ أجله أخذ يتحدّث إليهما، من على فراش الموت، عن سموّ عظمة النفس[1].

مارس يوليانُس عبادة ميترا أيضًا؛ فَرُشّ بالدم لمناسبة تضحية ثور، وأُشرك في أسرار إيزيس. يتّضح من ثمّ أنّ الوثنيّة التي تخلّى من أجلها عن المسيحيّة لم يجمع بينها أيّ جامع قطّ، لأنّ أسرار الفسيس التي أُشرك فيها أيضًا لم تخلُ من الأنصار القدماء، وبين وثنيّة القرون الكلاسيكيّة العظمى التي ادّعى هو الاعتزاء إليها. فقد كان قوام وثنيّته دفقًا عاطفيًّا أمام سرّ الطبيعة العظيم، وقلقًا حيال خلاص نفسه، واندفاعًا نحو سعادة الخلود السماويّ. فشتّان بينه وبين بريكليس وأوغسطس وحتّى مارك أوريل الذين اعتقدوا بالخرافات، ولا ريب في ذلك، ولكنّهم وجدوا التهدئة بالخضوع لنظام الكون! غير أنّ وثنيّة يوليانُس هي وثنيّة عصره. فقد غدا أولو الفضائل العقليّة، من أمثال الأبيقوريّين، نادرين جدًّا، وأخذ الناس ينظرون إليهم نظرهم إلى الملحدين[2].

بيد أنّ يوليانُس والوثنيّين المثقّفين، قد طمحوا إلى الدفاع عن الحضارة اليونانيّة، حتّى بالخضوع إلى هذه النزعات، وباللجوء إلى علوم السحر والتنجيم. ففي لغة

---

١ - تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريتها، ٢: ٦٢٧ - ٦٢٨.

٢ - تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريتها، ٢: ٦٢٨.

الإنجيل نفسها تظهر المضادّة بين "هلّيني" و"يهوديّ"": ولم يكن المقصود آنذاك تعدّد الآلهة والتوحيد بقدر ما كان جهل شريعة موسى أو التقيّد بها. فلم تقم المعادلة بين هلّيني ووثنيّ إلاّ في العهد الأمبراطوريّ الثاني، وكان من استمرارها أنّ صفة "هلّيني" قد بقيت ازدرائيّة، في البلاد اليونانيّة وفي لغة العهد البيزنطيّ وما بعده أيضًا، حتّى تحقّق الإستقلال اليونانيّ في القرن التاسع عشر. وثابر يوليانُس بنوع خاصّ على إعطائها هذا المعنى الذي اعتبره تقريظيًّا إذ إنّه درج على تسمية المسيحيّين بـ "الجليليّين" قاصدًا بذلك "البرابرة"، بكلّ ما في الكلمة من معنى محقّر. غير أنّ قانونه حول المدارس، قد أعطى فكرة واضحة عن هذا الاستعمال لكلمة هلّيني". فليس هناك من مدلول عنصريّ أو لغويّ، بل مدلول ثقافيّ فقط. وإنّ ما ابتغى الوثنيّون إثباته هو إخلاصهم لمجموع تراث اضطرّ المسيحيّون لأن يميّزوا فيه بين المبنى الذي قد يثير إعجابهم، والمعنى الذي يرغمون على إهماله، ومردّ ذلك إلى أنّ الميثولوجيا المبنيّة على مذهب تعدّد الآلهة قد أشبعت الروائع الأدبيّة والفنيّة، مفخرة الحضارة اليونانيّة التي نشأت في اليونان وتبنّتها روما. وكان باستطاعة الوثنيّة، مهما طرأ عليها من تبدّل، أن تقبل بهذه الميثولوجيا، التي هي جزء لا يتجزّأ من تراث فريد لم ترفض منه شيئًا، واعتبرت من ثمّ أنّه وقف عليها. وهذه هي الفكرة الوثنيّة بعد موت يوليانُس، وبعد إخفاق آخر محاولة سياسيّة التفّ الوثنيّون فيها حول المغتصب يوليانُس. غير أنّ الحكومة الأمبراطوريّة أخذت على نفسها، منعًا واضطهادًا، القضاء على هذه الفكرة. فبينما لا يزال الوثنيّون المثقّفون الأخيرون منكبّين على علم اللغات في الغرب، نراهم، في الشرق، متغنّين بماضي اليونان العلميّ والفلسفيّ المجيد، ولا سيّما بأفلاطون، وبأرسطو عرضًا. بيد أنّ الأفلاطونيّة الحديثة واصلت تعاليمها، بصورة علنيّة، في مدرستَين مشهورتَين هما مدرسة الإسكندريّة ومدرسة أثينا. ويبدو أنّ الأولى، وهي

وريثة متحف البطالسة، قد حادت عن انحرافات غمبليكُس واهتمّت بالعلوم، أقلّه الرياضيّة منها. وخير من يمثّل هذه المدرسة هيباتيا الحسناء والفاضلة، ابنة الرياضيّ ثيون، ومؤلّفة بعض الأبحاث الرياضيّة. فقد تتلمذ عليها سينيزيوس، الذي ما انفكّ، على الرغم من سيامته أسقفًا، يعتبر نفسه "فيلسوفًا". لكنّ شهرتها أغضبت زعيم المسيحيّة في مصر، الأسقف كيرلّوس المتجبّر. فحدث في السنة ٤١٥، في أعقاب اشتباكات لم يلعب الوثنيّون فيها أيّ دور، أن قبض عليها بعض المتجنّين وقتلوها ضربًا بالقرميد ومزّقوا جثّتها وأحرقوها. فقرّر هذا الاعتداء مصير مدرسة الإسكندريّة. أمّا مدرسة أثينا فقد عاشت حياة أطول، ولكنّها لم تنفرد بشيء يميّزها، بل اكتفت بشرح آراء عظام المعلّمين. وعندما أمر يوستينيانُس بإقفالها في السنة ٥٢٩، لجأ أساتذتها الأخيرون إلى بلاد الساسانيّين[١].

١ - تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريّتها، مرجع سابق، ٢: ٦٢٩.

القِسمُ الثَّاني

دِيَانَاتُ الرُّومَانِيِّين

الإترُوسْك

تُطلق تسمية إيطاليا على شبه الجزيرة التي تقع بين البحر الأدرياتيكيّ والبحر التريني وجبال الألب، وقد عرف الإغريق هذا المصطلح الجغرافيّ واستعملوه بعد أن تسلّموه من إحدى اللهجات المحكيّة والوطنيّة المستعملة في هذه الرقعة من الأرض. إلاّ أنّ هيرودوس أطلق هذا اللفظ الجغرافيّ، لدى استعماله له، على مقاطعة كالابريا، دون سواها. وليس من الصعب أن نتتبّع توسّع مدلول هذا المصطلح، في المجال اليونانيّ أوّلاً، ثمّ في المجال الرومانيّ، بالنظر لظروف الفتوحات والمؤسّسات الرومانيّة المتتالية. وقبل عهد يوليوس قيصر بقليل، أي بعد منتصف القرن الأوّل قبل الميلاد، أُطلقت كلمة إيطاليا على شبه الجزيرة المعروفة بهذا الإسم اليوم، بما فيها سهل "بو Pô" حتّى حدود جبال الألب. وهذا التطوّر في مدلول المصطلح يمكن اتّخاذه رمزًا. ففي الوقت الذي بلغت فيه الحضارة اليونانيّة أوجها من الازدهار والتجلّي، لم تكن إيطاليا بعد "تعبيرًا جغرافيًّا". فقد استوطنتها شعوب وقبائل مختلفة الأصل والعرق، تتكلّم لهجات متباينة أصلاً وفصلاً، وتسير على نظم حضاريّة متباعدة. فإلى الحين الذين جعلت روما حقيقة واقعيّة لهذه البلاد، لم يكن لإيطاليا سوى وجود فكريّ أو عقليّ، في عرف الإغريق، حتّى أنّ الإيطاليّين أنفسهم، الذين لم يكونوا ليُعنوا إلاّ بشؤونهم الخاصّة، لم يكونوا ليفقهوا لجغرافيّة بلادهم معنى، ولا يرون لها أيّة وحدة طبيعيّة. إلاّ أنّ شعبًا واحدًا من شعوب تلك البلاد، لعب دورًا بارزًا في تاريخها. فكلّ الدلائل تشير

إلى أنّ حضارة زاهية قامت فيها وازدهرت، وأنّ فكرة وحدة البلاد أو توحيدها قد تكون جالت في خواطر هؤلاء القوم واتّجهوا في تحقيقها الاتّجاه السويّ. فما كان يطلّ القرن الرابع قبل الميلاد حتّى رأينا الـ"إتروسك Etrusques" يخلون مسرح التاريخ ويغيبون عنه إلى الأبد[1]. فمن هم الإتروسك؟

كان هذا الشعب يسمّي نفسه "راسنا"، وبهذا الإسم عرفه الإغريق والإيطاليّون. فالكلمة منحوتة من الجذر: "تورس Turs" الذي نجهل منه المعنى الصحيح. وهذا الجذر يبرز في الكلمات: Tyrsenoi و Tyrrhenoi. وهذه الكلمة لا تزال حيّة في المصطلح الجغرافيّ المعروف بـ "البحر التيريني". وهناك جذر Tusci، الذي يظهر في كلمة توسكانا Toscana و Etrusci. والتنويه بهذا كلّه يُبرز الشكّ الذي يعتري معلوماتنا حول شعب الإتروسك الذي ينسبه البعض إلى شعوب شماليّ أوروبّا، ممّن دخلوا البلاد عبر قسم جبال الألب المعروف بـ "الألب الرتّيك". والبعض الآخر يرى مع القدامى من المؤرّخين أنّ الإتروسك غزاة فاتحون خرجوا من آسيا الصغرى واستقرّوا بعد تطواف في أرجاء شتّى من البحر المتوسّط، حيث حطّوا رحالهم، ربّما في أواخر القرن الثالث أو مطلع الألف الأوّل قبل الميلاد. ومن البديهيّ ألاّ يكون بين أصحاب هذَين الرأيين مَن يفترض فناءً جذريًّا أو جلاءً كاملاً للشعب أو الشعوب التي استباح الإتروسك أراضيهم، إذ إنّ غزوًا يأتي من البحر لا يمكن أن يزحزح أو يقتلع من أمامه سوى عدد محدود من السكّان؛ ففرض الغزاة عندما استقرّ لهم الأمر، على القسم المغلوب على أمره، نظامهم السياسيّ ولسانهم وعاداتهم. ويرى فريق ثالث أنّ طلوع المدنيّة الإتروسكيّة وازدهارها إنّما هو حصيلة تطوّر وتدرّج من الداخل، بينما أخذت المدنيّات

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريتها، ٢: ١٧ ـ ١٨.

الإقليميّة أو المحليّة التي كانت قائمة على سواحل البلاد، تتدرّج وئيدًا وتتطوّر الهوينــا، بفضل اتّصالاتها البحريّة بـأقوام البحـر المتوسّـط الشـرقيّ، مستغلّة مـا تفيضـه عليهـم التربة من الخامـات المعدنيّة كـالحديد والنحـاس. فالإتروسك، والحالـة هـذه، إنّمـا هـم أصيلون بقدر ما يمكن نعت شعوب إيطاليا قديمًـا بهذا الوصـف، وليسـوا مطلقًـا غـزاة طوارئ اغتصبوا البلاد في بداءة التاريخ في شبه الجزيرة الإيطاليّة والحقب التاريخيّـة التي تلتها.

ثمّ عاد الجدل من جديد حول أصل هذا الشعب، في القرن الثامن عشر ومـا بعـده، عقب العثور على النماذج البديعـة التـي خلّفهـا الفـنّ الإتروسـكيّ. والقـول بـأنّ أكثريّـة علماء العصر يأخذون بالنظريّة التـي تغلّـب الأصـل الشـرقيّ للإتروسك وترجّحـه، لا يوجب الإقناع أو الأخذ به، إذ إنّ معضـلات مـن هـذا النـوع لا تُحلّ بـالاقتراع وعـدد الأصوات. فهنالك اليوم علماء بارزون يتبنّون هذا أو ذاك من الرأيين المعارضَين لهذه النظريّة. فمن الأفضل، والحالة هذه، الوقوف إلى جانب هـذه الملاحظـة، مـع العلـم أنّ الوضع الحاليّ الذي تدعمه الاكتشـافات الأثريّـة والمناقشـات العلميّـة، والبـراهين التـي تؤيّد المنبت الشـرقيّ للإتروسك، تبدو بالنسبة لغيرها، أكثر انسجامًا وأقلّ عرضـة للنقـد من سواها[1].

بين القرن العاشر على الأبعد، والقرن السابع قبل الميـلاد، وهـو التوقيت الزمنـيّ الخاصّ للإتروسك الذي تحدّده النظريّات الثـلاث، نـرى هـذا الشـعب ذا نظـام قـائم، إذ سيطر على رقعة من الأرض تقع بين البحر التـيريني ونهـرَي الأرنـو والتيـبر. وعلـى هذه الرقعة أنشأ الإتروسك عددًا من المدن، أقدمها عهدًا وأنشطها طرًّا تلك المدائن إلى

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريّتها، ٢: ٢٥.

الجنوب، على شواطئ البحر، بينما تلك التي قامت في داخل مقاطعة أتروريا الشماليّة لم يبرز لها نشاط إلاّ بعد ذاك. وقبل غروب القرن السابع، سيطر الإتروسك على ثغور نهر التيبر ومعابره، وذلك باحتلالهم موقع روما، وبهذا أقاموا لهم رقبة جسر نحو اللاتيوم وإيطاليا الجنوبيّة. وفي القرن السادس عشر احتلّوا مقاطعة كمبانيا حيث أسّسوا مدينة "كابو" الشهيرة، واستطاعوا أن يقيموا بيهم وبين فريق من الإغريق من سكّان مدينة "بوزيدونا" المعروفة اليوم باسم "بيستروم" حالة من التفاهم والرضى، وذلك لاستثمار مرفأ المدينة الشهير، الذي جعل منها ملتقى للطرق البحريّة التي ربطتها بخليج ترانت عبر جبال البروتيوم. فكانت بوزيدونا بمثابة البوّابة الإغريقيّة لمقاطعة كمبانيا الواقعة تحت الإحتلال الإتروسكيّ. وكان الإتروسك شعبًا محاربًا اتّسم تاريخه بالفتوحات المتتالية التي ساعدتهم على اجتياز سلسلة جبال الأبنين واحتلال مدينة فلسينا، والسيطرة على معظم القسم الشرقيّ من مجر نهر "بو" بما فيه ساحل البحر الأدرياتيكيّ إلى الجنوب من مصبّ نهر الأديج.

ممّا لا ريب فيه أنّ المجتمع الإتروسكيّ مجتمع أرستقراطيّ الطابع. يشهد على ذلك ما نراه من مظاهر الغنى والبذخ، التي تتكشّف عنها معالم قبور القوم ومدافنهم إذا ما قارنّاها بالمقابر المتواضعة لجمهرة السواد. وقد سار الإتروسك في بدء أمرهم على نظام ملكيّ، وليس معروفًا إذا كانت الملكيّة وراثيّة أو انتخابيّة لمدى الحياة أو لمدّة معيّنة. وأُحيط الملوك والقضاة، في هذا المجتمع، بمراسم عظيمة من التكريم والتبجيل والتعظيم، سرت في ما بعد، إلى الشعب الرومانيّ الذي سار عليها[1].

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريّتها، ٢: ٢٨ ـ ٣٠.

ديانـــــة

الإتروسك

من مميّزات الإتروسك تضلّعهم بأمور الدين، والامتثال الحرفيّ لوصاياه ونواهيه. وإذا وقفنا عند بعض أسماء آلهتهم، وجدنا أنّ بينها ما هو إتروسكيّ محض مثل الإله "تين Tin" الذي يرادف الإله جوبيتر، والإله "طوران Turan" الذي يوازي الإلهة فينوس أو الزهرة. وتقوم بين مسميّات هذ الآلهة من المواصفات المتشابهة ما يشير إلى أصلها الإغريقيّ اللاتينيّ. وبعض الآلهة الأخرى، أمثال: "أوني Uni" أو "غينون"، و"مينرفا"، و"ماريس" أو "مارس"، هي إيطاليّة الأصل أو المصدر، أو بالأحرى كيّفها الإتروسك بعد اقتباسها بحيث برزت إيطاليّة الوضع أو المنشأ. بينما هنالك آلهة أخرى مسميّاتها إغريقيّة الأصل جرى اقتباسها رأسًا من الإغريق، منها مثلاً "هرقل Hercle" أو "هرقليس" الذي له شأن أكبر عند الإتروسك منه عند اليونان، بينما الإله "أبولّو" وشقيقته "أرتوم Artume" أو "أرطميس"، لم يطرأ عليهما، لدى اقتباسهما، أيّ تعديل أو تبديل. أمّا مناقبيّة هذه الآلهة والصور المشبّهة لها والأساطير المتناقلة بشأنها، والأقاصيص المرويّة عنها، ففيها تباين عظيم بين قطر وآخر. ومن الخير والمفيد جدًّا أن يقوم مَن يتصدّى لشرح الوثائق التي تمتّ إليها ويحدّد منها التاريخ الصحيح. فالمصادر التي نعوّل عليها هي متأخّرة جدًّا وتشهد عاليًا بعمليّة الهلْيَنة، والتأغرق التي خضعت لها، وهي عمليّة تمّت تدريجيًّا وعلى مراحل، على ضوء الصور والرسوم التي ألهمتها وأوحت بها ديانة اليونان وأساطيرهم[1].

---

١ - تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريّتها، ٢: ٣١.

ممّا يميّز الإتروسك، بالنسبة للأقوام الغربيّة على الأقلّ، ومـن وجهـة الديانـة التـي تمـتّ بـأكثر مـن سـبب إلـى ديانـة بـلاد مـا بين النهرَيـن، هـذا الخضـوع والخشـوع والاستسلام المطلق لمشيئة القوى العليا التي تحرّكها مقاصد خفيّة. فالإنسان في ضعفه المتناهي، لا سبيل أمامه إلاّ الإستبانة عن هذه الإرادة والكشف عنها لئلاّ يأتي عملاً لا تكون راضية عنه، وأن يبذل، في جميع حالات الشكّ وقلّة اليقين، كلّ شيء في سبيل استمالتها وكسب رضاها. كلّ الظواهر الخارجيّة هي، من حيث المبدأ، إعلان عن أمر ما، وإيذان له، بشرط أن نتبيّنه ونحسن تفسيره وتأويله. فجميع ظاهرات هذا العالم تترابط، والحالة هذه، في ما بينها وتتماسك بقوّة؛ ومدلول كلّ ظاهرة لا بدّ أن يتعدّى بكثير المسبّبات، مهما بدت طبيعيّة. ففي ردّ الأسباب إلى أصولها الصحيحة، تعبير عن رغبة الآلهة في تحذير البشر منها وإنذارهم بشرّها. وهذه الإنذارات تبرز بأجلى بيان يمكن للإنسان أن يتصوّره، بواسطة الصواعق والرعود. غير أنّ أيّ ظاهرة طبيعيّة أخرى، مهما دقّ شأنها، يغاير مظهرها النظام الطبيعيّ للأشياء، عدّها الإنسان من الخوارق وتطيّر منها. وهنالك علامات وإشارات لا يمكن أن يتبيّنها الإنسان ويفقه معناها ومدلولها إلاّ بعد جهد وعناء وبحث واستقصاء. وهذا البحث هو على نوعَين: الأوّل زواجر الطير، كطيرانه من جهة معيّنة من الجوّ وفقًا لمواصفات دقيقة تلامس الاتّجاه وتطبعه. والثاني هو فحص أحشاء الذبائح، ولا سيّما الكبيرة منها، وموضع أجزائها الدقيق، إذ إنّ كلاًّ من هذه الأوضاع يرمز إلى إله معيّن من الآلهة، كما يشير بالتالي إلى ما هو وضع هذا الإله من الرضى أو عدمه. كلّ هذه الأشياء والأمور تفرض وجود علم بأصول، لا يُحسنه إلاّ الضالعون منه، المتمكّنون من أسراره. وكشف الغيب اختصاص يقتضي له التمرّس الطويل بأحكام تقاليد العبادة والكتب الدينيّة. فإذا ما روجعت هذه الكتب في الوقت المناسب، وجد فيها مَن يحسن قراءتها

وتفسيرها واستنطاق رموزها، الجواب الشافي على كلّ ما ترغب الآلهة فيه، كما يقف منها على الأساليب والطرق والأعمال التي يتوجّب على الإنسان أن يتقيّد بها بكلّ دقّة. ويكفي الإنسان أن يتمسّك حرفيًّا بهذه المراسم ويطبّقها بنصّها حتّى يخامره الأمل بإمكان التأثير على هذه القوى العليا التي بيدها مصيره. ويرافق عمليّة الكشف عن رغبة الآلهة ومقاصدها الخفيّة والبعيدة عن إدراك البشرّ، القيام بعدد لا يُحصى من الأدعية والابتهالات والتضرّعات والإشارات التي لا بدّ من الإتيان بها على نحو معيّن. فقد تركت لنا هذه الكتب وصف المراسم الدقيقة التي يجب التقيّد بها عند إنشاء أو تأسيس مدينة ما، واتّجاه الشوارع وتقاطعها عموديًّا، وكيفيّة طمر القرابين في حفرة معيّنة، ومدى الدائرة المقدّسة التي يجب رسمها على المكان الذي تنشأ عليه هذه المدينة، تشقّها سكّة محراث، باستثناء مواقع الأبواب الخارجيّة. أمّا بشأن ما يترتّب على الإنسان من أعمال وتصرّفات بعد كشف الطالع، فهناك عدد كبير من المراسم والمناسك والحركات المختلفة، عليه أن يتمّمها ويتقيّد بأصولها وأحكامها وفقًا لتعليمات الكهّان وإرشاداتهم، ووفقًا لمناهج لا يصحّ الخروج عليها، من قرابين وأضاحٍ وتكريسات، وولائم تُقام على شرف تماثيل الآلهة وأنصابهم. ومن الطبيعيّ أيضًا أن تجري خصوصيّات الحياة وفقًا لمراسم دينيّة دقيقة، فيحمل الناس التعاويذ والطلاسم التي يَرِد معظمها من مصر. والسير وفقًا لهذه الاعتقادات يفضي بالمرء إلى النجامة والمجوسيّة، كما يظهر من بعض الآثار التي وصلت إلينا من ذلك العهد. غير أنّ قلّة المصادر تحول دون وصف هذه المراسم بالتفصيل، ولا تستفيض إلاّ بذكر المراسم والاحتفالات الخاصّة بممارسة الوظائف الرسميّة العامّة التي انتقلت بحذافيرها إلى روما، لدى اقتباسها النظم السياسيّة التي اقتبسها عن الإتروسك، والتي تؤلّف معها قسمًا متمّمًا لها. فإنّ الطلاسم والحيوانات المؤلّهة التي كان يحملها قضاة

روما، هي إتروسكيّة الأصل، كذلك الاحتفالات الصاخبة التي كانت تُقام في طول البلاد وعرضها بمناسبة الظفر والنصر في الحروب، وعلوم الفأل والعصا المعقوفة التي كان يستعملها العرّافون في كشف الطالع، وعادة فحص أمعاء الذبائح وأحشائها، وعادة التسليم بالخوارق وكلّ المراسم والتوسّلات التي يجب الاعتصام بها لإبعادها وإبعاد المصائب التي تجرّها. فالاحترام المقرون بالإعجاب الذي كان يكنّه الإتروسك للنظام ولعلوم الدين، كان الباعث الأوّل على الاحتفاظ بعلوم الدين وعلى نقلها للغير [1].

ويقول باحثون إنّ الكشف العلميّ عن القبور ونبش ما كانت تحويه من تزاويق وأمتعة ومفروشات، قد ساعد على تكوين صورة عن فكرة الموت والحياة الأخرى عند الإتروسك قديمًا. فالكلّ كان يعتقد بالحياة والبقاء بعد الموت. وكان الأحياء يحاولون تعويد الناس على فكرة الموت عن طريق الجنائز ومراسمها، وعن طريق إقامة المآدب والملاهي، وحرصهم على حفر صورة الميت وزوجته على الضريح، محاطين بكثير من الحاجيات المنزليّة كالأسلحة والحلى وما شاكل. وإنّ إيجاد الجوّ العائليّ في القبر يجعل المزء يعتقد أنّ الميت إنّما هو حيّ، يعيش بعد، وبالتالي فما من واجب أو داعٍ قطّ للأسف والاسترسال للحزن العميق، كما توحي بذلك الرسوم القديمة التي تغطّي جدران القبور. وقد سار الناس طويلاً على عادة فرش القبور وتأثيثها بالحاجيات المنزليّة. إلاّ أنّنا نرى منذ القرن السادس فكرة جديدة تبرز، ولا تلبث أن تتحكم بالأذهان منذ القرن الرابع. فمن النظر مليًّا في الرسوم القريبة يتّضح أنّ جميع الموتى، حتّى مَن كان بينهم من ذوي الجاه ورفعة الشأن، هم في سبيل رحلة طويلة بعيدة في

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريتها، ٢: ٣٢ ـ ٣٣.

مملكة الظلام، وهي رحلة تبعث الأسى الشديد في النفس، يدفعهم أبالسة تصطكّ لمنظرها الفرائص، وقد انخطف منها اللون وشحب المنظر وكشّرت عن أنياب حادّة، أجسامها مزيج من أعضاء الإنسان والحيوان، لها من الطيور الخواطف مناسرها الحادّة، ومن الحصان أو الحمار أذنه، حاملة بأيديها مطرقة لتوجيه ضربة قاضية إلى المسافر. وها هو عزرائيل Charun يخطف الميت من بين ذويه فتتراكض الأفاعي والثعابين منسابة حوله تفحّ في أذنه.

فالأثر الهلّنستيّ يبدو واضحًا في بعض هذه الأفكار، كما يبدو جليًّا في ميثولوجيّة جهنّم. وأسماء ملك مملكة الظلام وزوجته "فرسبناي Phersipnai" عند الإتروسك هي نفسها عند الإغريق وهما "هاديس" و"برسفوني". فإذا كان "Charun" ملاك الموت عند الإتروسك، يأخذ اسمه من Charon ملك الموت عند الإغريق، وعابر الأرواح فوق نهر "الستيكس Styx"، وهو النهر الذي يحيط سبع مرّات بجهنّم حسب معتقدات الإغريق، يتلبّس عند الإتروسك دورًا وصِفات مخيفة. وهؤلاء الأبالسة والشياطين الذين قال الإتروسك بوجودهم ونقلوا الاعتقاد بهم عن أساطير الشرق، إنّما دخلوا الميثولوجيا الإتروسكيّة عن طريق الإغريق. فروح التسليم والخضوع التي كانت تلطّف عند الإغريق من لوعة المحتسب أو المفجوع بأحد أعزّائه، تختفي تمامًا عند الإتروسك ليحلّ محلّها عند الميت، روح متشائمة تعكس تمامًا صورة حياة بشريّة حطّمتها قوى غاشمة لا تلين.

أمّا قبور الإتروسك، فهناك منها أنواع شتّى للأغنياء، منها ما نُقش في قلب الصخر الصلد أو تمّ بناؤه، تنتظم حجراتها أمام ممرّ، أو تأتي على طراز منزليّ عاديّ. وهناك قبر عُثر عليه بالقرب من "شرفتري Cervetri" بلغ قطره ٤٨ مترًا، أُقيم فيه خمس ممرّات، تمرّ من الخارج إلى الداخل، ثمّ يبتدئ ممرّ سادس، مستدير الشكل،

هو الممرّ الوحيد الذي يبدو أنّ اللصوص ونبّاشي القبور احترموه لأنّهم لم يدروا به، فلم ينهبوه. والقبر المذكور استُخدم مدفنًا لأسرة كبيرة طوال قرنَين من الزمن، أي من القرن السابع إلى الخامس قبل الميلاد. وقد استخرج منه المنقّبون هيكلَين عظميَّين لبعض الأرستقراطيّين، وجرّة قبريّة متواضعة الشكل، وغير ذلك من الحليّ والذهب والبرونز[1].

كان الهيكل التوسكانيّ يتألّف عادة من ثلاث حجرات، وهي هندسة كانت تتكرّر عمليًّا في كثير من الهياكل، منها هيكل جوبيتر الكابيتوليّ في روما، حيث نجد هذا الإله يعتمد على الإلهَين جونو وميترفا. ولكنّ آلهة الإتروسك لا تؤلّف دومًا ثالوثًا واضحًا، كما أنّ بعض هياكلهم كانت تتألّف من حجرة واحدة. فإذا كان تأثير الهيكل الإغريقيّ يبدو واضحًا، فالهيكل الإتروسكيّ يبدي مع ذلك بعض الفروق. من ذلك مثلاً أنّه يقوم على قاعدة حجريّة عالية، كما أنّ بوّابة المدخل الرئيسيّ تقوم فوق أعمدة؛ وهي بوّابة ضخمة لا تزدان بشيء من النصب والتماثيل قبل القرن الرابع. والهيكل الإتروسكيّ، كالإغريقيّ، كانت مادّته من الخشب، أقلّه الأعمدة والسقف، إلاّ أنّه أطول بكثير من الهيكل الإغريقيّ. ولكي يحفظوا الخشب ويصونوه حيثما برز وظهر، كانوا يغطّونه بقوالب من التراب المشويّ يحلّونها بالنقوش والألوان. وقد سار الإغريق على هذا النهج أيضًا. على أنّ مساحة الهيكل المغطّاة بهذه القوالب، عند الإتروسك، كانت تتطلّب الكثير من القوالب وعناءً كبيرًا في التزويق. فالإتروسك يعتمدون هذا الفنّ بمعزل عن التصميم الهندسيّ، ولم يلبث أن أصبح عندهم أبرز معالم النقش، وأعطى آثارًا رفيعة من الدرجة الأولى، أشهرها على الإطلاق، تمثال الزهرة "فينوس" في

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريّتها، ٢: ٣٤.

مدينة "فايي Veies" الذي كان يؤلّف جزءًا من مجموعة فنيّة لها مقاييس الإنسان الطبيعيّة. وتمثّل إحدى أساطير "دلفي" التي تروي حكاية شجار أبّولّو وهيرقليس بشأن الظبية ذات الرجل النحاسيّة، وذلك على مرأى ومشهد من أرطميس وهرمس. وبين الآثار التي اكتُشفت أيضًا في هذا المعبد، معالم تنمّ عن وجود فئات أخرى. ومن الممكن جدًّا أن يكون ناحتُ تمثالِ أبّولّو إغريقيًّا، إلاّ أنّه من الأرجح أن يكون إتروسكيًّا، إذ لا يزال التاريخ يتحدّث عن شهرة معامل مدينة "فايي" ومهارة صنّاعها، بينهم "فولكا Vulca" الفنّان الإتروسكيّ الوحيد الذي احترم التاريخ اسمه، فاستدعته روما ليشارك ويعاون في تزيين تمثال جوبيتر الكابيتوليّ الذي يمكن أن يضاهي أبرز الآثار الإغريقيّة في ذلك هذا العهد، أي في أواخر القرن السادس ومطلع القرن الخامس قبل الميلاد، ذلك لِما في حركة الجسم من حيويّة ونشاط، ولِما تفتر عنه البسمة من إغراء، ولِما عليه من نظرة مثيره تشعّ على الوجه كلّه. وهذا التمثال يبزّ بكثير التماثيل الأخرى التي تمثّل الرجال والنساء متّكئين إلى موائد الولائم، أو تغطّي وجه بعض النواويس أو الحجرات القبريّة[1].

إلاّ أنّ القرن الخامس قد شهد مشاكسات سياسيّة واصطدامات حربيّة بين الإغريق والإتروسك، وعرفت كلّ إيطاليا الإتروسكيّة إذ ذاك، أزمة حربيّة وسياسيّة تركت أثرًا بعيدًا في حياة البلاد الاقتصاديّة. فأزمة النظام الملكيّ في روما، ونهاية السيطرة الإتروسكيّة وقعتا في وقت واحد، أي في أخريات القرن السادس. وحاولت مدينة "فايي" التحكّم بمعابر نهر التيبر. فنتج عن هذا حروب طويلة ومواثيق عدّة تكرّر عقدها، إلى أن انتهت الحرب بعد قرن ونصف بسيطرة روما على مقاطعة أرتروريا.

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريتها، ٢: ٣٤ ـ ٣٥.

في المقابل كانت المعارك تدور على ساحل مقاطعة كمبانيا بين الإتروسك وبين سكّان مدينة سيراقوزة الإغريق الذين هبّوا لمساندة بني قومهم سكّان مدينة "كوم Cumes"، وانتهى القتال بعد أن زال أسطول الإتروسك وعمارتهم البحريّة، وذلك في حوالى العام ٤٧٤ قبل الميلاد، ما ساعد الإغريق على احتلال جزيرة ألبا، وإنشاء موطن لهم في جزيرة كورسيكا وعلى ساحل البحر الأدرياتيكيّ الشماليّ. وتمّ عزل مقاطعة "كمبانيا" ومُنع اتّصالها بالبحر، إذ كانت روما تسدّ المنافذ إليها؛ ومن البرّ، وقعت غنيمة في أيدي السمنيّين الذي انحدروا إليها من جبال الأبنين، واستولوا على مدينة "كابو" في منتصف القرن الخامس. وتلاشت السيطرة الإتروسكيّة في سهل "بو" إثر غزو الغاليّين لهذه المنطقة، وأصبح اسمها منذ ذلك الوقت "بولونيا"، وما لبثت أرترورِيا نفسها أن وقعت تحت سيادة الرومان وسيطرتهم. لكنّ الإتروسك صمدوا، وأعادوا لمدينتهم زهوها وحيويّتها ونشاطها في القرن الرابع، عقب زوال سيطرة سيراقوزة التي أقام الطاغية دنيسيوس دعائمها، وقد عَرف بقوّة شكيمته أن يوسّع من آفاقها. لكنّ الأزمات والحروب التي خاضها الإتروسك ضدّ جيرانهم فتكت بهم وأضعفتهم، فسيطر على نفوسهم التشاؤم. وبعد أن رسخت سيادة روما أخذت حضارة الإتروسك تأفل تدريجًا لتزول تمامًا مع ظهور المسيحيّة[1].

١ - تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريتها، ٢: ٣٦ - ٣٧.

رومَا

تأسّست روما في أواسط القرن الثامن قبل الميلاد، على ضفّة نهر التيبر في وسط إيطاليا. ونمت حتّى أصبحت مدينة دولة. واعتمدت نظامًا تربويًّا وأخلاقيًّا فرض قواعد صارمة في العمل والقيم الأخلاقيّة. فأصبح أهل روما شعبًا نشيطًا، يعمل بإخلاص، ويحتمل التعب والقساوة، ويعيش بتقشّف، يُخلص لمدينته ويموت لأجلها. وبهذه القيم أصبح الرومان شعبًا عظيمًا، وسيطرت روما على إيطاليا بكاملها، ثمّ على المتوسّط الغربي، فالمتوسّط الشرقيّ. وبنت أمبراطوريّة واسعة، وأعطت حضارة راقية، ما زالت معالمها بادية حتّى عصرنا. فإذا تحدّث العالم عن الأعجوبة اليونانيّة، فبإمكانه أيضًا أن يتحدّث عن الأعجوبة الرومانيّة اللاتينيّة.

أقام اللاتين في سهل "لاسيوم" جنوب نهر التيبر، وهم من الشعوب الهندو أوروبيّة، يتّصفون بالنشاط وبإتقانهم فنون القتال. عاشوا من الزراعة وتربية الماشية، وبنوا القرى والمدن وأهمّها مدينة "ألب Albe". وفي حوالى ٧٥٣ قبل الميلاد، أسّسوا مدينة روما. وقد وصف الشاعر "هوراس" والمؤرّخ "تيت" تأسيسها فقالا: "إنّ البطل "إنّي Enée" نزح من طروادة، وأقام في ألب، وأصبح ملكًا. وإنّ ملكًا من أحفاده رُزق توأمَين خاف عليهما من غدر أخيه، فوضعهما في سرير وألقى به في نهر التيبر. فقذف بهما النهر إلى الحافّة، فأرضعتهما ذئبة، واحتضنهما الرعاة. ولمّا كبرا، أسّسا مدينة روما. ثمّ اختلفا، فقتل "روملُس" أخاه "ريمُس" وانفرد بالعرش، وتوارث أبناؤه

السلطة، حتّى سيطر شعب الإتروسك على روما سنة ٦٥٠ قبل الميلاد، واستمرّ النظام الملكيّ. ونمت المدينة حتّى أصبحت أعظم مدن اللاتين. فحاربت شعب الإتروسك واستقلّت سنة ٥٠٩ قبل الميلاد، بعد أن حكمها تسعة ملوك أوّلهم روملس وآخرهم "تركينُس المتكبّر Tarquin le Superbe". وقد أخذت روما من حضارة الإتروسك، واتّصلت باليونانيّين جنوب إيطاليا وبالقرطاجيّين، وتعلّمت حضارتهم، لا سيّما الأبجديّة. وألغت الملكيّة وأسّست الجمهوريّة. وأنشأت جيشًا قويًّا، وما لبثت تحارب الشعوب حتّى سيطرت على إيطاليا بكاملها.

عندما تخلّصت روما من حكم الإتروسك كانت مدينة صغيرة، سوّرت نفسها بسور منيع، وأعدّت جيشًا ودرّبته، وكان لأبنائها أخلاق قويمة فهم مواطنون صالحون، ومحاربون أشدّاء. بدأت تتوسّع، فسيطرت على القبائل اللاتينيّة، وانتصرت على مدينة "ألب"، وحاربت السمنيّين حتّى سيطرت عليهم، وامتدّ نفوذها حتّى البحر الأدرياتيكيّ سنة ٢٩٠ قبل الميلاد. وحاربت الإتروسك مدّة طويلة، عرفت في خلالها النصر والهزيمة لكنّها لم تيأس. بل تابعت القتال حتّى انتصرت نهائيًّا عليهم. كذلك قاتلت الغالبيّين، وسيطرت على معظم شبه الجزيرة الإيطاليّة من نهر "أرنو" شمالاً حتّى حدود اليونان الكبرى جنوبًا. وأصبحت إيطاليا بيد ثلاثة شعوب قويّة هي: الرومان، واليونان، والقرطاجيّون.

كانت المدن اليونانيّة في اليونان الكبرى، جنوب إيطاليا، على مستوى حضاريّ كبير. إنّما كانت على خلاف دائم في ما بينها، فحاربتها روما وسيطرت على معظمها، لكنّ مدينة ترانت استعانت بملك الأبير، بيرُس، فقاد جيشًا قويًّا واجتاز البحر الأدرياتيكيّ، ووصل إلى جنوب إيطاليا، وقاتل القرطاجيّين والرومان وأحرز انتصارات كبيرة، وسيطر على صقليّة بكاملها. وتعاونت قرطاجة مع روما وقدّمت لها

الأسطول. واختلف بيرُس مع مدينة ترانت، وانهزم في معركة "بِنِفان Bénévent" سنة ٢٧٥ قبل الميلاد، ورجع إلى بلاده فانتصرت روما على مدينة ترانت. وبهذا النصر أتمّت روما بين سنتَي ٥٠٩ و٢٧٥ قبل الميلاد السيطرة على شبه الجزيرة الإيطاليّة بكاملها[1].

الدّيانَــة الأولَــى

وآلهة الإختِصاص

إستطاعت روما أن تضفي على الاحتفال بعباداتها فخفخة ما كان للعالم اليونانيّ ليستطيع مضاهاتها. لكنّ العالم اليونانيّ قد برهن عن تفوّق واضح في كلّ ما لم يكن ثروة ماديّة، أي في الفكر والعاطفة الدينيّة والذوق في مظاهره الخارجيّة. وكان من الممكن أن يبدي الرومان، مقاومتهم لكلّ جديد. لكنّ مفهومهم الواسع للإلهيّات لم يكن ليقبل بهذا التعصّب. ولعلّهم شعروا أيضًا، شأن آدميّين كثيرين، بحاجة إلى شيء آخر، هو القناعة العاطفيّة والفكريّة والجماليّة التي لم توفّرها لهم عباداتهم الخاصّة. ولم يبلغ بهم الأمر، في عهد الجمهوريّة، أن يسمحوا بتفتّح التقوى الفرديّة في صوفيّة حارّة متحرّرة من شتّى ضروب الضغط. فقد حرصت الدولة على الاستمرار في التنظيم والرقابة. بيد أنّها قبلت بعبادات وطقوس غريبة دون أن تعي أنّها بذلك تفتح، للمستقبل، أبواب المدينة لحصان طروادة. والدليل على أنّها قامت بذلك دون جزع وتردّد، أنّ الاقتباسات الأولى قد حصلت في عهد مبكّر جدًّا. ولم يتمّ ذلك باتّصال مباشر باليونان نفسها، بل عن طريق الإتروسك والشعوب الإيطاليّة حيث تركت الحضارة اليونانيّة

---

١ ـ أبي فاضل، موسوعة عالم التاريخ والحضارة، ٢: ٧ ـ ١١.

أثرًا عميقًا لا سيّما في الإتروسك. أضف إلى ذلك أنّ هذا الأثر قد صادف، في روما، أرضًا خصبة متمثّلة بالجماعات الهندو أوروبيّة المنشأ التي كانت لها بعض النزعات الدينيّة. واقتصرت السيطرة على كمبانيا في القرن الرابع، وعلى كافّة أنحاء إيطاليا الجنوبيّة في القرن الثالث، على تسهيل استمرار تسرّب، تعود بدايته إلى ما قبل التاريخ، أي أنّه سابق للوقت الذي كان باستطاعة روما فيه، حين وعت قوّتها، أن تحاول، بدافع الكبرياء، مقاومة تقليد المغلوبين.

إعتبر باحثون[١] أنّه ليس في أيّ مكان غير روما ما يفرض بمزيد من الاقتناع، المقارنة المؤثّرة بين النزعات الدينيّة في شعوب العصور القديمة، ونزعات شعوب اليوم المختلفة. فعلى غرار هؤلاء ألّه الرومان الأوّلون القوّة الحيويّة والطاقة الخفيّة والقوّة التي تتحكّم بالعمل وتحقّقه، سواء كان هذا العمل بشريًّا أم مستقلاً عن الإنسان: والعامل، يد أو شيء جامد، وهو غير منظور أحيانًا، لا قدرة له بدون الإرادة التي تستخدمه لعملها. فهذه الإرادة إذن، أو أيّ إرادة غيرها تناهضها، هي التي يتوجّب على الإنسان أن يحاول استمالتها حتّى تنفعه إذا كانت متعطّفة، وحتّى يبطل أذاها إذا كانت مضرّة.

إنّ هذا الاعتقاد الذي استمرّ حيًّا، يفسّر ميلاً طبيعيًّا دفع الرومان إلى أن يكرّموا آلهة أو عفاريت، تدير هذه الأعمال، أقلّ عمل، لا بل أقلّ مرحلة من مراحله. فقد اعترف الرومان بعدد لا يُحصى من "القوى" أو الإرادات، وخصّوها بحركة احترام أو تقدمة أو صلاة قصيرة: فالطفل يرضع بفعل قوّة من هذه القوى، ويشرب ويأكل بفعل غيرها، وتقوم "قوّة" بالحراثة الأولى، وغيرها بالحراثة الثانية وقلب الأرض ونزع

---

١ - تاريخ الحضارات العام، روما وامبراطوريتها، ٢: ١٩٩.

الأعشاب، وتقوم "قوّة" بتنمية نبتة الحنطة، وأخرى تعطي الحبّة غلافها... إنّ هذا الاستعداد العقليّ الذي لم يتلاشَ في يوم من الأيّام، قد أدّى بسرعة إلى تأليه مجرّدات هي خاصيّات رمزيّة لبعض الآلهة، ثمّ أفضى ظهور الفلسفة إلى اعتماد هذه الطريقة اعتمادًا متزايدًا: فكان لـ"كونكورديا" معبدها منذ السنة ٣٦٧ قبل الميلاد، ولـ "ليبرتاس Libertas"، أي الحريّة، معبدها أيضًا في سنة ٢٣٨، ولـ"هونُس" أي الشرف، و"فيرتُس" أي الفضيلة، معبداهما في سنة ٢٣٣... ولم تمنع هذه النزعة المزدوجة إلى تعميم ما هو إلهيّ وتجزئته إلى ما لا نهاية له من اعتبار أنّ بعض "القوى" أعظم شأنًا من غيرها. ومن البديهيّ أنّ تسلسل مراتبها قد اختلف باختلاف الأوساط الاجتماعيّة وباختلاف الزمان. ويثير اكتشاف أسباب هذا التسلسل واختلافه صعوبات كبيرة، لأنّ تأثيرات كثيرة، تتّفق تارة وتتناقض أخرى، قد فعلت فعلها منذ عهد قديم جدًّا، ولذلك، فإنّ الترتيب، كما تجدر محاولته، يرافقه بالضرورة ارتياب وتحكّم.

عندما كان الكاهن في روما القديمة يقدم القرابين إلى "تلوس ماتر Tellus Mater" أو "الإلهة الأم"، وهي إلهة الأرض، وإلى "سيرس Ceres" إلهة القمح، فإنّه كان يتضرع أيضًا إلى "فيرفاكتُر Vervactor" و"ريغارتُر Regartor" و"أمبروسيتُر Omprosetor"، و"إنسيتُر Insitor"، و"أوباريتُر Obarator" و"أوكَتُر Occator"، و"سريتُر Sarritor" و"سبرينكاتُر Subrincator" و"ميسُر Messor" وكونفكتُر "Convector و"كونديتُر Conditor" و "بروميتُر Promitor"، وهذه الأسماء كلمات لاتينيّة تعني لغويًّا عمليات زراعية مختلفة، لكنّها تشير كذلك إلى آلهة أو قوى روحيّة، تسيطر على هذه العمليّات، يبلغ عددها اثني عشر إلهًا على التوالي: إله الحرث الأول، إله الحرث الثاني، إله الأخاديد، إله بذر البذور، إله تغذية النبات، إله تسوية التربة، إله عزق التربة، إله الحصاد، إله جمع الحصاد، إله التخزين، إله الصرف من المخازن. فهي

قوى روحيّة يسيطر كلّ منها على عمليّـة محـدّدة، لكنّهـا ضروريّـة، ولا وجـود للقـوى الروحيّة خارج نطاق هذه العمليّة، ولهذا كانت تسميتها باللغة الألمانيّـة "Sondergotter" تعني "آلهة لوظائف الخاصّة"، أو بتعبير أكثر قدرة على التصوير، "آلهة لطرفـة عيـن" أو "للحظـة محـدّدة"، ونحـن هنـا نعـود إلـى مـا وراء الآلهـة التشـبيهيّة، أي التـي تتشـبّه بالإنسان، وإلى مستوى أساسيّ في الاعتقاد أكثر بدائيّة. وترتبط هـذه القـوى بالعمليـات الزراعيّة، بصفة خاصّة، كما ترتبط بحياة الأسرة. ويمكن أن نأخذ الميلاد كمثال لحيــاة الأسرة حيث نجد أنّ الإلهة "أليمونا Alemona" ترعى الجنين، والإلهتَين "تونا ودسيما" أي "التاسع والعاشر"، تراقبان الأشـهر الحاسمة من الحمـل، و"بـارتولا Partula" إلهـة المخاض، أمّا "لوسينا Lucina" و"كاند ليفـرا Candelifera" والــ"كـارمنتس Carmentes" فتقـدّم السـحر والنـور اللازمّيـن للـولادة الآمنـة. وفـي احتفـال سـحريّ تطـرد الأرواح الشرّيرة بفـأس وونـد ومكنسـة، بواسـطة "Intercidona" أي "السـاطور"، و"بيلومنـس Pilumnus" أي "مَن يدقّ الوتد". كما كانت هناك أيضًا "كونينا Cunina" الإلهة التي تهزّ المهـد، و"فاجيتـانُس Vagitanus" الإلهـة التـي تسـتخرج الصرخـات الأولـى، و"رومينـا Rumina" إلهة الرضاعة. وعندما ينمو الطفل نجد "إدوسـا و بوتينـا Edus & Potina" تشرفان على طعامه وشـرابه، ونجـد "فـابوليتُس Fabulinus" تعلّمـه الكـلام، وسـتاتلينُس Statulinus" تساعده في محاولاته الأولى للوقوف، كما كانت "أبيونا Abeona" و"أديونـا Adeona" تراقبان خروجه ودخوله[1].

وبعض هذه "الأرواح" لا تسيطر على الوظائف بقدر سيطرتها على القـدرة بمعنـى مختلف، ومن ثمّ كانت القوّة الداخليّة الخلاّقة "Genius" في الرجل، وكانت "أونو Iuno

[1] ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١١٣ ـ ١١٤.

في المرأة حاضرة تمامًا طوال فترة الخصوبة لا في أثناء عمليّة الجماع فحسب. وهناك آلهة أخرى كانت تتمتّع بمواضع محليّة لإقامتها، كما كان لها أسماء أخرى منها "فستا Vesta" ومقرّها الموقد، والـ"بينات Penates" ومكانها المخازن والصوامع، و"جانوس Janus" على عتبة الدار. وهناك أيضًا الإله "ترمينُس Terminus" إله الحدود الذي يجلس على صخرة الحدود، في حين يستقرّ "جينُس Genius" في رأس ربّ الأسرة ما داموا يعتقدون أنّ البذور تصدر عن الرأس. ويُعدّ الـ"لار Lares"، وهو أحد الآلهة المحلّيّين الأتروسكيّ الأصل، الذي جعله الرومان في ما بعد أحد الآلهة الراعية للأسرة، وهو يحرس الحقول والمباني فضلاً عن إشرافه على سعادة الأسرة، يُعدّ من البقايا الهامّة لهذه المرحلة من مراحل الاعتقاد. ولقد بذل أصحاب النظريّات جهودًا مضنية لتفسيرها. ويوحي التشابه مع أجزاء أخرى من العالم بأنّها كانت أرواح الأسلاف التي تشرف على الخصوبة في الأرض الزراعية، فإنّ "لارفاميلياريس Lar Familaris" دخل بيت المزرعة مع العمّال الزراعيّين، و"لاركومبيتاليس Lar Compitalis" يحرس مفترق الطرق التي تعبر عدّة مزارع. وقد اعتبر باحثون أنّ هذه "القوى" في الواقع، لم تكن آلهة، وإنّما كانت "قوى روحيّة"، ولكنّ بعضها تجسّد في شخصيّات وأصبح إلهًا. فإسم "فينوس Venus" محايد في شكله، إذ إنّ "فينوس" كانت "روح" الحديقة بغير جنس محدّد، أي لا ذكر ولا أنثى، قبل أن تصبح إلهة الحبّ العظيمة. وكانت "جونو" أو "يونو Juno" ملكة السماء، وحامية الأنوثة والزواج، ولهذا اعتقد الرومان أنّ الزواج في شهرها وهو شهر "يونيو"، يكون زواجًا سعيدًا، كانت قد ارتبطت ارتباطًا وثيقًا ودائمًا بالنساء الصالحات للزواج، ولكنّها أصبحت كذلك ملكة للآلهة. ويبدو أنّ اسم "ساتورنُس" أي "زحل"، قد أطلق على إله بذر البذور، بينما أطلق إسم "نبتون Neptune" على إله الماء. ومعلوم أنّ ساتورن هو إله قديم، دمجه الرومان

بكرونُس عندما جاء فارًّا من زفس إلى لاتيوم حيث علّم الناس الزراعة وعاشوا في عصور ذهبيّة في ظلّ حكمه، وهو أوّل من سمّى الأرض هناك "لاتيوم"[1]. أمّا نبتون، فأصله "بوزيدون" اليونانيّ[2].

وقد بقيت الديانة القديمة للحقل والمزرعة قويّة في الريف إذ كانت ديانة مناسبة وذات جمال خاص، فهي تتعامل مع موضوعات هامّة في حياة الناس، كما تكشف عن رغبة في التوافق مع القوى الكامنة خلف الكون والمعينة في مشاغل الحياة الأساسيّة. لقد كانت قوى مستمرّة، ولهذا استمرّت أيضًا في العصور المسيحيّة، وأصبح اسم "الوثنيّ" يعني في الواقع "الرجل الريفيّ"[3].

لا يُعقل ألاّ يكون الرومان قد ورثوا شيئًا في شؤون العبادة عن أقدم شعوب إيطاليا الأصليّة، التي انتمت هي نفسها إلى مجموع "المتوسّطيّين". ولعلّه من الجائز أن ننسب إلى هذا المنشأ عبادات تتّجه في الواقع، من وراء آلهة مختلفة الأسماء، إلى مبدأ الخصب، ويبدو ترجيح هذا المنشأ نفسه ممكنًا لبعض مظاهر عبادة الأموات، لا سيّما وأنّ ارتباطها بالعبادات الزراعيّة، عن طريق اعتقاد مشترك بالتجديد والبقاء، أمر طبيعيّ جدًّا من جهة ثانية. ويتمثّل إسهام الهندو أوروبيّين بالآلهة السماويّين: فإنّ اسم جوبيتير، إله النور والزوبعة، يحتوي على اسم زفس الذي أُضيفت إليه، في حالة رفع الإسم، تسمية "Pater" أي الأب. وممّا لا ريب فيه أيضًا أنّ عبادات المنزل: "فيستا"، والعائلة، تتّصل بالمنشأ نفسه. وأخيرًا فعلت بعض التأثيرات الإتروسكيّة واليونانيّة فعلاً

---

١ ـ الإنيادة ٨: ٣١٠ وما بعدها؛ راجع: الحوراني، نظريّة التكوين الفينيقيّة، ص٨٣.

٢ ـ الحوراني، نظريّة التكوين الفينيقيّة، ص٨٠.

٣ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١١٥.

تنظيميًا بغية تقريب "القوى" المتجاورة، وإعطاء بعض الآلهة شخصيّة مميّزة. ولكنّ الاتّفاق كان أبعد من أن يتحقّق آنذاك حول طاقتها وتحديدها وموعد مفاعيلها[1].

تعـدُّد الآلهة

يبدو أنّ تلك التأثيرات الأخيرة، مهما بلغ من قوّتها، لم تُحدّ قطّ، بشكل محسوس، من تكاثر مطّرد لامتناهٍ في عدد الآلهة الذين اعترف بهم الرومان. فقد عرفوا أكثر من جوبيتير واحد خُصّ كلّ منهم بنعت عباديّ يميّزه، وبمعبد أو مذبح أيضًا. فقد حمل هذا الإسم آلهة سياسيّون: إله المدينة الأعظم الذي أقام له الملوك الإتروسك معبدًا على الكابيتول، وإله اتّحاد المدن اللاتينيّة، "لاتيار Latiar" أو "لاتيال Latial" الذي كان له معبده في الجبل الألبيّ؛ وآلهة سماويّون، فكان هنالك "جوبيتير لوسيتيوس Lucétius" أي اللامع، و"إليسيوس Elicius" أي الممطر، و"فولغور Fulgur" أي الزوبعة، و"سومانُس Summanus" أي البرق الليليّ، و"تونانس Tonans" أي الرعد؛ وكان هناك آلهة تستجلب السعد، فكان هنالك "جوبيتير فيتيريوس Fétérius" إله الشجرة التي تعلّق عليها غنائم العدوّ، و"لابيس Lapis" الإله الذي تمثّله صوّانة، ويغلب أنّه استمرار لعبادة الفأس في عهد ما قبل التاريخ؛ كما كان عند الرومان آلهة عسكريّون، فكان هنالك "جوبيتير بروبونياتور Propugnator" المدافع المحارب، و"ستاتور Stator" أي الذي يوقف الهاربين، و"ديبولسور Dépulsor" أي طارد الأعداء، و"فيكتور Victor" أي

---

[1] ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريتها، ٢: ١٩٩ ـ ٢٠٠.

المنتصر. وباستطاعتنا أن نمضي في التعداد بعيدًا وأن نقوم بتعداد مماثل لكثير من الآلهة[1].

إنّ الرومان، بفعل اعتقادهم بانتشار المبدأ الإلهيّ في الطبيعة انتشارًا شاملاً، يبدون كأنّهم قد رضوا أبدًا عن مفاهيم متردّدة ومبهمة. فهم لم يهتمّوا إلاّ بقناعة قصوى مدهشة، لإعطاء شخصيّة لآلهتهم وحتّى للتثبّت من هويّاتهم. فلا التشبيه، ولا الميثولوجيا، على ما تجيزه من فوارق، شكّلا بالنسبة لهم حاجات أو قناعات حقيقيّة، حتّى ولو تعلّموا مبادئهما على يد الأجانب. ودرجوا على أن يُدخلوا على صلواتهم صيغًا متحذّرة كهذه، "ذكرًا كنت أم أنثى"، أو "أيًّا كان الإسم الذي تؤثر إطلاقه عليك". ومنعَهم الاعتقاد من إبداء أيّ اعتراض مبدئيّ على استقبال إله جديد، فقد كفاهم في السنة ٣٩٠ قبل الميلاد أن ينبئ صوت مجهول أحد المواطنين، ليلاً، بوصول الغاليّين قريبًا، حتّى يشيّدوا، دونما اعتبار آخر، مذبحًا لذلك المواطن، واسمه "أيوس لوكوانس أو لوكوتيوس Aius Loquens Ou Locutius". وهكذا أيضًا يمكن تفسير إحدى خصائصهم الدينيّة البارزة، أي قابليّتهم، التي لا نظير لها عند الشعوب القديمة، حيال الآلهة الأجانب. فقد كانوا مستعدّين لكلّ تقارب، معتمدين دون صعوبة ما أسموه "التأويل الرومانيّ"، أي اكتشاف إله يعرفونه ويعبدونه، في الإله الأجنبيّ، ولم يكونوا من جهة ثانية أقلّ استعدادًا لتبنّي الإله الجديد باسمه الأجنبيّ دون أن يبحثوا عن إله مماثل[2].

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريتها، ٢: ٢٠٠.

٢ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريتها، ٢: ٢٠٠ ـ ٢٠١.

تَجسيدُ
الآلِهَة

إنّ كلمة Numina كلمة محايدة تعني "إيماءة الرأس"، ولقد ارتبط استخدامها بالفكرة التي تقول إنّ الخصوبة مستقرّة في الرأس، وأصبح هذا التصوّر تشبيهًا، أي ينقل الصورة البشريّة إلى الآلهة، ولكنّه لم يستمرّ كذلك طويلاً. فقد تحول "النومينا" شيئًا فشيئًا إلى إله يشبه الإنسان تمامًا، ذكرًا كان أم أنثى، وفي بعض الأحيان بغير جنس محدّد. فإله الرعي "بالس Pales" أُعطي هيئة رجوليّة وأنثويّة معًا. والوظيفة التي كانت تشير إلى الإله ككلّ في مرحلته الجنينيّة الأولى، أصبحت صفة، وقد يجذب هذا الإله الجديد مجموعة من صفات تمثّل الألقاب التي تُطلق على العبادات.

يبدو أنّ الإله العظيم الأوّل عند الرومان كان الإله "مارس Mars"، الذي أصبح في عصورٍ تاليةٍ يُعرف كإله للحرب، لكنّه كان في البداية مرتبطًا كذلك بالزراعة والحراثة، وكان الناس يتضرّعون إليه تحت اسم "مرمار Marmar" لكي يقي الحقول من وباء الطاعون، كما كان بوصفه "مارميريوس Marmurius" روح السنة التي تندفع بسرعة بصولجانَين منزوعَين، ثمّ تعود كسنة جديدة، وكان له كهنته "الوثّابون" أو "الساليون Salii" ومعناها "القفّازون". فقد كان الرومان يستقبلون العام الجديد بألوان من الرقص المقدّس، وما زال الناس يتبعون هذا التقليد حتّى الآن، لكنّ الساليّين كانوا يقفزون إلى أعلى إيحاءً للإله لإطالة ساق النبات، فإنّ ما توحي به الأمثلة المشابهة بأنّهم كانوا يقفزون لاستجلاب محاصيل ذات عيدانٍ أطول. أمّا الإحتفالات بأعياد الدروع والتروس، فقد تكون إعدادًا للحرب، غير أنّ رنين الرمح والترس قد يعبّر كذلك عن سحر الرعد، ويضحّى لـ"مارس" في هذا العيد بحصان البطل في الحرب، الذي يُستخدم دمه في الطقوس السحريّة للخصب. ويتقبّل الإله التضحية بالخنزير،

والشاه، والثور، ولذلك كان يسمّى العيد في بعض الأحيان عيد "سو - أوفير - طوريليار Su - Over - Tauriliar" أي: "الخنزير - الشاة - الثور"، وهي القرابين التي تقدّم للإله مارس من أجل رخاء الأرض ووفرتها. وكان شهر مارس البداية القديمة للسنة، وكذلك بداية الحملات الحربيّة، وأعمال الزراعة. ولعلّ هذا الإله، مارس، كان في الأصل إله العاصفة، رغم أنّ هذه الفكرة لا تزال عند الكثيرين مجرّد تخمين.

ثمّ كان الإله "كويرينُس Quirinus"، وكلمة Quirinus تعني المواطن الرومانيّ الحرّ، وكانت في الأصل اسم قبيلة انضمّت إلى اللاتين، والظاهر أنّها أخذت اسمها من اسم هذه الروح التي كانت تشرف على الطقوس السريّة، وتروي الأساطير أنّ روميلُس مؤسّس روما، عندما مات، صعد إلى السماء في عاصفة، وأصبح بعد ذلك إلهًا من آلهة الرومان المحبوبين يعبدونه باسم كويرينُس، الذي له قوّة روحيّة غامضة، ثمّ ارتبط بمارس، إذ نجد "سيرفيوس Servius" يدعوه "مارس الموكل بالسلام". كما كان يُطلق على الرومان اسم "الكويريتيس" عندما يجتمعون بصفتهم مواطنين أحرارًا. أمّا العضو الثالث في ثالوث الآلهة التي كانت تُعبد في الأصل على تل "الـ"كابيتولين Capitoline" على أعلى تلال روما السبع، وأصبح الإله الأعظم، فهو "جوبيتير Jupiter"، الذي هبط إلى روما من معبده فوق تلّ مدينة "ألبا لونغا Alba Longa"، المدينة القديمة في لاثيوم، التي تروي الأسطورة أنّها كانت مسقط رأس روميلُس وريمُس المؤسّسَين الأسطوريَّين لمدينة روما. ومنذ عصر الملوك الإتروسك وهو يسيطر على مجمع الآلهة حاملاً لقبه "الأفضل والأعظم" ثمّ ارتبط اسمه على نحوٍ فريد بمصير روما، وأصبحت إلهة الأنوثة القديمة "جونو Juno" زوجته الملكة. وهناك روحان آخران من "القوى الروحيّة" السابقة، كُتبت لهما السيادة في "مجمع الآلهة" بوصفهما من "الآلهة القوميّة"، أمّا الأول فهو "جانوس" إله الأبواب الذي صوّره

الرومان في ما بعد وهو ينظر في اتّجاهَين؛ والثاني هو الإلهة "فستا Vesta" إلهة الموقد، وكان يقوم على خدمة معبدها القوميّ "عذارى فستا" اللائي كن يَبْدَأنَ الانخراط في سلك الخدمة في ما بين السادسة والعاشرة، ويواصلنها، في العصور الكلاسيكيّة، لمدّة ثلاثين سنة. أي أنّ طائفة العذارى الفستيّة ذوات الثياب البيضاء، والخمر الأبيض، كنّ يقسمن أن يبقين عذارى في خدمة الإلهة فستا ثلاثين سنة.

أمّا الآلهة الأخرى فكانت تُسمّى Novensils، وهي إمّا من الآلهة المغتربة، أو المهاجرة، ومن أبرزها الإلهة الإيطاليّة الإتروسكيّة "مينيرفا Minerva" إلهة المهارة الفنيّة التي ارتبطت مع "جوبيتير" و"جونو" في ثالوث جديد في الكابتول؛ ومنها أيضًا الإله "هركيليس Hercules" إله النجاح في الشؤون العمليّة؛ والإله "عطارد Mercury" الذي يدلّ اسمه على ارتباطه بالتجّار، وهو نفسه الإله هرمس رسول الآلهة، وإله التجارة، والمكر واللصوصيّة عند اليونان؛ و"أبولّو Apollo" إله الشفاء، و"فورتونا Fortuna" إلهة الخصوبة وعرّافة الإلهة في "بارنيست Parenesta" و"أنتيوم Antium"؛ والإلهة "ديانا Diana" روح الشجرة، وهي إلهة القمر والغابات، وكان الرومان يزعمون أنّها كانت في الأصل روح شجرة جيء بها من "أريكيا Aricea" حينما خضع هذا الأقليم لروما، وكان بالقرب من أريكيا بحيرة "نيمي Nemi" وأيكتها حيث معبد ديانا، وتذهب الأسطورة إلى أنّ هذه الإلهة ضاجعت في هذا المكان "فيربيوس Virbius" ملك الغابات الأوّل، وكان الكهنة يعوذون أنفسهم بغصن من شجرة البلّوط المقدّسة يُسمّى عندهم "بالغصن الذهبيّ"، وقد ناجى الشاعر الرومانيّ العاطفيّ "كاتولُس Catulus" (٨٤ - ٥٤ ق.م) الإلهة ديانا في ترنيمة رائعة، كما كانت عبادتها في "نيمي Nemi" نقطة البداية لكتاب الأنثروبولوجيّ السكوتلنديّ السير جيمس فريزر (١٨٥٤ - ١٩٤١): "الغصن الذهبيّ"، الذي يقع في اثني عشر مجلّدًا، وهو دراسة عميقة للسحر

والدين تقوم على معرفة وثيقة وإلمام واسع، وهو يُرجع الكثير من الأساطير والشعائر إلى بداية ظهور الزراعة.

ولقد توحّد بعض هذه الآلهة مع آلهة اليونان على أساس أنّ أصلهما واحد هو الإله الهندو أوروبيّ. فكما أنّ "زيوس" هو "ديوس Dyaus"، فكذلك جوبيتير هو "دي أوبيتر Di Upi" أي "الأب ديوس"؛ والآلهة الأخرى مثل "هركيليس Hercules" هو "هرقل Heracles"؛ وأبّولّو استعاروه مباشرة من المستعمرات اليونانيّة. ولمّا نما الاتّصال باليونان، تمّت توحّدات أخرى، فمن الواضح أنّ الإلهة "جونو" هي "هيرا"؛ وأنّ "مينيرفا" هي "بلاس أثينا"؛ وأنّ "ديانا" هي "آرتميس"؛ و"فينوس" هي "أفروديت"؛ و"عطارد" هو "هرمس"؛ و "نبتون" هو "بوزيدون"؛ والإله "فولكان" هو الإله "هفايستس"؛ و"سيرس" هي "ديمتر"؛ وأنّ "ليبر Liber" إله العنب هو "ديونسيوس" إله الخمر"... وكان الانتقال سهلاً في بعض الأحيان، ولكن طرأت على "فينوس" و"عطارد" تحوّلات ملحوظة، ومع التغيّرات أصبحت الحكايات المرتبطة بآلهة اليونان تُنسب إلى آلهة الرومان، وقد روى الشاعر الأثينيّ "أوفيد Ovid" (٦٣ ق.م – ١٧م) حلقاتها في كتابه "التحوّلات Metamorphoses". ولكن على العموم يصحّ القول إنّ أمثال هذه الحكايات تشير دائمًا إلى تأثير يونانيّ؛ لأنّ الروح Numina عند الرومان ليست لها حكايات[1]. ويرى باحثون أنّ الرومانيّ قد غدا من ثمّ، في جوهره، تابعًا من توابع الزون اليونانيّ، إن لم يكن نسخة وفق الأصل عنه. أمّا الميثولوجيا فقد اقتصرت، منذ أن وُجد أدب رومانيّ، على نقل أو تقليد الميثولوجيا اليونانيّة. وتبنّت روما بعض الطقوس أيضًا. فلا يجدر بنا أن ننسى الألعاب القوميّة التي استلزمت تقديم

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١١٥ ـ ١١٨؛ أبي فاضل، موسوعة التاريخ والحضارة، ص٢٤.

تمثيليّات مسرحيّة على الطريقة اليونانيّة. وإذا كان من الصعب علينا تحديد زمن دخول المآدب المقدَّمة للآلهة الغرباء مع ما تتطلّبه من أسرّة ووسادات، فليس من ريب في أنّها مقتبسة عن الطقوس اليونانيّة. ويبرز الأثر نفسه بوضوح في ممارسة العرّافة. فلم تتح الطرائق الرومانيّة سوى معرفة ما إذا كانت استعدادات الآلهة مؤاتية أم غير مؤاتية. ولذلك، فقد لجأوا، بغية التزوّد بالنصائح، إلى هاتفي الغيب من الإغريق. وقد جاء في التقليد أنّ آخر الملوك، تاركوينوس، قد أوفد يطرح الأسئلة على أبّولون في "دلفي". وكي لا يقطعوا هذه المسافة الطويلة اكتفوا، على العموم، باستشارة الكتب التي ابتاعها الملك نفسه من العرّافة "سيبيل Sibylle" نبيّة أبّولّون في كوم. فلا عجب من ثمّ إذا ما أدّت هذه الاستشارة أكثر من مرّة إلى تبنّي عادات وطقوس يونانيّة. ولنأخذ مثلاً عبادة الإله الشافي "اسكلابيوس"، ففي أوائل القرن الثالث، وبمناسبة انتشار أحد الأوبئة، أرسلوا إلى بلاد أرغوس مَن يطلب اسكلابيوس في "إبيذوروس Epidaure" مركز عبادته الرئيسيّة؛ فنزلت الحيّة التي تمثّل "قوّته" إلى اليابسة في الجزيرة التيبيريّة حيث شُيّد معبده؛ وتولّى الإله المعالجة فيه، كما في المعابد اليونانيّة، بأن أرسل إلى المرضى الذين يقضون ليلهم فيه، أحلامًا فسّرها الكهنة وأعطوا "الوصفات" اللازمة. ثمّ أخذت "المعجزات" تدريجيًّا أيضًا، كما حدث في اليونان، تُعتبر دلالات على المستقبل، لا دلالات غير مؤاتية فحسب[1].

---

[1] ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريّتها، ٢: ٢١١ ـ ٢١٢.

الأشـرَافُ

والعّامَّــة

عندما نشأت الجمهوريّة، كان سكّان روما قسمَين هما الأشراف والعامّة، كما كـان الأمر في مدن اليونان. أمّا الأشراف الـ "باتريسيان Patriciens" أي الذيـن تحـدّروا مـن أب واحد "Pater" فكانوا أصحاب الثروة والنفوذ، يمتلكون الأرض، ويحكمون المدينـة، لهم مجلس الشيوخ، وهو الحاكم الفعليّ. أمّا العامّة "La Plèbe" فهي مـن السكّان الذيـن أتوا إلى روما وأقاموا فيها، وليسوا من سلالة رومُلس، فلـم تكـن لهـم حقـوق سياسـيّة. وقد نـاضل العامّـة أكـثر مـن قرنَيـن حتّـى حصلـوا علـى الحقـوق السياسـيّة والمسـاواة المدنيّة. ففي سنة ٤٩٣ قبل الميلاد سُمح للعامّة بإنشاء "مجالس العامّة Tribuns de la Plèbe" ولرئيسها حقّ النقض "Veto"، فيعلّق القرار أو الحكم الذي يصدر عن الشـيوخ أو الحكّام إذا لم يوافق عليه مجلس الشعب. وفي سنة ٤٨٦ قبل الميـلاد صـدر القـانون الزراعيّ الذي صنّف الأمـلاك الخاصـّة والعامّـة فـأعطى قسمًا منها للفقـراء، ووافـق الأشراف على شرعيّة القرار لكنّهم رفضوا تطبيقه. واستمرّ العامّة يطالبون بالمسـاواة، حتّى تمّ سنة ٤٥٠، فوُضعت مجموعة قوانيـن حفروهـا علـى اثنتَـي عشـرة لوحـة هـي بداية القوانين الرومانيّة. وقد مُنحت العامّة المساواة في الحقوق المدنيّة، وهيّأت لمنحهم المساواة السياسيّة، وجعلت الزواج ممكنًا بين الأشراف والعامّة.

واستمرّت العامّة تطالب بمزيد من الحقوق. وكانت تتوقّف عن المطالبة، إذا كـانت روما بخطر، أو إذا خاضت حربًا خارجيّة، ثمّ ترجع إلى المطالبة متى توقّفت الحـرب، حتّى تحقّقت المساواة في القرن الثالث[1].

---

١ ـ أبي فاضل، موسوعة عالَم المعرفة، ص١١ ـ ١٢.

الإنسَـــــان

أمَام الآلهة

مهما يكن من أمر ارتفاع عدد تلك القوى الخفيّة المبهمة، وربّما بسبب عددها الذي حال دون رغبة المؤمن في إرضائها جميعًا، فقد حدث للمؤمن أن خشيها: ولكنّه كان من المستحيل عليه أن يحبّها. وليس المقصود هنا بالشعور العاطفيّ: فكلّ شيء قد اقتصر على طقوس حُدّدت تفاصيلها ووُجب الخضوع لها. ولا ريب في أنّ هذه الطقوس قد ارتدَت في الأصل طابعًا سحريًّا مكرهًا للقوّة التي تقوم الطقوس من أجلها. ولم يُزل هذا الطابع عنها كليًّا. فإنّ استعمال بعض الأدوات واللجوء الاضطراريّ إلى لباس التنكّر يرتديه المشتركون في الطقوس، وحتّى الشخص الرئيسيّ، كالقائد الظافر في موكب النصر، لا تفسير آخر لهما؛ واستمرّت بعض الصلوات أيضًا بمثابة رقى حقيقيّة، ولم يتجاسروا في سواها، إلاّ بكلّ عناية واهتمام، على تعديل أيّة كلمة من كلماتها. إلاّ أنّ هذه الطقوس، حتّى نستطيع فهمها، ترتبط في مجملها بالأصول القانونيّة التي تتفرّع، مع ما يرافقها من إيماءات وصيغ، عن السحر أيضًا. وإنّنا لنجد أحيانًا مطابَقَةً مدهشة بين إيماءات وصيغ متماثلة، نُقلت نقلاً أحيانًا من طقوس إلى أخرى، في ممارسة القانون المدنيّ وممارسة الديانة. "فالتقوى" تُعتبر قبل كلّ شيء آخر كعدالة نحو الآلهة، أي كتنفيذ، غاية في الأمانة والدقّة، لكلّ ما هو متوجّب لهم وما نعلم علم اليقين بأنّه يرضيهم، حتّى نستميلهم لاستجابة ما نطلبه منهم. أضف إلى ذلك، في أغلب الأحيان، أنّ الصلاة والذبيحة يرافقهما نذر ليس سوى صفقة مؤخّرة الأجل، يعبّر المؤمن فيه، بكلمات يجتهد معها الحؤول دون أيّ تهرّب ممكن، عمّا يلتمسه وعمّا يتعهّد بتنفيذه حين يُستجاب ملتمسه. ولم يكن هذا المفهوم خاصًّا بالديانة الرومانيّة، فالإنسان، في ضعفه، يستخدم كلّ وسيلة لديه تجعله يأمن شرّ القوى الفائقة الطبيعة.

ولكنّه، لا يبرز، في أيّة ديانة أخرى، بمثل هذا الوضوح وهذا الشمول. وكان هنالك تعبّد خاصّ، ومع أنّ الدولة لم تفرض أيّ عقيدة، فقد كان لها الحقّ في مراقبته، ولكنّها لم تستخدم هذا الحقّ إلاّ عرضًا، وفي عهد متأخّر، بغية منع العبادات التي اعتبرتها خطرة. ولذلك فقد ارتدى هذا التعبّد الخاصّ، وهو الذي عُرف بالديانة العائليّة، أشكالاً مختلفة جدًّا. والديانة العائليّة قد جاشت بحيويّة ومقاومة أقوى منهما في العبادات الرسميّة. فقد استلزمت تلك الديانة عبادة "فيستا"، التي لم يكن مذبحها سوى الموقد المنزليّ الذي لا تنطفئ ناره، والذي تُلقى فيه القرابين في ساعات معيّنة، فيندلع منه اللهب الراقص، ويقدّم له ربّ العائلة قرينته حال زواجه منها وطفله حال ولادته. واستلزمت أيضًا عبادة "جن" العائلة الذي غالبًا ما تمثّله حيّة مرسومة على الحائط قرب الموقد، وهو روح الجدود والقوّة الحيويّة للذريّة المتجسّدة في ربّ العائلة، بينما كان لربّة العائلة إلهة حامية هي "جونون". ولم تهمل العبادة شتّى "قوى" المنزل وحياته، ابتداء من آلهة البيت Pénates الذين اشتقّ اسمهم من كلمة Penus وتعني المؤن. وقد دخل عليها آلهة من الخارج لا سيّما "لار Lares" إلهة الأملاك، فمنذ أواخر القرن الثالث يتأيّد وجود "لار"عائليّ".

وما كانت الديانة العائليّة لتنسى الموتى. ولكنّ عبادتهم، على ما يبدو، كانت الجزء الأضعف فيها، ما لم يشتركوا، كجدود أدنين، في عبادة "جن" العائلة ورئيسها. ولكنّهم اعتُبروا مستمرّين في حياة غامضة، دون أن يشعر ذووهم بحاجة إلى توضيح إقامتهم تحت الأرض. وكان من المهمّ إرضاؤهم بالقرابين، وقد عنى اسم "مان Mânes" الذي ظهر في عهد متأخّر نسبيًّا، الموتى الذين أمكن إرضاؤهم. أمّا إهمال الموتى الآخرين، وهم الـ "لارف Larves" والـ "ليمور"، فقد جعلهم يعودون إلى الأرض، قلقين ومؤذين، فيحاول الناس من ثمّ طردهم من المنزل باحتفالات خاصّة. وهنالك أكثر من سبب

يجعلنا نشكّ في أنّ كلّ ذلك كان رومانيًا حقًّا في الأصل. وإنّما تجدر الإشارة إلى أنّ الذعر الذي استحوذ على الإتروسك لم يتسرّب قطّ إلى هذه العبادة[١].

ولمّا كانت حياة الرومانيّ القديم العاديّة حياة فلّاح، فقد رافق العبادة المنزليّة بالضرورة عبادة لمنفعة الأملاك، معدّة للمحافظة على المواشي والبذور والحصائد وازدهارها. وكان لفنّ الزراعة، تفاصيل عديدة دقيقة عن الأعياد الواجب الاحتفال بها والذبائح الواجب تقديمها والصلوات الواجب تأديتها وتطواف الحيوانات الواجب تنظيمه حول الأملاك. فكلّ عمل من أعمال الحياة الزراعيّة يجب أن يرافقه عمل دينيّ يلتمس نجاحه أو يحاول تهدئة غضب إله المكان. فقبل القطاف، يجب تقدمة نبيذ وأمعاء خنزيرة لـ"سيريس"، ونبيذ وبخور ونوع مختلف من الحلوى يُضاف إلى كلّ منهما لـ"جانوس" و"جوبيتر"؛ وقبل تخفيف شجر الغابة أو الشروع بإحياء الأرض، يلزم تضحية خنزير...؛ وكان يتولّى تقديم هذه القرابين فرد من الأفراد، كربّ العائلة للعبادة العائليّة. ولكنّه كان بذلك يسهم في الازدهار الجماعيّ.

من جهة ثانية تسرّبت المشاغل الزراعيّة تسرّبًا عميقًا إلى الديانة الرسميّة أيضًا. وإذا كانت أبعد الروزنامات قدمًا، التي نُسب تحديدها إلى الملك "نوما Numa"، لم تأتِ على ذكر "جوبيتير الكابيتوليّ"، لكنّ العدد الأكبر من الأعياد التي لحظتها هذه الروزنامة وغيرها، قد مثّلت، بمواعيدها وطقوسها حين يمكننا تفسيرها، وبالآلهة موضوع العبادة، أعيادًا من الحياة الريفيّة. وقد اشترك عدد كبير من عظام الآلهة في هذه الحياة منذ القديم أو أُشتركوا فيها بمداورة ما. فكان هنالك "جوبيتير ليبر Jupiter Liber" إله الكرمة وأعياد للنبيذ الجديد. وقد كان "نبتون" إله الينابيع قبل أن يغدو إله

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريّتها، ٢: ٢٠١ ـ ٢٠٢.

البحر. واشتقّ اسم "ساتورن Saturne" من كلمة "Sata" التي تعني "الأراضي المزروعة". وإنّ "مارس Mars" نفسه، الذي اعتُبر في النهاية إلهًا للجيش والحرب، قد قام في البداية بدور ليس دون هذا الدور شأنًا كحامٍ للعمل الزراعيّ ومحاصيله. فهو مَن أُقيمت لأجله احتفالات "التطهير" بتطواف دائريّ تعقبه ذبيحة كبرى. فالديانة الرومانيّة القديمة، هي قبل كلّ شيء آخر، ديانة أرباب العائلات الفلاّحين. ويجب أن نفكّر هنا ما كانت عليه، زمنًا مديدًا، حياة الطبقة الحاكمة اقتصاديًّا واجتماعيًّا في روما، حيث أتاح التملّك قيام واستمرار العائلة المجموعة حول رئيسها. وليس عرضًا أنّها كانت في الوقت نفسه ديانة حقوقيّين، فليس من التحكّم أن نكتشف فيها، مع اعترافنا بأنّ هذه المشاعر قد بلغت في هذا الشعب درجة خاصّة من القوّة، الحرص على المصالح وتفهّم الواقع، وكلاهما محتومان، أو أقلّه أكثر طبيعيّة من الظواهر الصوفيّة الحارّة، في ملاّكين ورؤساء كتل عائليّة يتحمّلون أعباء المسؤوليّة. فكان من المتوجّب أن تتبدّل أمور كثيرة كي تتبدّل نفس البشر وتتبدّل معها ديانتهم؛ ولكنّ هذه الديانة، بفعل القوّة التي يوليها التقليد، قد قاومت التبدّل مقاومة عنيفة[1].

أزَمَةُ الحُرُوب البونيقيَّة
وإدخَال الديَانات الغَريبَة

الوضع الدينيّ في عهد الأمبراطوريّة المتأخّر كان أكثر دلالة على المستقبل من الوضع الاقتصاديّ، يكشف عنه بصورة أوضح وأجلى. فالعقائد الدينيّة المتباينة، قامت في هذا جنبًا إلى جنب بعد أن يسّرت الاتّصالات بين الولايات المتباعدة، وسهّلت

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريتها، ٢ : ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

سبلها، وانفتحت منها الأبواب على مصراعَيها أمام الديانات والعقائد الأجنبيّة، فأدّت المنافسات التي اشتدّت بينها، قبل نهاية القرن الثاني، إلى فوز العقائد التي حوربت في الماضي ولا سيّما مع مطلع الأمبراطوريّة ونشأتها، باعتبارها منافسة للنظام القائم في البلاد ومغايرة للتقاليد الرومانيّة. فبعد أن لقيت بعض التسامح لم تلبث أن فازت بحقّ الرعويّة وأصبحت مهيّأة ليس لزعزعة الأمبراطوريّة فحسب، بل أيضًا لنفخ روح جديدة فيها وبعثها من عثارها والركود إلذي صارت عليه.

وقعت حروب طويلة بين روما وقرطاجة، عُرفت بالحروب البونيّة أو البونيقيّة، ومرّت في ثلاث مراحل. وقد بدأت الحرب البونيقيّة الأولى سنة ٢٦٤ قبل الميلاد، وكانت روما تعتمد على جيش برّيّ كبير يزيد على النصف مليون، فيما جيش قرطاجة معظمه من المرتزقة، لكنّ قيادته قرطاجيّة، ولديها أطول يسيطر على البحر. لكنّ الرومان عملوا بصبر طويل، فبنوا أسطولاً كبيرًا، أنزلوه إلى البحر سنة ٢٤٣، وبعد سنتَين أحرز نصرًا كبيرًا على الأسطول القرطاجيّ في معركة "أغاث Agate"، فانتهت الحرب البونيقيّة الأولى سنة ٢٤١ قبل الميلاد، وبرز فيها القائد القرطاجيّ "هملقار برقا". وفرضت روما على قرطاجة شروطًا قاسية فأجبرتها على تحديد أسطولها، وعلى التخلّي عن صقليّة بكاملها وعن الجزر القريبة منها، وعلى دفع ضريبة ضخمة. واستمرّت روما تقوّي جيشها، وقد أصبحت الحرب مورد رزق لها. لكنّ قرطاجة احتفظت بقدرة كبيرة، وبرز فيها قائد طموح هو هنيبعل، الذي خلف أباه هملقار برقا سنة ٢٢١ قبل الميلاد، وأعدّ جيشًا في إسبانيا، وقرّر أن يضع حدًّا لاعتداءات روما على بلاده، ويجبرها على احترام مصالحها. فاجتاز نهر الإيبر سنة ٢١٨ قبل الميلاد، وسار برًّا إلى إيطاليا حتّى لا يغامر عن طريق البحر. فبدأت الحرب البونيقيّة الثانية، وبعد سبعة أشهر من الجهود المضنية وصل إلى "البو"، ولم يبقَ من جيشه أكثر من

عشرين ألفًا وستّة آلاف خيّال. فيما كان بإمكان روما إعداد ٧٠٠ ألف مقاتل. ولكنّ مقاتلين من أعداء روما، لا سيّما من الغاليّين، قد انضمّوا إلى هنيبعل الذي انتصر على الرومان في سلسلة معارك في "تسّين" و"تريبيا" و"ترازيمان". فاختارت روما "كوينتوس فابيوس مكسيموس Quintus Fabius Maximus" ديكتاتورًا. وكان حكيمًا وبعيد النظر، وأدرك الرومان أنّهم لا يستطيعون مواجهة هنيبعل في معارك منظّمة، فنصح بحرب الاستنزاف، وبالاحتماء وراء أسوار روما واعتماد حرب العصابات. فيما سيطر هنيبعل على معظم إيطاليا. لكنّ معارضي فابيوس رأوا غير ذلك، واختاروا قنصلَين هما "فارون" و"بول إميل"، قرّرا الحرب. لكنّ هنيبعل سحق الجيش الرومانيّ وقضى عليه قضاء شبه تام في معركة "كاني" سنة ٢١٦ قبل الميلاد، وهي واحدة من أعظم معارك التاريخ. لكنّ الرومان لم يقنطوا، ولم يستسلموا للهزيمة، بل عيّنوا "فابيوس" مرّة أخرى ديكتاتورًا. فقرّر ألاّ يواجه هنيبعل ما لم تجد روما قائدًا مثل هنيبعل، وجيشًا مثل جيشه. وسيطر هنيبعل على معظم إيطاليا، فنظّم اقتصادها وأدار شؤونها. ولم يحاصر روما، ليس لأنّه يفتقر إلى أدوات الحصار فحسب، بل لأنّه يعرف صعوبة العمليّة، والرومان يموتون ولا يستسلمون، فلم يشأ إجراء مذبحة بشريّة مخيفة. فاستمرّ يضغط على روما من أجل التفاوض والتوصّل إلى اتّفاق سلميّ. لكنّ روما استمرّت تستعدّ، وتحضّر القيادة والجيش، حتّى نبغ قائد إسمه "كورنيليوس شيبيو"، درس خطط هنيبعل وخطّط لمواجهتها. ثمّ قاد حملة إلى شمال أفريقيا ليحارب قرطاجة، فرجع هنيبعل إلى بلاده، ووقعت معركة "زاما" سنة ٢٠٢ قبل الميلاد وانتصر شيبيو، وفرض الشروط على قرطاجة، وصادر أسطولها، وفرض ضريبة حرب كبيرة، وأصبحت روما تشرف على سياستها الخارجيّة. لكنّ هنيبعل استلم الحكم في قرطاجة وأجرى فيها إصلاحًا شاملاً. فجدّد مؤسّساتها وقوّاتها، فخافت منه روما، وضغطت لإلقاء

القبض عليه، لكنّه لجأ إلى الشرق. وسيطرت روما على قرطاجة، لكنّ القرطاجيّين نافسوا الرومان وقت السلم، وتفوّقوا عليهم في الإنتاج والتجارة، وفاقوهم ثروة وغنى. وازداد خوف روما من قوّة قرطاجة فاستدرجتها إلى الحرب البونيقيّة الثالثة (١٤٩ - ١٤٦ ق.م.) وقضت عليها نهائيًّا وسيطرت على غربي المتوسّط بكامله بما فيه شمال أفريقيا. ثمّ توجّهت روما إلى حوض المتوسّط الشرقيّ، فبدأت بمحاربة المكدونيّين، وأرسلت حملة انتصرت في معركة "سينوسفلي" سنة ١٩٧ قبل الميلاد في سهل "تساليا". وظلّت تتوسّع في بلاد اليونان حتّى سيطرت عليها نهائيًّا سنة ١٤٦ قبل الميلاد. ثمّ نقلت عملها إلى آسيا الصغرى، وظلّت تقاتل السلوقيّين حتّى انتصرت عليهم وسيطرت على آسيا الصغرى بكاملها. وأعلنت مصر الخضوع لروما في العالم القديم. وعملت روما على تنظيمها[1].

خلال الحرب البونيقيّة الثانية، هزّت مداهمة الخطر الضمير الدينيّ في روما كلّها حتّى أعماقه. وقد وصف كافّة المؤرّخين القدماء الدوّار الجنونيّ الذي استحوذ في بعض الأوقات على النفوس. فكتب "تيت ليف" بصدد السنة ٢١٣: "خُيّل أنّ تغييرًا مفاجئًا أصاب البشر أو الآلهة. فلم تلغَ الطقوس الرومانيّة فحسب، أي بين جدران المنازل، بل إنّ جمهورًا من النساء لم يتقيّدن، حتّى في الخارج، في الفوروم وعلى الكابيتول، في ما يعود للذبائح والصلوات إلى الآلهة، بالعرف الموروث عن الجدود". وقد اتّخذ المجلس بعض التدابير آنذاك، فأمر بتسليم كافّة "مجموعات النبوءات وكتب الصلوات والدراسات حول الذبائح"، وحظّر "تقديم الذبيحة في مكان عام أو مكرّس، وفاقًا لطقس جديد أو غريب". ويبدو الديكتاتور "كوينتوس فابيوس مكسيموس"، في

١ - أبي فلضل، موسوعة عالم التاريخ والحضارة، ٢: ١٥ - ١٧.

مرحلة الهزائم الأولى الكبرى، وكأنّه تجسيد للتقوى الطقسيّة. وفي الحقيقة نمت هذه التقوى، بفعل حثّه المنظّم، مع ما تستلزمه من شدّة. فبسبب إخلال بنذر العفاف دُفنت إحدى الفيستاليّات حيّة وانتحرت أخرى، بينما مات شريكها في المخالفة تحت ضربات العصي التي كالها الحبر الأعظم بنفسه. لكنّ هذا التدقيق لم ينحصر في العبادات الرومانيّة بالذات، بل إنّ صلات "المتمهّل Temporisateur" ببلاد الإتروسك، قد فتحت أمامه آفاقًا أوسع. فهو الذي كرّس الجبل "إيريكس éryx" الذي كان في ما مضى حصن السيطرة البونيقيّة في غربيّ صقليّة، معبدًا لفينوس الإيريكسيّة "Vénus Erycie"، فكانت هذه الإلهة المتعدّدة العنصريّات، وهي صقليّة متأثّرة إلى حدّ بعيد بعشترت الفينيقيّة وأفروديت اليونانيّة، الإلهة الأولى التي قام معبدها داخل النطاق الرومانيّ. وفي السنة ٢١٦ قبل الميلاد أُوفِد أحد أعضاء طائفتها، المؤرّخ "فابيوس بيكتور"، لاستشارة هاتف الغيب في دلفي، ولم يُهمَل شيء ممّا أوصى به هذا الهاتف. وقد حظيت عبادة أبّولون العرّاف آنذاك بنفوذ كبير. فأُرسِلت بانتظام إلى دلفي قرابين من أصل الغنائم المجموعة من العدوّ. وفي السنة ٢١٢، وبموجب نبوءة اكتُشفت في مجموعة صودرت في السنة السابقة وأيّدتها استشارة كتب العرّافة، نُظّمت إكرامًا للإله ألعاب أثارت الحرارة الشعبيّة، وما لبثت أن أصبحت سنويّة. ومنذ البداية اعتُمد الطقس اليونانيّ بشكل صريح بصدد الذبيحة التي تفتتحها. فقد كانت اليونان متّصلة بآسيا الصغرى، ومنذ زمن بعيد كان لأسطورة "إينه Enée" التي تربط روما بطروادة، صفة رسميّة. وهكذا، في أواخر الحرب، وبغية استمالة طالع جديد إليها، قبيل حملة شيبيون على أفريقيا، قرّ الرأي على الاقتباس عن عالم غير العالم اليونانيّ. وقد جاءت فكرة هذا المسعى عن كتب العرافة أيضًا، التي أضاف إليها هاتف الغيب في دلفي نصائح عمليّة. وفي السنة ٢١٤، عاد وفد يرئسه شيخ تولّى في ما سبق منصب القنصليّة

مرّتَين، من "فريجيا Phrygie" حيث حصل في "بسّينونتي Pessinonte" بفضل الملك البرغاموسي "أطال الأول .Attale 1er" على "الحجر الأسود" رمز "سيبيل Cybèle" "أمّ الآلهة" و"الأمّ الكبرى" في جبال "إيدا Ida". وعملاً بما فرضه هاتف الغيب، حمل أفضل "رجل في المدينة"، وكان "ب. كورنيليوس شيبيون نازيكا" في نظر المجلس، حمل الإلهة من المركب إلى شاطئ "أوستيا Ostie" ورافقتها "السيّدات الرومانيّات الأولى" إلى روما حيث احتلّت مكانها، هي أيضًا، داخل "النطاق" الرومانيّ. ولا سبيل لنكران أهميّة هذا الحدث الشهير الخالد الذكر. فللمرّة الأولى تنظّم في روما عبادة إلهة شرقيّة؛ وقام بخدمة معبدها خصيان فريجيّون كانوا يتجوّلون في الشوارع، أيّام الأعياد، بأزيائهم، وينشدون ترانيمهم القوميّة الغريبة. غير أنّ احتياطات قد اتّخذت لمنع عبادة "أتيس Attis" الشبيهة، إلى حدّ كبير بـ"سيبيل"، ولتحظير الانتماء إلى الإكليروس على المواطنين. لكنّ الخطوة الأولى قد خُطيت وستعقبها خطوات لن تحدث فورًا. فغداة الحرب بدا النظام المجلسيّ أقلّ حفاوة، ولعلّه خشي انتقال العدوى إلى الجيوش المرسلَة إلى اليونان وآسيا. وما لبثت مقاومة العادات الجديدة، التي تجسّدت في "كاتون" وتأيّدت في حقبة تسلّمه منصب قاضي الإحصاء، أن ظهرت على الصعيد الدينيّ. وتظهر هذه المقاومة في فضيحة الرقصات الخلاعيّة، حيث لا يزال الغموض محيطًا بنقاط متعدّدة، على الرغم من جهود المؤرّخين، لكنّ ملابساتها الكثيرة لا تحول دون بقائها قضيّة دينيّة في الدرجة الأولى. ففي السنة ١٨٦ قبل الميلاد اكتشفت الشرطة الحكوميّة، أو تظاهرت بأنّها اكتشفت، أنّ أسرار ديونيسيوس قد حقّقت تقدّمًا مخيفًا في جميع أنحاء إيطاليا الجنوبيّة وتسرّبت إلى روما نفسها، وأنّ فجورًا مخزيًا يُقترف فيها مقترنًا بالاختلاسات والتقتيل، وأنّ المؤامرات تُعدّ فيها لا لإفساد الأخلاق فقط، بل لإفساد المجتمع والدولة أيضًا. فتوالت آنذاك، طيلة خمس

سنوات، التحقيقات والوشايات والاستجوابات وأعمال التعذيب. وانفجرت أعمال القمع، فدخل السجون نحو سبعة آلاف شخص، وقُضي على عدد كبير بالإعدام بعد محاكمة سريعة. وليست الكتب البيثاغوريّة دون هذه القضيّة مغزًى، مع أنّها دونها عنفًا. وكانت روما حتّى ذالك العهد، قد أفسحت في المجال أمام البيثاغوريّة، تلك الفلسفة المتشعّبة بصوفيّة حافظت، على الرغم ممّا اعترضها من صعوبات، على حيويّتها في إيطاليا الجنوبيّة، ولا سيّما في "طارنتا". ومن حيث أنّها لم تنفّر الرومانيّين، فمن المرجّح أنّ تلطيفات ملموسة قد أُدخلت عليها. ومهما يكن من الأمر، فإنّ التقليد قد جعل من الملك "نوما" تلميذًا مباشرًا لبيثاغور. ولعلّ "كاتون" نفسه، قبيل السنة ٢٠٠ قبل الميلاد، حين مرّ في طارنتا، أعار أذنًا صاغية لبعض الأحاديث. ومع ذلك، ففي السنة ١٨١، حين اكتُشفت في أحد المدافن، نصوص بيثاغوريّة تعزوها إحدى الكتابات إلى نوما، كان كافيًا للمجلس أن يعلنها، بعد الاطّلاع عليها، متنافية والديانة الرسميّة، حتّى يأمر المجلس بإحراقها دون أن يقرأها أحد.

منذ إدخال سيبيل وتوسّع المصالح الرومانيّة، لم تعد المسألة موضوع الآلهة الذين كيّفتهم ونقّتهم الحضارة اليونانيّة الكلاسيكيّة، بل أصبحت موضوع أولئك الذين حوّلهم العالم الهلّينيّ وتبنّاهم إرضاء لفرديّته المخالفة للصواب، وأولئك الذين توفّق العالم الشرقيّ إلى إبقائهم بعيدين عن كلّ تأثير يونانيّ، أحيانًا. وكان من المعترف به، في القرن الأوّل، أن تتلقّى الشخصيّات الرومانيّة المرموقة، إذا ما مرّت في أثينا، مبادئ أسرار "إليوسيس Eleusis"، لكنّ هذا لم يعد كافيًا، إذ إنّ الأمر الذي لا مفرّ منه قد أخذ بالظهور. وقد قارن بعضهم قضيّة الرقصات الخلاعيّة بالاضطهادات التي سوف تتناول الديانة المسيحيّة. لكنّ بعض الباحثين يرى أنّ المقارنة عرجاء. إذ إنّ المحاكمة الأمبراطوريّة ستلاحق الديانة المسيحيّة كديانة، بينما لم يتجاسر مجلس الشيوخ، في

السنة ١٨٥ قبل الميلاد، على تحريم ممارسة الطقوس "الديونيسيّة" على المؤمنين الزاعمين بأنّها مفروضة عليهم بنذر شخصيّ. فقد أجازها لجماعات محدودة "يجب ألاّ تتجاوز رجلَين وثلاث نساء، لا يخضعون لتنظيم ولا تربطهم عهود متبادلة"، ملزمًا إيّاها بـ"الإعلان عن نفسها للسلطات وبالحصول على موافقتها بحسب القانون". لكنّ هذه التسوية انطوت على مُحال هو استمرار الرقابة الشديدة. فعفّ الدهر على المرسوم المجلسيّ، وفي أواخر العهد الجمهوريّ، احتُفل بأسرار ديونيسيوس في منازل كثيرة من "بومبيي". وفي زمن قيصر، قامت في روما طوائف بيثاغوريّة على جانب ملحوظ من التأثير. وإنّ وجود عبادات شرقيّة مختلفة في إيطاليا لأمر ثابت؛ فمنذ الحملات على "ميتريدات" استورد الجنود عبادة عرفوها في آسيا هي "العبادة الدمويّة للإلهة الكادوكيّة "ما Mâ"، التي أسرعوا وأطلقوا عليها اسم "بلّونا"، وكان كهنتها أثناء العيد، وفي وسط الشارع، يُنشدون الأناشيد ويجرحون أجسامهم بالفأس المزدوجة التي ترمز إلى الإلهة؛ وقد اكتُشفت في أحد معابدهم أوان خزفيّة ملأى باللحم البشريّ. ومنذ القرن الثاني عرفت روما عبادات "سيرابيس Sérapis"، وإيزيس الإسكندريّة في "ديلوس"، حيث يتعاطى التجارة إيطاليّون كثيرون، وفي "بوزوليس"، المرفأ الرئيسيّ في إيطاليا؛ ثمّ تدخل عبادة إيزيس إلى روما في عهد "سيلا". ثمّ يدخل "ميارا" نفسه إيطاليا بواسطة قراصنة كيليكيّين سابقين وجنود اشتركوا في حملات بومبيوس الشرقيّة. ولعلّ صمت المصادر حيال آلهة آخرين من قبيل المصادفة لا من قبيل وجودهم في إيطاليا. ومهما يكن من أمر فإنّ روما قد اجتذبت إليها، في عهد مبكّر، عرّافين ومنجّمين شرقيّين لا يخامرهم شكّ في أنّهم سيجدون فيها زبنًا كثيرين. ومن الثابت أنّ الدولة قد تحاشت أن تتبنّى أيًّا من هذه العبادات تبنّيًا رسميًّا. لا بل إنّ المجلس قد اتّخذ أحيانًا تدابير بوليسيّة سريعة الزوال، كطرد المنجّمين في السنة ١٣٩،

وفي أواسط القرن الأوّل قبل الميلاد أصدر المجلس أوامره تكرارًا بهدم معابد إيزيس التي شوهدت حتّى على الكابيتول. ولكنّ ذلك لم يكن سوى استيقاظات باطلة، ونادرة على كلّ حال. فباستثناء عبادة "ما ـ بلّونا" ستعرف هذه العبادات الشرقيّة، وعبادات أخرى كثيرة، في تاريخ لاحق، نجاحات مدهشة واسعة جدًّا. وإن لم تكن في العهد الجمهوريّ إلاّ في بداياتها[1].

في الواقع، بعد أن اتّسعت الأمبراطوريّة الرومانيّة استوعبت كلّ ما صادفته من آلهة. وكانت هذه العمليّة تسمّى، من الناحية الدينية، "التأويل الرومانيّ"، أي الفهم الرومانيّ لآلهة الأجانب واعتبارها آلهتها الخاصّة. ولا بدّ أن نتذكّر، في المقابل، أنّه كانت هناك عمليّة تناظر هذه العمليّة، وهي قيام المقاطعات باستيعاب آلهة الرومان لتصبح آلهتها الخاصة. وتقدّم لنا مقاطعة بريطانيا مثالاً جيّدًا على هذا، فقد كان هناك عدد كبير من الآلهة الكلتيّة، بعضها آلهة محليّة تمامًا، وبعضها الآخر عرفته عن طريق أوروبّا. وهذان النوعان من الآلهة متشابهان في ذاتهما وفي اتّجادهما مع مجمع الآلهة الرومانيّ، ففي "باث"، وهي مدينة في جنوب غرب انكلترا، اتّحدت آلهة الينابيع الحارّة "سوليز Sulis" مع "مينيرفا Minerva"، وكان التصميم الهندسيّ لمعبدها كلاسيكيًّا، أمّا النحت فكان مختلفًا. وفي مدينة "ليدني" على نهر "سفرن Severn"، نجد أنّ "نوديس Nodes" الذي حفظته لنا الأساطير باسم الملك "لير"، كان من نصيبه معبد جميل في القرن الرابع ميلاديّ. وأصبحت "برغنتيا Brigantia" في الشمال، حوريّة البحر "مابونُس Maponus"، أو "مابون Mabon"، واتّحد "إله الشباب" مع الإله "أبولّو"، وكان من الطبيعيّ أن يقدَّم الإله "مارس" ليكون ربًّا للجنود بهويّات مختلفة. وكان

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريتها، ٢: ٢١٣ ـ ٢١٥.

الرومان أحيانًا يمجّدون إلهًا محليًّا مثل "جانيوس Genius" أو "روح المكان". وتحوّلت الآلهة الكلتيّة الأمّ إلى ربّات القدر، أما جوبيتير، أفضل الآلهة وأعظمهم، فقد أصبح له مكانة هامّة في العبادة الكلتيّة الرسميّة. وكان من الطبيعيّ أن توجد عبادة للأمبراطور، ولا يزال من الممكن مشاهدة مباني معبد "كلوديوس" في مدينة "كولشستر Golchester" جنوب شرقي إنكلترا في مقاطعة "إسكس". وفضلاً عن ذلك، فقد جلب الجنود والتجّار معهم أنواعًا مختلفة من عبادات الشرق، مثل عبادة الإلهة "مترا"، والإله "أبّولّو" من "دولخي Doliche"، و"إيزيس" و"سيبيل" والآلهة السوريّة[1].

كلّ هذا السيل الجارف من عديد الآلهة ومناسك عباداتها وطقوسها الغريبة الطابع، سواء أصدرت من الشرق عامّة، أو من الشرق الخاضع لسلطة روما وسيادتها، أو من الشرق الأبعد ممثّلاً ببابل وإيران، الخاضعتَين للفارثيّين، اندفع نحو الغرب، فأغرق إيطاليا وروما بسيله ليتجاوزهما أبعد إلى الغرب: إلى الولايات اللاتينيّة اللسان واللغة. فما من إله شرقيّ قطّ، إلاّ ونرى أتباعه ومريديه يروّجون له لدى جميع الشعوب، وفي كلّ صقع وناد، جاهدين لكسب المزيد من المريدين. فمن الغرب الأقصى إلى أصقاع بانونيا في شرقيّ أوروبّا، نرى أفرادًا في الجيش الرومانيّ من أصل عربيّ يُحيون مناسك آلهتهم الوطنيّة ويقيمون مراسم عبادتها، كالإلهة "ثياندرس"، و"مناف". ومن الثابت كذلك أنّ بعض المواطنين الرومان من الأفارقة أصلاً، أدّوا خدمتهم العسكريّة، في الفرقة "التدمريّة"، فأدخلوا طقوسهم الدينيّة إلى بلدة "القنطرة" في المغرب، ومنها جنوبًا إلى لاغوات، وقدّموا نذورًا لإله بلميرا: ملاغبيل. فمن غير تعداد هذه الطقوس والعبادات المختلفة، نقتصر على تلك التي لقيت عبادتها رواجًا أكبر. "فربّة الآلهة"

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

سيبيل، الفريجيّة الأصل، جرى توطينها في روما منذ نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، إلاّ أنّ عبادتها وتكريمها وفقًا للطقوس الشرقيّة، لم تصبح رسميّة إلاّ في عهد الأمبراطور كلوديوس، عندما أدخل إلى روما عبادة الثالوث الذي تألّف من ابنها وعشيقها أتّيس. وقد احتاط الأمبراطور للأمر عندما راح ينظّم هيئة الكهنة الذي عهد إليهم بالكهانة لهذه الإلهة. إلاّ أنّ أهمّ مادّة في هذا التنظيم بقيت حبرًا على ورق: ففي الحين الذي كان فيه "القوّامون Atchigalles" على هذه العبادة يُختارون من بين المواطنين الرومان، وتجري تسميتهم في روما، من قِبَل مجلس الشيوخ، وفي الملحقات، من قِبَل الإدارة المحليّة، ليتولّوا رئاسة خدمة المعابد، كان هناك عُمُدًا Galles من الخصيان، يمارسون، بالرغم من الشرائع والقوانين التي كانت تمنع الخصاء وتحرّمه، هذه المراتب الدينيّة في بلدان لا تقع في آسيا، وهي القطر الوحيد الذس سمح بقيام هؤلاء الخصيان بمثل هذه المراسم. وكان هؤلاء الكهّان يحتفلون بهذه الطقوس، علانية في شوارع المدن خلال فصل الربيع، في مواسم يستمرّ الاحتفال بها ثلاثة عشر يومًا متواصلاً. وكان يسبق هذه الأعياد مراسم من الصوم، وطقوس من التطهير تشبه تلك التي تذكّر بقصّة أتّيس وما إليها من نوح النائحين وندب النادبين، وتشويه العباد أجسامهم بصورة وحشيّة تقشعرّ لها الأبدان، خلال حفلة الجنائز، مع تمازج قهقهات صاخبة من الضحك خلال تمثيل عمليّة قيامها من بين الأموات. والحفلة الوحيدة المعروفة تفاصيلها بالتدقيق، هي تلك الحفلة التي كان يرافقها ذبيحة الثور Taurobole أو الكبش Criobole، إذ كانت ترمز إلى انتقال عنصر الحياة من الضحيّة إلى الإنسان الذي يُنضح بدمائها، فيكون ذلك عربونًا لخلوده، ويُرمز إلى دفنه في القبر بوجوده في حفرة، وإلى تنقيته من أدران الخطيئة وتجدّده ثانية. كما أنّ في ذلك إشارة إلى الولاء السياسيّ وإن كنّا نجهل وجه

الرمز في هذه الضحيّة التي كثيرًا ما تقدَّم لخلاص الأمبراطور، وأحيانًا لخلاص أفراد أسرته[1].

وكان يشارك سيرابيس في هذه العبادة، الإلهة المصريّة إيزيس التي ما لبثت أن تغلّبت عليها. فبعد أن حظّر كلّ من أغسطس وطيباريوس الاحتفال بمراسم هذه العبادة في روما، راح كاليغولا يعترف لها بحقّ المواطنيّة. ومنذ ذلك الحين احتُفل بأعيادها وطقوسها بكلّ حرّيّة دون أن يثير الاحتفال بها أيّة معارضة. وما أن أطلّت سنة ٦٩ حتّى كان لها هيكل ارتفع على هضبة الكابيتول. واضطرّ يومًا الأمبراطور دومتيانُس إلى أن يتنكّر بزيّ أتباع إيزيس لينجو من مطاردة جنود خصم أبيه له. وكانت مناسبة الاحتفال بأعيادها مجلبة لحشود شعبيّة ضخمة، ويقوم على مراسمها طغمة من الكهّان بثيابهم البيضاء، حالقي الشعور، يسيرون وئيدًا ويقيسون خطاهم على وقع أنغام المزمار والقيثارة. فتعتري الجميع هزّة من الغبطة والفرح بعد بكاء إيزيس وذرفها الدموع سخينة على جسمان أوزيريس. وكانت تُقام مع هذه الاحتفالات أسرار من شأنها تأمين الحياة في دار البقاء للمريدين. وإذ كانت هذه الطقوس تفرض على المؤمنين واجبات قاسية وفرائض شديدة من الوضوء والتطهيرات، كالاستحمام في مياه نهر التيبر خلال فصل الشتاء القارص، فقد كانت، من جهة ثانية، تعبيرًا، ولا شكّ، عن كفّارة تعيد إلى الخطأة نقاءهم الروحيّ. وكانت إيزيس تبرز للناس: الإلهة المثلى بين إناث الآلهات، وذلك حسبما تُصوّرها التقاليد المتوارثة، في حنانها الأموميّ وضراعتها القويّة. وكان أتباعها يقومون بعمليّة إزالة هذه الفوارق في ما هو لصالح هذه الإلهة. فقد كانت إيزيس القادرة الوحيدة التي تعمّ عبادتها الأرض كلّها بأشكال

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريّتها، ٢: ٤١٣ ـ ٤١٤.

مختلفة، وطقوس متباينة، وتحت مسميّات لا حدّ لها ولا عدد، بعد أن عُرفت بأسماء: سيبيل، ومنيرفا، والزهرة، وديانا، وبروسيربين، وسيريس، ويونون، وبلّونا، وهيكاتا، ونميزيس.

ومن العبادات الشرقيّة التي تسرّبت إلى الغرب، عبادة الإلهة السوريّة "أترغاتيس هيرابوليس"، وقد راحت زمرة من الخصيان تطوف المقاطعة تجمع لها، على نغم المزمار، التقادم والعطايا التي يجود بها المتعبّدون. كذلك عبادة الإله الساميّ الأصل: "بعل"، بأشكاله وصوره المختلفة، منها "بعل حمص" الذي رُفع، لحقبة قصيرة، إلى مصافّ الآلهة العظام في الأمبراطوريّة، وعقد قرانه على الإله "شلستس"، أي "تانيت" إلهة قرطاجة، وذلك بفضل عبادة وغيرة رئيس أحبارها "إيلاغابال Elagabal" الذي تولّى، من سنة ٢١٨ – ٢٢٨م مقاليد الأمبراطوريّة الرومانيّة. إلاّ أنّ التطوّر العظيم الذي عرفته هذه العبادة في ما بعد، يحمل الباحث على التنويه هنا باسم الإله "ميترا Mithra"، وهو إله فارسيّ المنشأ ومن المرتبة الثانية بين آلهة الإيرانيّين القدامى. وقد تطوّرت عبادته في ما بعد بما أُضيف إليها من لواحق وزوائد اقتُبست من الطقوس الآسيويّة الساميّة. وقد تجلّى للناس كالنور والشمس، وارتبط اسمه بالنظام الكونيّ، يحمل بين يدَيه الظفر والخلاص، كما يهب الفضائل الكبرى: كالحقيقة، والولاء، والإخاء، واحترام القَسَم. وقد انتشرت عبادته فعمّت جميع أنحاء الأمبراطوريّة، وأُقيم له، بفضل العناصر الشرقيّة العاملة في الجيش الرومانيّ، من الهياكل والمعابد ما يُعجب لكثرتها في ضواحي نهرَي الرين والدانوب. وقد كان له بالطبع أتباعه ومريدوه الكثر في روما، بحيث أنّ الأمبراطور "كومود" اهتمّ بأن يشترك في أسرار عبادته وأن يدخل عضوًا في هيئاتها. وكثيرًا ما كانوا يعبدونه في المغاور والمنحنيات المعزولة عن الناس، فتبرز ناتئة صور الإله الشاب مرتديًا ثيابًا شرقيّة ومعتمرًا قبّعته الفريجيّة

بعد أن أناخ إلى الأرض ثورًا ضخمًا وأدماه. وبعد مدّة طويلة من الاختبار يمرّ بها المُريد، يخضع لمراسم أشبه ما تكون بمراسم العماد، وإذ ذاك فقط يحقّ له الاشتراك عمليًا بالاحتفالات الطقسيّة وما يتخلّلها من ولائم. وكان يترتّب على الضالعين في أسرار هذا الإله، أن يتحلّوا بالصبر، ومجالدة النفس، وطول الأناة بحيث يُسهمون في إعلاء الخير على الأرض، لينالوا الغفران الذي عرفوا أن يستحقّوه يوم الدينونة العظيم، برئاسة الإله ميترا. وهذا النجاح العظيم الذي لقيته عبادة هذا الإله جاء صدمة عنيفة للعُرف العامّ في روما، إذ جاء دليلاً على مدى النوازع الدينيّة في الأمبراطوريّة الرومانيّة وإقبالها بتوق، على تمجيد وتبنّي إله، وتعاليم دينيّة اقتبستها من إيران، وهي إذ ذاك أعدى أعداء الأمبراطوريّة الرومانيّة، وبالرغم من ذلك فقد نال ذلك الإله إحاطة بمظاهر من التبجيل والتكريم، ونال بين آلهة روما محلاً رفيعًا. وقد حملت عبادة هذا الإله الأجنبيّ المنشأ والغريب الأصل، معها، للنفوس العطشى وللقلوب الظمأى، تقوى حيّة وسُموًّا في الآداب والأخلاق لم يُعرف له مثيل عند الرومان من قبل. ومنذ القرن الثاني أصبح الوثنيّ شخصًا يكاد لا يُميّز، فهو إنسان يختلف تمامًا عمّا كان عليه في زمان "كاتون"، حتّى وفي عهد أغسطس نفسه[1].

طقـــــوس

العبَادة العامّة

كانت غاية العبادة العامّة عند الرومان عمومًا، الحفاظ على التوازن، أو ما دُعي بـ"الصلح مع الآلهة". فإذا ما حدث أن اختلّ ذلك التوازن بفعل خطيئة بشريّة لم يعلم

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريتها، ٢: ٤١٥ ـ ٤١٦.

بها أحد، فإنّ الآلهـة يُظهـرون استياءهم الحقّ بـالمعجزات. ولـم تتطـوِ هذه الأخيرة، بحسب مفهومها الأوّل الذي لم يتبدّل قبل أواخر الألف الثالث، علـى أيّـة دلالـة طبيعيّـة على المستقبل؛ وليس من مفسِّر يستطيع أن يقرأ فيها مستقبلاً لا تنبئ بـه. فـلا معجـزة مفيدة إذن. بـل كلّهـا: الصاعقـة، والفيضـان، ومطـر الحجـارة، وولادة المسـخ الغريـب الشكل، وعرق أو حركة التمثـال فـي المعبـد، وصعـود الثـور إلـى السـطح...، تشـير، بانقطاع مجرى الأمور الطبيعيّ، إلى الغضب الإلهيّ. فيقدّم بها أحد القضاة تقريرًا إلـى مجلس الشيوخ الذي يتّخذ القرارات، أو يشكّ فـي علمـه، فيلجـأ إلـى الأحبـار أو الهيئـة الموكول إليها أمر استشارة كتب العرافة أو مستطلعي أمعاء الضحايا، وينتظر أجوبتهم للتداول فيهـا. وهكذا تصـدر الأوامـر بإقامـة احتفـالات التطهير والتكفير التـي تشكّل "علاج" المعجزات وتعيد الصلح. وقد كان من الأفضل، في سبيل تجنّـب التـأزّم، إذ إنّ كلّ شيء يتمّ وفقًا لإجراءات حازمة، الانتباه بعناية ودون ملل إلى تأدية كافّـة واجبـات الجماعة نحو الآلهة. فانصرفت السلطات إلى تأمين ذلك. وكان لكـلّ معبـد عـامّ نظامـه الذي حـدّده العـرف للقدمـاء، و"قـانون" حقيقـيّ للجـدد، وفصـل الأحبـار فـي صعوبـات التفسير. فكانت النتيجة طقوسًا لا يُحصـى لها عـدّ، عجـز النـاس منـذ زمـن بعيـد عـن فهمها، كما أنّ العلماء المعاصرين أبعد من أن يفهموها فهمًا أفضل.

فهنالك في الدرجة الأولى، الذبيحة، أي تقدمة الغذاء للإله. ليس من ريـب فـي أنّ الذبيحة البشريّة قد اعتُمدت في العصور القديمة. وقد عـادت إلـى الظهـور بيـن الحيـن والآخر. ففي السنة ٢١٦، تحت تأثير القلـق الـذي أثارتـه كارثـة "كانـا" وبعـد استشـارة كتب العرّافة، دُفن زوجان، يونانـيّ وغاليّ، لا يزالان على قيد الحياة. لكنّ هذه الضحايا البشريّة ليست دمويّة، فقد اكتُفي علـى العموم، بظواهـر خدّاعـة كالأشـخاص الخشـبيّة السبعة والعشرين التي أُلقي بها في نهر التيبر أثناء عيد "الأرجيـه Argées"، ولـم يُذبـح

سوى الحيوانات المختارة. فلكلّ إله تفضيلاته ولكلّ احتفال تقاليده في ما يعود للنوع واللون والجنس والسنّ، كأن يكون الحيوان لا يزال رضيعًا، أو نبَتت أسنانه العليا والسفلى، أو بلغ أشدّه..؛ ففي احتفال التطهير العامّ الذي جرى في ظروف مختلفة، فرض "مارس" ذبيحة قوامها خنزير ونعجة وثور. ولم تقدِم الدولة، شأن الأفراد، على الإستعاضة عن الحيوانات بأشكال من الخبز والشمع. ولكن كانت ترافق ضحاياها قرابين أخرى، مثل الزهور والسنابل والطحين والحلويّات والحليب والعسل والنبيذ... وليس لكلّ ذلك من قيمة، على كلّ حال، إلاّ إذا لم يبدِ الإله استعدادات مضادّة بإشارات غير موافقة، كتلك التي يستطيع الاختصاصيّون إبصارها جليًّا بفحص أمعاء الضحايا. ومن المهمّ جدًّا، فوق كلّ ذلك، ألاّ يُرتكب أيّ خطأ أو إهمال في القيام ببعض الإيماءات واستخدام بعض الصيغ في الصلوات والنذور. بينما يتوجّب على الحاضرين المحافظة على صمت مطلق. ومن شأن أقلّ إخلال بهذه الشروط أن يجرّ إلى بطلان العمل وإيجاب إعادته.

وهنالك الأعياد، الثابتة أو المتنقّلة، التي يعود أمر تحديدها للأحبار. فقد ورد ذكر خمسة وأربعين عيدًا في الروزنامات الكتابيّة المحفوظة، ولا تُحجم الدولة عن التدخّل، مكتفية بنشاط الأفراد، إلاّ في عدد ضئيل منها. وقد تنوّعت الطقوس بصدد الأعياد بنوع خاصّ مضاعفة المراسم المختلفة المنشأ والدقيقة التفسير. فلنأخذ مثلاً، بين أمثلة أخرى كثيرة ليست دونه غنى بالألغاز والأحاجي، طقوس "حصان تشرين الأوّل - أكتوبر" في عيد "الأكويريا" الذي يُحتفل به في الخامس عشر من هذا الشهر، إكرامًا للإله مارس. وفيه يقلّد جيد الحصان الأيمن في العربة محرزة السبق عقدًا من الخبز، ويذبح كاهن مارس الخاصّ الحيوان الذي يتنازع رأسه سكّان محلّتَين بغية إثباته في هذا البناء أو ذاك، ويحمل العدّاؤون الذنب إلى منزل الحبر الأعظم حيث يرفعونه فوق

الموقد حتّى يتساقط دمه عليه. وتحتفظ الفيستاليات بما تبقّى من الدم مع رماد الحملان المستخرجة من بقرات مذبوحة في عيد آخر، مع العلم أنّ هذا الرماد نفسه يُستخدم لتطهير المواشي في عيد ثالث. ولن يعجب أحد من التردّد والإقرار بالجهل حين يتوجّب تفسير طقوس على هذا التعقيد.

ألفت الألعاب المشهد الرئيسيّ، والوحيد أحيانًا، في الأعياد التي كانت تجري فيها. ويثير كلّ منها مسائل شائكة جدًّا في أغلب الأحيان: تاريخ ظهورها كألعاب غير اعتياديّة، ثمّ تقريرها كألعاب عاديّة؛ طقوسها الأولى وتطوّرها، منشأ ومغزى العناصر القديمة في هذه الطقوس... لقد جاز التقليد في العهد الملكيّ تأسيس أبعد الألعاب قدمًا، "الألعاب الرومانيّة" إكرامًا لجوبيتر الكابيتوليّ، التي بقيت أبدًا "الألعاب العظيمة" وحتّى "العظمى" والتي من أجلها شُيّد "الملعب المستدير الأعظم". وكانت الألعاب ذات طابع دينيّ فقدته أخيرًا كما حصل في اليونان. وأضحت مجرَّد مَشاهد. وظهرت أيضًا في العبادة الرومانيّة "الألعاب الشعبيّة" إكرامًا لأبّولون وسيريس والأم الكبرى Grande Mère وفلورا. وفي أواخر العهد الجمهوريّ غطّت الألعاب العاديّة خمسة وستّين يومًا من أيّام السنة. وأكملتها ألعاب ظرفيّة بعضها عامّ "ينذَر" خلال الحروب والبعض الآخر خاصّ كالألعاب "المأتميّة" إكرامًا للموتى. أمّا الألعاب "القرنيّة" المعدَّة لافتتاح قرن جديد، ولكنّ طرائق الحساب عديدة، فلم تبلغ بعد الشأن والروعة اللذَين سيعطيهما إيّاهما أوغسطس.

تلك هي طقوس العبادة الرئيسيّة في الجمهوريّة الرومانيّة. لقد كانت هنالك طقوس كثيرة غيرها، كزيارة المؤمنين المعابد طيلة أيّام عدّة بغية استنزال إنعامات الآلهة على المدينة، أو بغية تأدية الشكر لهم؛ والمآدب المقدّمة لإله أو عدّة آلهة، والتي يشترك فيها القضاة والكهنة والمواطنون العاديّون أيضًا؛ والمآدب المقدَّمة للآلهة الغرباء حيث

توضع رسوم الآلهة وفاقًا للجنس، على غرار الآدميّين، على أسرّة أو على كراس؛ والوسادات التي توزّع عليها هذه الرسوم بغية السماح لها بمشاهدة الألعاب أو السماح للمؤمنين بتأدية واجب الاحترام لها، وغير ذلك كثير[1]...

بيد أنّ موجة من التديّن القلق، قد عمّت الطبقات الدنيا، بنوع خاصّ، بعد إدخال الآلهة الغريبة إلى روما. فهي بفعل تألّمها أكثر من غيرها، قد شعرت أكثر من سواها بحاجة إلى التأثّر والوعود. أضف إلى ذلك أنّها كانت على اتّصال يوميّ ووديّ بعبيد ينتمي الكثير منهم إلى الشرق. وقد بدا هذا الميل نفسه خطرًا للحكّام. لقد اعتبروا الديانة أمرًا ضروريًّا للشعب. فمنذ أواسط القرن الثاني، لم يتردّد بوليب، الذي عاش قريبًا من شيبيون إميليانوس، في أن يرى في العبادات الرومانيّة بناء صنعيًّا مصممًا خير تصميم لخير الدولة والمجتمع: "يُخيَّل إليّ... أنّ الوجل الخرافيّ يحمي مصالح روما... وبتنمية هذه العاطفة، إنّما فكّروا بالشعب في الدرجة الأولى. قد لا يكون هذا الاحتياط ضروريًّا في دولة لا تضمّ سوى العقلاء؛ ولكن لمّا كانت الجماهير تتّصف بتقلّب الرأي والأهواء المشوّشة والأحقاد العنيفة وغير المتبصّرة، تستحيل السيطرة عليها إلا بالخوف من كائنات غير منظورة، وبشتّى أنواع الأوهام". وقد نجد هذه الفكرة عند كثيرين غيره بأقلّ وقاحة في التعبير. لكنّ العبادات الغريبة، من حيث هي تتوجّه إلى مؤمنيها دونما اهتمام للأطر الاجتماعيّة التقليديّة، كانت في نظرهم خطرًا ممكنًا على النظام الضروريّ للمجتمع والدولة. لذلك، قامت النخبة الاجتماعيّة، في ما يعنيها، بمجهود كبير للإبقاء على تنفيذ كافّة الطقوس. أمّا دلائل التخلّي التي يمكن ملاحظتها فنادرة، ولا أهميّة حقيقيّة لها: الإهمال في ترميم بعض المعابد، والشغور

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريتها، ٢: ٢٠٧ ـ ٢١٠.

المستمرّ، منذ آخر السنة ٨٧ قبل الميلاد، في منصب كاهن جوبيتير الخاصّ. وكان في القرن الثالث قبل الميلاد، قد قام بين المسؤولين أنفسهم، مَن يتظاهر بالإلحاد في ممارسة وظائفه بالذات، ولا يتقيّد بنصائح العرّافين. لكنّ مصلحة الدولة، خلال الحرب البونيقيّة الثانية، والتضامن الطبقيّ، بعد الحرب، وضعا حدًّا لهذه الجسارات، وإنّ احتقار قيصر للعراقيل الدينيّة التي أقامها، في السنة ٥٩ قبل الميلاد زميله في القنصليّة، في وجه قوانينه، يمثّل الشذوذ الوحيد عن القاعدة. ولكنّنا عبثًا نبحث عن تقوى حقيقيّة وراء هذه الظواهر المؤثّرة. فلم يقم في الأرستقراطيّة الحاكمة، على ما نعلم، أيّ مشايع للعبادات الشرقيّة بالذات، التي تركت الشعب؛ بل على نقيض ذلك، قام بعض الملحدين؛ وقام بنوع خاصّ تلاميذ مذاهب فلسفيّة تنظر إلى الآلهة التقليديّين كما إلى رموز أو خاصّيات. ويبدو شيشرون معبّرًا عن الحقيقة، حين يكتب في بحث عن العرّافة: "على العاقل أن يحافظ على عبادات الأجداد بالتقيّد بالعبادات والطقوس. ويرغمنا جمال العالم ونظام الأجسام السماويّة على الاعتراف بوجود كائن أزليّ يتوجّب على الإنسان إكرامه، والإعجاب به"؛ وهكذا فقد غدت الديانة حكمة سياسيّة من جهة، وتفسيرًا فلسفيًّا من جهة ثانية: لقد زال الإيمان من الديانة الرسميّة. وقد أعطى العالم الهيلّينيّ، باستمراره في ممارسة ديانة الأولمب القديمة، المثل عن هذه المواقف. ولكنّه أعطى كذلك، المثل عن المثاليّة الدينيّة التي توفّر للملكيّة مرتكزها، عن طريق الإنسان المتفوّق الذي يختاره الإله ويلهمه. وأنّى لروما من ثمّ أن تنجو من هذه العدوى؟ فقد سمح شيبيون الأفريقيّ، قبلاً، بأن تنتشر حول ولادته الإلهيّة أساطير مماثلة للأساطير التي انتشرت في ما مضى حول ولادة الإسكندر، وأمضى ساعات كاملة في معبد جوبيتير الكابيتوليّ يناجي "أباه" الذي ينعم عليه بنصائحه، فاتّهمته مصادرنا بالخداع. واقتفى الكثيرون أثره منذ أواخر القرن الثاني، على الرغم من عناد

عدد كبير منهم كانوا أشدّ اشمئزازًا من أن يحافظوا على أقلّ إيمان، وأبعد مهارة من أن يُهملوا التظاهر بأنّهم مختارون من اللّه منذ الأزل. واتّجه تفضيلهم إلى فينوس، والدة " إينه" وإلهة روما القوميّة. فعزا "سيلا" انتصاراته إلى فينوس "السعيدة"، وتبنّى هذا اللقب لنفسه؛ والتمس بومبيوس النعمة من فينوس "المنتصرة"؛ وأدّى قيصر بأبّهة العبادة لفينوس "الأمّ"، إذ إنّ عائلته، آل جوليوس، تنحدر منها مباشرة. وهكذا، فبينما كان كلّ شيء يخلخل الدولة الجمهوريّة، وحين لم يعد هيكلها الدينيّ سوى مجرّد ظاهر، تباهى أشدّ خصومها خطرًا، أمام الجماهير المستعدّة لأن تؤمن بكلّ معجزة، بالإنعامات الفائقة الطبيعة التي دانوا بنجاحاتهم لها. فانضمّ التطوّر الدينيّ من ثمّ إلى التطورات الأخرى في سبيل القضاء على النظام القائم[1].

كهَنَـةُ

الآلهَة

كانت مهمّة الدين تأمين رضا الآلهة عن طريق تقديم القرابين وتأدية الطقوس، وإقامة الاحتفالات المناسبة. وكان تقديم القرابين يتمّ بأيدي جماعة "الكهنة Pontifices". وكان لـ"الحبر الأعظم Pontifex Maximus" مكانة سياسيّة عالية، حتّى أنّ قيصر بطبعه المتشكّك، تولّى بنفسه هذا المنصب، فاختير عام ٦٤ قبل الميلاد رئيسًا أعلى للدين الرومانيّ. وكان يشترك في الخدمة مع "الحبر الأعظم" أربعة من كبار الكهنة هم "كاهن القرابين" و"كاهن جوبيتير"، و"كاهن مارس"، و"كاهن كويرناليس". وكان "كاهن جوبيتير" يخضع لمجموعة خاصّة من الممنوعات، فلا يجوز له أن يركب حصانًا، ولا

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريتها، ج ٢: ٢١٦ ـ ٢١٧.

أن يرى جيشًا، ولا أن يقسم يمينًا، ولا أن يضع خاتمًا في إصبعه أو رباطًا معقودًا، أو أن يخرج في الطريق حاسر الرأس، أو يستخدم الحديد في قصّ الشعر أو تقليم الأظافر، أو أن يسير تحت كومة، أو أن يلمس كلبًا... وتلك أمثلة قليلة للقيود الكثيرة التي يمكن أن نتعقّبها إلى معتقدات السحر. وهناك تقويم محكم نُشر رسميًّا عام ٣٠٤ قبل الميلاد، وإن كان تاريخه أقدم من ذلك بكثير، وهو تقويم بالأيّام التي يُسمح فيها أو يُمنع القيام بممارسة الأشغال العامّة، بحيث كان يُمنع العمل في أيّام الـ"فاستي Fasti" أيّ "الأيّام المقدسة". وكان من الضروريّ اختيار الضحيّة المناسبة لكلّ قربان، بحيث تُراعى الطقوس بدقّة، وتُتلى الصلوات المحدّدة. ومع ظهور الأمبراطوريّة عُيّن كهنة جدد لإدارة شؤون العبادة فيها.

وطائفة الكهنة العظام الآخرين هم "المتطيّرون Augurs" الذين كانت مهمّتهم تفسير إرادة "جوبيتير" بمراقبة تحليق الطير، كانت أعظم طوائف الكهنة نفوذًا هي جماعة هؤلاء العرّافين التسعة الذين يدرسون إرادة الآلهة، ومقاصدها، بمعرفة اتّجاه الطير في تحليقه، و"التطيّر" في اللغة العربيّة هو التفاؤل أو التشاؤم من حركة الطير. وكان ممّن يتحمّلون جانبًا من المسؤوليّة عن موضوع التطيّر، أو التنبّؤ بحركة الطير، "الفتيالي Fetiales" أو المفاوضون الدبلوماسيّون الذين كان اختصاصهم التصديق على المعاهدات، و"اللوبرسي Luperci" أو "إخوان الذئب" الذين يحتفلون بطقوس السنة الجديدة في شهر شباط (فبراير) من كلّ عام، و"الساليون Salii" أو الكهنة القافزون الذين كانوا يقومون على خدمة الإلهَين "مارس" و "كويرينوس Quirinus"؛ وكان هناك طائفة الخمسة عشر كاهنًا الذين كانوا يعنون عناية خاصّة بالكتب السيبيليّة Sabylline، وهي الكتب التي كانت الحكومة الرومانيّة تدّعي أنّها تعرف ما تريده الآلهة عن طريق الرجوع إليها، لأنّها سجّلت فيها تنبّؤات "سيبيل Sibyl" كاهنة أبّولّو. وكان هناك كهنة

آخرون هم "إخوان أرفال Arval Brethren" أو إخوان الريف، أو أصدقاء الحقل الإثنَي عشر، الموكول إليهم الإشراف على خصوبة الحقول، وقد بقيت ترانيمهم إلى اليوم. ومن الكهنة في ذلك العصر جماعة "تيتُس Titus" الذين يرعون طقوس "السابيّين sabine" القديمة، والسابيّون شعب قديم من أواسط شعوب إيطاليا حارب روما طويلاً، لكن في القرن الثالث قبل الميلاد أصبح أهله مواطنين رومانيّين[1].

تبنّت المدينة الرومانيّة من بين الآلهة الكثيرين عددًا كبيرًا، ولم تكفّ عن تبنّي آلهة جدد، دون أن ترضى، في أيّ حال، بالتخلّي عن إله قديم واحد. وقد تباهى أغسطس بأنّه أعاد بناء اثنَين وثمانين معبدًا في روما. وقد اقتضى للعبادات الرسميّة مَن يؤمّنها ويحتفل بأعيادها باسم الدولة. فعاد نصيب كبير من هذا العبء، كما في المدن اليونانيّة، إلى القضاة الذين هم الوارثون الرئيسيّون للسلطلات الدينيّة التي تمتّعت بها الملكيّة القديمة، لا سيّما حقّ استطلاع الحظّ وتقديم الذبيحة باسم الجمهور والتعهّد بالنذور التي تقيّده. وبينما كان للإغريق كهنة دائمون، كان لروما عدد كبير منهم. فإنّ أعضاء Sacerdoce لم يؤلّفوا إكليروسًا أو هيئة كهنوتيّة. فجماعاتهم قد بقيت مستقلّة عن بعضها. وكانوا جميعًا مكرّسين ترافقهم صفتهم الكهنوتيّة حتّى الموت. ومع ذلك فقد عاشوا في الوقت نفسه حياة المواطن العاديّة دون إيقاف نشاطهم السياسيّ الذي قد يرغمهم، مثلاً، على التغيّب عن روما وعلى تولّي قيادة أحد الجيوش. إلاّ أنّ وظائفهم لم تجعل منهم وسطاء بين المدينة والآلهة. فقد قاموا خصوصًا بدور القيّمين والمستشارين الدينيّين لدى السلطات العامّة. لكنّ هذه التأكيدات لا تنطبق على كافّة الأعضاء تمامًا. فقد مثّل الكهنوت الرومانيّ سلسلة من المؤسّسات المتلاصقة التي

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١١٩ ـ ١٢٠.

ظهرت في تواريخ مختلفة واستجابت لرغبات مختلفة بمصادرها ومبادئها وتنظيمها. لا بل يجوز القول إنّ الكهنوت بجميع فئاته قد خضع لتطوّر عامّ، فكان للتطوّر سرعته الخاصّة في كلّ من الفئات التي تناولها، وقد تملّص بعضها منه.

بالإضافة إلى الجماعات الكهنوتيّة التي ذكرنا، كان هنالك كهنوت فرديّ. وقد حافَظَ "ملك الذبائح Rex Sacrorum" على الصلاحيّات الدينيّة التي لم تنتقل إلى القضاة. وأشرف على الذبائح والولائم المقدّسة والأعياد، وليس هذا سوى دور تمثيل. وكان هنالك ١٥ كاهنًا خاصًّا أُفرد كلّ منهم لإله معيّن؛ وقد خدم ثلاثة منهم إلهًا عظيمًا، جوبيتير ومارس وكويرنيروس. وأُحيط "ديـاليس Dialis" كاهن جوبيتير، بأمجاد عظيمة، ولكنّه أُخضع، كما أُخضعت امرأته "الكاهنة" لمراسم عباديّة ملزمة جدًّا ولألف تقييد كما سبق وذكرنا، وتفسّر شدّة هذه المحرّمات، دون جهد، كيف أنّ هذه الوظيفة، في أواخر العهد الجمهوريّ، قد بقيت شاغرة طيلة ثلاثة أرباع القرن بسبب عدم تقدّم مرشّح إليها بين الأشراف الذين استُبقيت لهم. ومع أنّ الـ"فيستاليات Vestales" قد انتظمن في هيئة، فإنّهنّ قمن أيضًا بدور نشيط ككاهنات. كنّ ثلاثًا في البدء، ثمّ غدون ستًّا ترئسهنّ إحداهنّ "الفستاليّة العظمى"، وكانت مهمّتهنّ الرئيسيّة الانتباه إلى العناية بالنّار المقدّسة، رمز حياة المدينة، التي يجب أن تشتعل باستمرار في معبد "فيستا". وكنّ يُنتخبن صغيرات من العائلات الكبرى، ويُقمن في المعبد الذي يجب ألاّ يلجه رجل. وكنّ يؤدّين، من جهة ثانية، نذر عفاف، تعرّضهنّ مخالفته لأن تُدفنّ حيّات، في حال أنّ عقوبة السوط تكفي لمَن تكلَّف منهنّ العناية بالنار فتتركها تخبو. ولكنّهنّ، في سنّ الثلاثين يعدن إلى الحياة العامّة ويستطعن الزواج، كما سبق ذكره. أمّا أعضاء بعض الأخويّات، مثل الـ"لوبيرك Luberques" والـ"ساليّين Saliens" والـ"أرفال Arvales"... فقد احتفلوا بأعيادِ طقوسها قديمة جدًّا تستلزم التطوافات وسباقات العدو

والرقصات والأغاني. ولكنّ احتفالاتهم، في الحقيقة، ترتبط بالعباة العاديّة. وعلى نقيض ذلك، فإنّ هيئة العشرين قاضيًا وكاهنًا تكتفي بإيفاد بعض أعضائها للقيام بالطقوس التي لا حرب "عادلة وتقويّة" بدونها، أي معلنة وفاقًا لقواعد القانون الإنسانيّ والدينيّ، ولا معاهدة مقبولة شرعًا، فلإعلان الحرب يلقي أحدهم بقوّة نبلة لا رأس لها في أرض العدوّ، بينما يحمل آخر أعشابًا مقدّسة مجموعة من الكابيتول يسلّمه إيّاها أحد القضاة.

ولا تتعدّى الطقوس الظرفيّة أيضًا تلك التي يقوم بها، بفعل دعوة إلهيّة، الأحبار المجموعون في هيئة من ثلاثة أو خمسة أعضاء أوّلاً، ثمّ من تسعة ابتداء من القرن الثالث، وأخيرًا من ١٥ منذ سيلا، يرئسهم "الحبر الأعظم". وقد انطلق هؤلاء من وظائف وضيعة واعترف التاريخ القديم كلّه بأنّ اسمهم عنى "صانعي الجسور"، ويبدو هذا المعنى الاشتقاقيّ واجبًا على الرغم من تردّد بعض المعاصرين. فقد أُسندت إليهم أبدًا مهمّة العناية بجسر "سوبيسيوس" الوحيد والمهمّ جدًّا، الذي وصل ضفّتَي نهر التيبر، ويغلب أنّه بُني من الخشب فقط دون أيّة قطعة معدنيّة. ولكنّ تطوّرًا نجهله جعلهم يسامون في مصفّ حرّاس التقليد، ومفسّري الأنظمة، وقضاة القانون الدينيّ، ومنظّمي ومراقبي التعبّد الرسميّ. وبصورة خاصّة راقب رئيسهم الفيستاليات؛ وكانت مراسيم الهيئة حول الأخطاء الشكليّة ملزمة للقضاة وللكهنة الآخرين. فمن الطبيعيّ إذن أن يتمسّك أوغسطس وجميع خلفائه بحمل لقب "الحبر الأعظم". وإذا ما أقصرنا الكلام على العهد الجمهوريّ، نرى أنّ تقدّم سلطة الأحبار على حياة روما الدينيّة قد أدخل النظام إليها، ولكنّه أسهم أيضًا في إحاطتها بالخطر والتمسّك المفرط بالشكليّات. وكانت مهمّة هيئة العرّافين المؤلّفة من ثلاثة، ثمّ من تسعة، ثمّ من خمسة عشر، تطبيق تقاليد العلم التفاؤليّ، لا سيّما بموجب مراقبة طيران الطيور داخل بقعة محدّدة في الفلك

وبواسطة القضيب المنحني الذي أمسى الشارة الرمزيّة للعرّافين. ومن حيث أنّهم يعرفون ما إذا كانت استعدادات الآلهة موافقة أم غير موافقة، فإنّ آراءهم يجب أن تتقدّم كافّة أفعال الحياة العامّة. وأُنيطت العرافة، عن طريق استقراء أمعاء الضحايا، ولا سيّما كبدها، باختصاصيّين أُطلق عليهم اسم Haruspices ينتمون بأغلبيّتهم إلى أتروريا بسبب ما اشتهر عن الإتروسك من إتقان هذا العلم والاحتفاظ به.

أحلّ التقليد في عهد الملوك الإتروسك إتّباع مجموعة من الأوامر الطقسيّة وهتافات الغيب صادرة عن عرّافة "كوم Cumes" في كمبانيا، وهي منطقة يونانيّة. وبغية المحافظة على "كتب العرافة" هذه، واستشارتها، حين تبرز الحاجة إلى ذلك، وتفسيرها لمجلس الشيوخ، نُظّمت هيئة من عضوَين، ثمّ من عشرة في القرن الرابع، وأخيرًا من ١٥ منذ سيلا، كان يُشار إليهم بتعبير "القائمين بالذبائح" مع ذكر عددهم. فهم يُكلَّفون ترؤّس الاحتفالات التي يستصدرون أمرًا بها بعد استشارة الكتب. وإنّ سلطة هذه الكتب أعطت الهيئة دورًا فعّالاً جدًّا في إدخال العبادات والطقوس الهلّينيّة إلى روما[١].

كهنوتُ الدّولة

كانت مؤسّسات كهنوت الدولة شبه مجهولة في المدن اليونانيّة. ويقول باحثون: إنّ معرفتنا بهذه المؤسّسات في روما، لا يُستنتج منها أنّها ابتكار رومانيّ. فإنّ لأكثر من

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريّتها، ٢: ٢٠٤ ـ ٢٠٦.

كهنوت ممّا استعرضنا، أصوله في العادات الإتروسكيّة أو الإيطاليّة. أمّا ما يلفت النظر، وما قد يكون رومانيًّا، فهو، على الرغم من تعدّد هذه الفئات، نفوذها والدور الذي سمحت لها المدينة بأن تلعبه في حياتها بالذات، ويفسّر هذان الواقعان أحدهما الآخر؛ على كلّ حال، فقد كان لها خلال زمن طويل، يدوم بالنسبة لأكثرها حتّى آخر العهد الجمهوريّ، قوّة جاذب حقيقيّة، ومن الطبيعيّ جدًّا أن يعلّق قيصر، الذي لم يكن بعد متقدّمًا في مراتب الأمجاد، أهميّة استثنائيّة لنجاح ترشيحه للقب "الحبر الأعظم"، فلم يكن ذلك، بالنسبة له مجرّد لقب، بل وظيفة من الدرجة الأولى. ولكنّ "شيبيون الأفريقيّ" كان "ساليًا"، الشيء الذي أوجب عليه، في زمن العيد، أن يبقى شهرًا واحدًا دون تنقّل من مكان إلى آخر، وهو واجب مزعج حقًّا لقائد من القوّاد. وقد تباهى شيشرون بلقب العرافة. وفي العهد الذهبيّ للنظام المجلسيّ، سعى النبلاء وراء وظائف الكهنوت، وقد بلغ منهم أنّهم جمعوا أكثر من واحدة حين استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وكانت هذه المهام، شأن مناصب القضاء، "أمجادًا" تُذكر بعناية في الكتابات المدفنيّة التأبينيّة، التي تنوّه بمراحل تألّب الراحلين منهم في المناصب. وكان أغلبها في البداية، شأن مناصب القضاء أيضًا، وقفًا على الأشراف، وقد أحرزت عامّة الشعب نصرًا، في السنة ٣٠٠ قبل الميلاد حين فُتحت لها أبواب الهيئات برفع عدد أعضائها إلى تسعة، على أن ينتمي خمسة منهم إلى هذه الطبقة. وهدفت الحركة الشعبيّة، بالإضافة إلى ذلك، أقلّه في ما يتعلّق بالهيئة الحبريّة، إلى تغيير طريقة التعيين بواسطة الهيئة نفسها. فقد فرضت، في أواخر القرن الثاني، أن يتولّى المواطنون انتخاب سبع عشرة قبيلة، بالقرعة، بين القبائل الخمس والثلاثين الراهنة، وإذا ما ألغى سيلا هذا الإصلاح، فإنّ إعادته في السنة ٦٣ قبل الميلاد قد جاءت في الوقت المناسب لتسمح بانتخاب قيصر حبرًا أعظم. كلّ ذلك يكشف لنا بوضوح الطابع الدينيّ العميق الذي ارتدته الجمهوريّة

الرومانيّة. فالحياة السياسيّة والحياة الدينيّة فيها قد ألّفتا كلاًّ واحدًا يقوم به الرجال أنفسهم. فقد حمل ربّ العائلة مسؤوليّة العبادة المنزليّة. وتوجّب كذلك على المسؤول الرومانيّ أن يتحلّى في آن واحد بخبرة دينيّة وخبرة سياسيّة، كما توجّب على علمه القانونيّ أن يتخطّى القانون المدنيّ والقانون العامّ ويشمل القانون المقدّس. وقد لفت شيشرون إلى ذلك بحقّ بقوله: "إنّ الذين اكتسبوا المزيد من المجد في حسن إدارة شؤون الدولة مكلّفون الاهتمام بالديانة، كما أنّ أوسع مفسّريّ الديانة علمًا مكلّفون المحافظة على الدولة". وقد عمّ الاعتقاد بأنّ روما مدينة بعظمتها لتعطّف الآلهة الذي قابله، بكلّ نزاهة، إرضاء لمتطلّباتهم، بلغ دائمًا الحدّ المطلوب، دون أن يتخطّاه[1].

الدِّين والسياسَة

كانت المشاغل الدينيّة تُعتبر من بين المشاغل الرئيسيّة في الدولة الرومانيّة. وهي لا تنفصل عن المشاغل الأخرى، بل ترافقها أبدًا وتشترك معها اشتراكًا حميمًا. وهي نتيجة وجود روما، والواجب الأوّل الذي يفرضه هذا الوجود عليها، وشرط مستقبلها. وليست الفكرة جديدة في التاريخ القديم. بل نرجّح، إذا ما اقتصرنا على الحالات المميّزة، أنّ مصر وبلاد ما بين النهرَين قد خصّتا الديانة بنصيب مماثل في حياة الدولة. ففي كلّ مكان وزمان، حرصت الملكيّة على الإبقاء على الأنظمة الدينيّة التي اعتبرتها بمثابة سور من أعزّ أسوارها، وليس تضامن العرش والمذبح ابتكارًا من ابتكارات القرن التاسع عشر الذي اشتهر بمناداته بالحريّة الدينيّة وبمعاداته

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريّتها، ٢: ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

للإكليروس. فلا يبرز تميّز روما من ثمّ إلاّ بمقارنتها بالمدن اليونانيّة بنوع خاصّ. والفرق بينهما، في الحقيقة، فرق في الدرجة لا في الجوهر، فإنّ ما يستمرّ هنا خاضعًا لتسوية معتدلة، ينمو هناك نموًّا عظيمًا جدًّا. ولكن هناك أكثر من ذلك، أي الفرق في التفكير، إذ لا نصادف إلاّ في روما ذاك الحرص القانونيّ وذاك التمسّك بالشكليّات اللذَين سيطرا على تفسير الفرائض العباديّة ولم يحد عنها المسؤولون. فقد كان الرومانيّ رجل واجب، ولعلّه كان بنتيجة ذلك رجل حقّ أيضًا[1].

المؤرّخ اليونانيّ "بوليبيوس Polybius" (حوالى٢٠٣ ـ ١٢٠ ق.م) الذي كتب تاريخ عالم البحر المتوسّط في أربعين مجلّدًا، لم يتبقَّ منها سوى الخمسة الأولى، امتدح الأرستقراطيّة الرومانيّة، في الوقت الذي نجد فيه القدّيس أوغسطين، اللاهوتيّ المسيحيّ، يدينها. والمدح والإدانة معًا بسبب استخدامها للدين كمخدّر للشعب، ففي عهد الجمهوريّة ظهرت نتيجة للضغط السياسيّ في أوقات الأزمات، بدعٌ جديدة من خلال الكتب السيبليّة. وهناك حكاية تُروى عن كيفيّة حصول الملك "تاركوينُس Tarquin" على آخر ثلاثة كتب سيبليّة لقاء ثمن كان يمكن أن يحصل به على تسعة، لأنّه خُدع في المساومة، وكانت "سيبيل Sibyl" شخصيّة تنبؤيّة غامضة تُنسب إليها أشتاتٌ متنوّعة من التنبّوات، وربّما تمّ تنظيم هذه الأشتات عام ٣٦٧ قبل الميلاد، أو قبل ذلك. وقد أُدخل على الاحتفالات بأعياد الآلهة احتفال الـ"لكتيسترينيوم Lectisternium" الذي يظهر فيه أزواجٌ من الآلهة متجسّدين في تماثيل نصفيّة منحوتة، وجالسين على آرائك، وكانت تُنصب أمامها الولائم، بينما يسير الموكب الدينيّ، أو موكب الضراعة، إلى المعبد. ويتخلّل ذلك التسلية والترفيه في الطعام، والمشاهد غير المألوفة والبدع، كما يقدّم ترفيه آخر في صورة مسابقات مسرحيّة ورياضيّة.

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريّتها، ٢: ٢١٠.

والكتب السيبليّة مسؤولة كذلك عن ظهور عبادات جديدة. وفي حقبة مبكّرة من أعوام ٤٩٦ ـ ٤٩٣ قبل الميلاد، كان هناك معبد مخصّص لعبادة الإلهة "كيريس Ceres" التي كانت في وقت من الأوقات إلهة الأرض، والأمّ المشرفة على الزراعة، وهي ابنة الإله "ساتورن" وأخت "جوبيتير" و"بلوتو"؛ والإله "ليبر Liber" والإلهة "ليبرا Libera" وهؤلاء الثلاثة هم عند اليونان الإلهة ديمتر والإله ديونسيون والإلهة برسفوني التي قضت بإقامة العرافة السيبليّة. وفي عام ٢٩٣ قبل الميلاد انتقل إله الشفاء "إسكيولبُس Aesculapuis" وهو "أسكليوس Aschlepuis" عند اليونان، انتقل في صورة أفعى إلى الجزيرة عن طريق نهر التيبر حيث لا تزال توجد مستشفى القدّيس "بارثلوميو St.Bartolomeo"؛ وفي عام ٢٠٥ قبل الميلاد أحضر القائد المتصوّف "سكيبيو Scipio" "الأمّ الكبرى" في هيئة الحجر الأسود من "بسينوس Pessinus". والواقع أنّ هذه الكتب كانت في أنشط حالتها أثناء الحرب مع هنيبعل ونكباتها المروّعة، فالناس يرجعون إلى الدين في أوقات الحرب، ففي عام ٢٠٥ أعلن مجلس الشيوخ أنّ الكتب السيبليّة تنبئ بأنّ هنيبعل سيغادر إيطاليا إذا ما جيء "بالأمّ الكبرى" أي "سكيبيو"، وهي صورة من الإلهة "سيبيل Sybele" من "بسينوس" في "فريجيا" إلى روما، وكان الحجر الأسود في اعتقادهم يمثّل جسد الأمّ الكبرى. وقد أخذ العامّة هذه المسائل بجدّيّة شديدة، بينما تزايد الشكّ فيها عند الطبقات العليا. وعندما قيل لقائد الأسطول الرومانيّ "كلوديوس بالكر Claudius Pulcher": إنّ الدجاج المقدّس رفض الأكل، وهو نذير شؤم خطير، قال: "دعها إذن تشرب، ثم اقذف بها في البحر. أمّا القائد والسياسيّ الرومانيّ "فلامينُس Flaminius" فقد أهمل بإرادته واجباته الدينيّة. وأمّا "مارسيلُس Marcellus" المتطيّر النبيل، أثناء الحرب البونيّقيّة الثانية، فقد ركب محفّته مع العميان حتّى لا يرى النذر الشرّيرة، وكأنّ هذا العمل سيقضي عليها. وبحلول

القرن الأوّل أصبح المتطيّرون مدعاةً للسخرية والتندّر، حتّى أنّ أحد الملاحدة تولّى منصب الحبر الأعظم لأغراض سياسيّة[1].

تلقّف أغسطس نزعة الشكّ العامّة، حتّى بلغ من الحرص مبلغًا يمنعه من أن يكون مخلصًا، ويقول باحثون: صحيح أنّ الأمبراطور أغسطس كان يؤمن بالخرافات، ولكن يصعب أن نصفه بالمتديّن، غير أن حاسّته السياسيّة أشارت عليه بأن يقيم لحكمه أساسًا دينيًّا. ففي سنة ٢٩ قبل الميلاد، أغلق معبد "جانوس"، ما يعني نهاية الحرب، وفي العام التالي عهد مجلس الشيوخ للحاكم بحقّ تجديد المعابد بحيث استطاع، في ما بعد، أن يفاخر بأنّه عمل تجديد اثنَين وثمانين معبدًا، كما سبق أن ذكرنا. وفضلاً عن ذلك فقد شيّد المباني الجديدة كان أعظمها بغير منازع معبد "أبولّو بلاتين" إله النور والثقافة الذي أشرف على الانتصار النهائيّ في موقعة "أكتيوم"، وكان شعارًا ممتازًا للعهد الجديد، كما أقام معابد أخرى لوالده بالتبنّي "يوليوس المقدّس"، ولـ"جوبيتير" إله الرعد، وللإله "مارس" والإلهة "فينوس"، ولـ"مارس المنتقم" ولـ"فستا".

إتّصفت النخبة التي تولّت مقاليد الحكم في روما، في أواخر العهد الجمهوريّ، بعدم مبالاتها بالدين. فهذه الطقوس الدينيّة الرسميّة التي ارتبطت مظاهرها بحياة الدولة، والتي كانت تمثّل بقيّة من هذه العقائد الإيطاليّة الرومانيّة، أُضيفت إليها في ما بعد، عناصر يونانيّة لم تكن تمثّل في نظر النخبة سوى مراسم لا بدّ منها للنظام العام القائم، رمزًا بالأكثريّة، لمبدأ دينيّ عانى، هو الآخر، هذا القلق الروحيّ الذي استبدّ بالأذهان. فالأعياد تهمل، ويُتناسى أمرها، والهياكل يتجافى الناس الدخول إليها، والوظائف الكهنوتيّة يُزهد بها ويُعرض عنها وتبقى شاغرة ليس مَن يملؤها. فما أن

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١٢٠ ـ ١٢١.

أطلّ أغسطس حتّى راح يصحّح الأوضاع ويكافح هذا الإعراض، ويُحدّ من تدهور المشاعر الدينيّة. فأصبح بحقّ، المصلح الحقيقيّ للديانة الوطنيّة حتّى في أقدم مراسمها، ولذلك أخذ يرمّم المعابد ويعيد إليها رونقها ويُضفي على المزارات والأساطير التي تمثّلها أو ترمز إليها، بهاءً لم تعهد مثله من عهد بعيد، ويملأ الوظائف الكهنوتيّة الشاغرة. كما أعاد تشكيل المنظّمات والجمعيّات الدينيّة ونفخ فيها نشاطًا جديدًا لدخوله في عضويّتها. وهنالك حادثان يمثّلان سياسته الدينيّة: رفضه انتزاع لقب "رئيس الأحبار" من لبيدُس Lépidus زميله السابق مع أنطونيوس في الحكومة الثلاثيّة. فقد آثر أن ينتظر حلول أجَله حتّى يكرّس هو نفسه، في هذه الوظيفة السامية، وفقًا للقوانين المرعيّة لتتمّ له بذلك أعلى سلطة دينيّة دون أن يمسّ الشرعيّة بشيء. أمّا الثاني، فاحتفاله بأبّهة وجلال، طوال ثلاثة أيّام وثلاث ليال، بالأعياد القَرنيّة التي كانت تحيي ذكرى تأسيس روما، وذلك باستمطار البركات على المدينة الخالدة وعلى سكّانها[1].

إذن، فقد سار تجديد الشعائر الدينيّة في خطّين متوازيَين، فشرّف أغسطس منصبه بأن تقلّده بنفسه، وجعل من نفسه عرّافًا وعضوًا في قائمة الخمسة عشر. وعندما مات ليبدوس سنة ١٢ قبل الميلاد، أخذ أغسطس وظيفته وأصبح هو "الكاهن الأكبر" أو "الحبر الأعظم Pontifex Maximus" كما سبق وذكرنا. وبعد أن ظلّت وظيفة كاهن الإله مارس شاغرة لأكثر من نصف قرن مُلئت مرّة أخرى، فقام الكهنة بتقديم القرابين، وانتعشت المعاهد، وتجدّدت الطقوس الدينيّة. أمّا "الألعاب القرنيّة" التي سُمّيت بهذا الإسم لأنّها لم تكن تُقام إلاّ على فترات متباعدة، فقد أقامها أغسطس في عام ١٧ قبل الميلاد إيذانًا بافتتاح عصر جديد، فكانت مثلاً جيّدًا على ذلك. وقد حفظت سيرة

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وامبراطوريّتها، ٢: ٤٠١ ـ ٤٠٢.

أغسطس الدينيّة مذكّرة نصّتها العرافة السيبليّة، وهي توصي بتنفيذ الطقوس الدينيّة، وتشرح هذه الطقوس. وهناك نقش على نصب تذكاريّ يحتوي على رسالة بهذا المعنى لأغسطس. بالإضافة إلى قرارَين لمجلس الشيوخ، ووثائق لقائمة الخمسة عشر، وترنيمة "هوراس" التي كتبها أغسطس بذكاء. وقد تمكّن باحثون، من خلال دراسة تلك النصوص، من اقتفاء أثر سيطرة مفاهيم الموت والحياة الجديدة، والتطهير والتجديد، والدين والخصب، والأخلاق، عند الرومان في تلك الحقبة. وهناك شاهد آخر مهمّ هو "مذبح السلام Altar of Peace"، بالإضافة إلى مواكب التماثيل المهيبة، والألواح الخشبيّة على الجدران التي تمثل "الأمّ الأرض" و"أينياس Aeneas" إبن فينوس وبطل الإنيادة لفرجيل، والجدّ الأسطوريّ للرومان، وهو يقدّم القرابين لـ"ربّات المدفأة Panates"، وهو الإسم الذي يُطلق على آلهة المنزل اللاتينيّة القديمة، على اعتبار أنّها تحرس مدفأة البيت. كما يمثّل بعض تلك الألواح تنشئة رومولُس وريمُس، والشخصيّة المقدّسة لروما على كومة مكدّسة بالسلاح. وقد شارك الشعراء بحماس في تلك المفاهيم، وإن كانوا أبيقوريّين بحكم تكوينهم، فإنّ "هوراس Horace"، وهو من أعظم شعراء الرومان في القرن الأوّل بعد الميلاد، كان صديقًا لفرجيل الذي قدّمه إلى مايكناس وزير البلاط في عصر أغسطس الذي كان يشجّع الآداب، قد أسهم بمطالبته في تجديد المعبد وبأناشيده؛ و"فرجيل"، الذي يعَدّ هوميرُس الرومان، وقد عاش في القرن الأوّل قبل الميلاد، وكتب ملحمة الإنيادة على غرار إلياذة هوميرُس، كما كتب الرعويّات والزراعيّات، وقصائد أخرى كثيرة، قد ركّز رؤيته على روما الخالدة في سياق التجربة الدينيّة. بل إنّ "أوفيد Ovid" (٤٢ ق.م ـ ١٨م) قد شغل نفسه في الاهتمام بالتقويم الدينيّ[١].

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١٢٢ ـ ١٢٣.

ويرى باحثون أنّ إنجازات أغسطس برهنت عن صدق عواطفه الدينيّة الصادرة عن إيمان حيّ، وجاءت منسجمة مع العمل السياسيّ العظيم الذي قام به، والذي رمى منه إصلاح الدولة والنظام الاجتماعيّ القائم في الأمبراطوريّة. وطالما نوّه أغسطس بهذه الإنجازات وهذا الإصلاح وألمع إليهما بإسهاب وبشيء من الرضى في كتابه "أمور الحكم"، وفي خطبه التي شدّد فيها على هذه الأمور، وبالأخصّ على هذه العناصر الجديدة التي لقّح بها الديانة الرومانيّة في محاولته إصلاحها والرفع من شأنها. وقد أدخل على هذه الديانة- التي كانت عبارة عن طقوس دينيّة تشير إلى هذا الترابط بين الألوهيّة من جهة، وبين المؤمن أو جماعة المؤمنين من جهة أخرى، شعورًا حيًّا اتّصف بالعمق وصدق العاطفة، وهذا الوقار والجلال الذي أضفاه على الاحتفالات الدينيّة الرسميّة. فأخذُه بالخرافات والأساطير جعله يستنطق الأحلام التي تراوده، ويطلب تفسيرًا لها، ويعتمد على زجر الطير، وتعليل الحوادث الطارئة التي تملأ النفس دهشًا: كالصواعق والالتقاءات المفاجئة، والحوادث العاديّة في الحياة، وكلّها ظواهر طبيعيّة حاول الرومان، منذ القدم، أن يُلبسوها معنى خاصًّا، وغيرها من الأمور التي يعلّقون عليها في الخارج، مدلولاً رمزيًّا خاصًّا، كالطالع الذي أخذ له وهو بعد، حدث يافع، وبرج الجدي الذي وُلد تحته، وهي طوالع خلّدوا ذكرها بنقشها على إحدى قطع النقود الرومانيّة، كما حُفرت حفرًا ناتئًا، على رصيعة عُرفت برصيعة "فيينّا". وقد تأثّر هو وبطانته تأثيرًا عميقًا بالبيثاغوريّة الرمزيّة، كما راح يستلهم بعض الطقوس المستمدّة من الشرق الهلّينيّ وأبى أن يدخل يومًا هيكلاً في مصر ليسجد للإله "أبيس" أو "هابيس" ويقدّم له القرابين، وامتدح حفيده لأنّه رفض أن يقدّم القرابين، هو الآخر، لإله اليهود في القدس، وحظّر الاحتفال بعيد إيزيس على أرض روما، بينما أظهر مشاعره الدينيّة نحو الآلهة اليونانيّة المنشأ والمصدر، المشهود لها بالحسب

والشرف المحتِد. إضافة إلى تعليقه أهميّة كبرى على الأعياد القرنيّة التي حدّد وقوعها بدقّة كلّيّة... كلّ هذه الأمور تشير بوضوح إلى أنّه صدر في الحركة الإصلاحيّة الدينيّة التي قام بها، عن يقين صادق وإيمان حيّ وطيدَين، وأنّه لم يرضَ أو يقنع بنظام دينيّ حرفيّ جامد، بل أراده أن ينبض بعاطفة دينيّة مشبوبة[1].

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريّتها، ٢: ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

الأمبَراطُور الرُّومَانِيّ

كان قد قام على رأس النظام الجديد للدولة الرومانيّة "أولّ" أو "مقدّم Princeps"، وهو اصطلاح أرادوا به التعبير عن صاحب السلطان الحقيقيّ، وقد جاء اسمه تعبيرًا عن السلطات والصلاحيّات التي تمتّع بممارستها، وأهمّ تلك الصلاحيّات السلطة العسكريّة التي آلت إليه قانونًا وشرعًا، ومارسها فعلاً وعملاً. وهي أسّ السلطة التي تُمنح باسم الشعب. وهذه السلطة Imperium توصَف رسميًّا بعبارة Pronconsulare Majus أي السلطة البروقنصليّة العظمى. وهذا النعت: Pronconsulaire، يولي حامله أو صاحبه، السلطة العليا التي يتمتّع بها صاحب الولاية أو حاكمها، ويمارس بحكم منصبه هذا، جميع السلطات والصلاحيّات التي تمارسها روما نفسها. أمّا الصفة المشبّهة "العظمى" أو "الكبرى"، فلكي يشدّد على أنّ السلطة الممنوحة تبلغ أعلى درجة وأعظمها، وتعلو فوق سلطة أيّ حاكم أو قنصل آخر، مهما بلغ من شأنه.

إستدعى طلوع الأمبراطوريّة على العالم الرومانيّ ووجودها فيه، الرغبة الصادقة في قطع الطريق على الحروب الأهليّة، وما تجرّه من شرور وويلات وأهوال، والرغبة في توفير الطمأنينة والأمن في الداخل والخارج، للعالم الرومانيّ، عن طريق الاحتفاظ بجيوش رومانيّة جرّارة، كما يشهد على ذلك انتصار أغسطس في أكتيوم، والحوادث الدامية التي وقعت عام ٦٨ ـ ٦٩ بعد الميلاد، وأسفرت عن تغلّب فسبسيانُس وتفوّقه على خصومه ومنافسيه. فكأنّ الحلّ الذي تمّ على هذا الشكل، جيء

به لإقرار وضع قائم وُجدت فيه البلاد، بعد انتهاء هذه الأزمات، ولتكريس ديمومته، والإبقاء على زعيم وحيد أوحد على رأس الجيش الرومانيّ، مهما نأت معسكراته، وتباعدت مخيّماته وحامياته عن العاصمة روما. فبتسليم السلطة إليه وبإلقاء مقاليد الحكم بين يدَيه، تأمّنت له أسباب السؤدد والسيادة. وكان من نتائج حصر ملء القيادة العليا بصاحب السلطان الأوّل أي الأمبراطور، أن يُنسب إليه كلّ فضل أو خير، أو نفع أو كسب، ماديًّا كان أو سياسيًّا، يؤمّنه للأمبراطوايّة فوز عسكريّ ونصر حربيّ، يأتيه قائد من قوّاد الجيش، حتّى في حال بقاء قيادة العمليّات الحربيّة الفعليّة في أيدي القوّاد، إذ من المفروض أن يكون الفضل في هذا النصر للأمبراطور نفسه، لأنّه هو وحده، له الحقّ بترؤّس حفلات زجر الطير واستطلاع الطالع واستخراج الفأل، والقيام بالمراسيم الطقسيّة التي تسبق المعركة وتهيّئ لخوضها. فهو الذي يوحي، مبدئيًّا ونظريًّا، البتّ بالأمور، والجزم في المعضلات، لأنّه هو وحده، مهبط الوحي والإلهام الإلهيّ، وحامل بركة الآلهة وموضع مسرّتها ورضاها. فهو وحده أبدًا "أبو النصر" وسبب كلّ ظفر، ولهذا يكون النصر مناسبة للهتاف باسم صاحب الأمر "الأمبراطور". وهو وحده يلبس "الباليوم" أو الرداء الأرجوانيّ الخاصّ بقائد الجيش الأعلى، إلاّ أنّه يجب أن يلبسه في روما أو إيطاليا، وذلك خشية مسّ مشاعر المواطنين وإحساساتهم. فهو قائد حرب في الصميم، وقائد دائم، أينما وُجد، على عكس القوّاد في العهد القديم، إذ كانت صلاحيّاتهم العسكريّة محدودة، تقتصر فقط على زمان ومكان معيّنَين، فما أن تنتهي مهمّتهم حتّى يلفّهم النسيان في المناطق التي تولّوا أمر القيادة فيها تحت إمرة حاكم مدنيّ. ومن حقّ الأمبراطور، وهو في روما، أن تسير في ركابه مفرزة خاصّة من الجيش إلى جانب الحرس الذي يقوم دومًا بحراسته، فالجيوش تنادي باسمه أمبراطورًا، وتؤدّي له القسم المقدّس، قسم الولاء والطاعة، إذ من دون هذه الهتافات

والمناداة لن يصبح أمبراطورًا. وهو الذي يهب الأوسمة الحربيّة لمستحقّيها، ويعيّن الضبّاط، ويقرّ الترفيعات لذويها. وإليه وحده يعود تقرير تشكيل الجيوش وتعبئتها، وبقاؤها ونشاطها.

إضافة إلى هذه السلطات والصلاحيّات العسكريّة، تمتّع الأمبراطور بسلطات وصلاحيّات مدنيّة واسعة. ولمّا كان الأمبراطور من طبقة الأشراف مولدًا، في عهد الأسرة "اليوليو ـ كلوديّة" أو شرعًا بقوّة القانون، في ما بعد، فلا يمكنه أن يصبح "تريبون Tribun" يتحدّر من طبقة الكادحين أو الطبقة الشعبيّة. وقد رؤي، مع ذلك، أنّ يُعطى هذا اللقب لأغسطس ولخلفائه من بعده، فتتمّ له ولهم بذلك السلطات والصلاحيّات الملازمة، شرعًا وعرفًا، لهذه الوظيفة: Tribunicia Potestas، التي تولي صاحبها جميع الحقوق التي تمتّع بها الـ "تريبون" في العهد الجمهوريّ. فالأمبراطور على شاكلة التريبون، شخص مقدّس، مكرّس، لا يمكن مسّه. وله الحقّ والسلطة في أن يأمر بتوقيف أيًّا كان وأن يقاصص مَن يريد، وأن يعارض كلّ قرار أو مشروع يتّخذه مجلس الشيوخ أو الحاكم، وأن يرأس اجتماعات مجالس الهيئات الحكوميّة، وأن يتقدّم بالإقتراحات والتوصيات، وأن يعزل مَن يريد من منصبه، وأن يُنعم بالألقاب والرتب على مَن شاء من الأسر الرومانيّة الرفيعة[1].

الأمبَراطور

الحَبْـــــر

يرى أحد التقاليد الرومانيّة المكرّسة في الأمبراطور "الحبر الأعظم" أو "الكاهن الأكبر". فقد حرص أغسطس كلّ الحرص، على ألاّ يهمل أو ينتقص من قيمة هذه

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وامبراطوريتها، ٢: ٢٩١ ـ ٢٩٤.

الوظيفة التي تلازمه طوال الحياة. وحرص خلفاؤه من بعده على التمتّع بهذه الرتبة والوظيفة عند اعتلائهم أريكة العرش. فالحبريّة العظمى تولي حاملها وصاحبها سلطات دينيّة غاية في الأهميّة. وإلى هذا، فالأمبراطور عضو بارز في مجمع كبار الكهنة والأحبار، بحيث يراقب عن كثب نشاطهم ويهيمن على انتقائهم واصطفائهم وتعيينهم في مراكزهم. ومن بين هذه الرتب الكهنوتيّة، رتبة يباهي بالانتساب إليها والنهوض بأعبائها، كما يستدلّ جيّدًا من الأنواط والميداليّات التي تحمل صورته. وهي رتبة العرّاف أو العائف، وذلك بالنظر إلى الدور الذي يلعبه هؤلاء الكهّان في الكشف عن الفأل واستطلاع الطالع. وقد رمزوا إلى هذه الرتبة بالعصا المعقوفة المعروفة عندهم باسم lituo التي أصبحت في ما بعد، من الشارات المميّزة للأمبراطوريّة. وهكذا يبرز الأمبراطور على رأس الحياة الدينيّة ويطلّ رئيسًا لجميع الأحبار، ويصبح بالتالي الوسيط بين الآلهة والدولة. فالواجبات والحقوق، التي تخوّله إيّاها رتبة الكهنوت، تزيد كثيرًا من شأن السلطات والصلاحيّات التي يتولاّها رأس الإدارة و"الأوّل" في الدولة. فهو يرأس شخصيًّا أهمّ الاحتفالات الدينيّة ويضفي حضوره على أبسط الأعمال وأتفهها مهابة الطقوس الدينيّة ومراسمها. فهو المسؤول الأوّل عن بناء المعابد والهياكل وعن صيانتها وتأثيثها وحفظها. وموجز القول، إنّ الإسم الذي يحمله "أغسطس" مشتقّ من أقدم المراسيم الدينيّة وأعرقها اصطلاحًا عندهم، وهي رتبة العرافة Augure، وهي رتبة تضفي عليه من الجلال وتُجلببُه بهالة من التقوى والخشوع بما لهذه الكلمة في مفهومها الحديث من قوّة المعنى، بينما الكلمة اللاتينيّة Pietas لها مدلول أعمّ وأوسع. وبهذه الصفة يستمطر الشعب الرومانيّ عطف الآلهة، ويستمدّ منها الرعاية والهداية. فالتعدّي، والحالة هذه، على سلطة الأمبراطور أو مسّ شخصه، هو التجنّي بالذات على الدين وعلى روح الانضباط الذي يمثّله في المجتمع. وهذه الآلهة التي تحرس

الأمبراطور وترعاه في حلّه وترحاله، تُظهر عطفها وحدبها عليه بما يؤتاه، على يدهـا، من نصر مبين وتوفيق عظيم، في جميع أعماله الحربيّة. فكلّ المظـاهر الحربيّـة التـي تلازمه كقائد أعلى للجيـش، يجـب أن تحمـل عميقًـا، طـابع الهالـة الدينيّـة. فالفـازيلوس Basileus في بيزنطية، كالأمبراطور في روما، مَدين بمـا يصيـب مـن فـوز مبيـن فـي ساحات الوغى ومن نصر في الحروب، لفعل الآلهة وهديهـا. وهكـذا تلتقـي هنـا، مـرّة أخرى، الإيديولوجيـا الملكيّـة التـي انطلقـت مـن فتـح الإسكندر، بالنظريّـات الرومانيّـة القديمة، فيتمازجان وينصهران معًا. وهكذا نرى أنّ الإيديولوجيا تؤيّـد، إلـى حـدّ بعيـد، هذه التقاليد وتقوّيها، وإلاّ تعذّر علينا أن ندرك كيـف أنّ، علـى شـاكلة كلمـة Basileus، تصبح كلمة Imperator، لدى قيصر أوّلاً، ومن ثمّ لـدى أغسـطس، ثـمّ بسـرعة لجميـع خلفائـه، اللقـب الرسـميّ الـذي يـردُ قبـل كـلّ الألقـاب والرتـب والكنـى التـي يحملهـا الأمبراطور. وعلى هـذا تصبـح كلمـة أمبراطور مرادفًـا لكلمـة المظفّـر أو المنتصـر، والمؤهّل من قِبَل الآلهة والمصطفى، بحيث راحوا يُضفون صفة الألوهيّة، علـى نصـر أغسطس، كما راحـوا يرفعـون هـذا الرسـم: النصـر المجنّـح، علـى المبـاني الرسـميّة، وأثبتوه على العملة والنقد. وفي عهد الأسرة "اليوليو ـ كلوديّة" كان كلّ شيء يدلّ علـى أنّ هذه الإلهة هي بالفعل، الإلهة ذاتها التي رعت مؤسّس الأسـرة ذاتـه، أي أغسـطس المظفَّر، ومن ثمّ راح هذا المؤلّه ينتقل من أمبراطور إلى آخر، مخلّدًا رسم أغسـطس الحـيّ الدائم. ثمّ تطـوّر الأمـر بحيـث راحـوا يخصّصـون، أكـثر فـأكثر، هـذه الإلهـة. فاستنبطوا وتضرّعوا وشكروا تـارة Victoria Parthica، وطـورًا Britannica، وحينًـا Germanica أي الإلهـة التـي بفضلهـا، تمّـت الغلبـة علـى الفـارثيّين والبريطـانيّين والجرمانيّين. ثمّ تطلّ فكرة جديدة عُمل بها، بكلّ تحفّظ وحيطة، منذ العهد الجمهـوريّ، قامت بتسمية إبن الملك أو وليّ عهده، باسم "العدوّ المغلـوب علـى أمـره". وأوّل حادثـة

من هذا النوع تعود إلى عهد أغسطس نفسه، إذ لقّب ربيبه "دروسُس" بلقب "جرمانيكوس"، ولم يمضِ وقت كبير حتّى تركّزت العادة في الأمبراطور نفسه. وتفاديًا للإدمان الناجم عن العادة المتكرّرة، تتكاثر الألقاب والكنى وتُضاف إليها نعوت وأوصاف تزيدها قوّة ومعنى. فالأمبراطور "مارك أوريل" لا يلبث أن يُلقّب بـ "صاحب الفارثيّين العظيم"، بينما الأمبراطور "تريانُس" لم يُلقّب إلاّ بلقب parthicus، كما عُرف أيضًا بـ "صاحب الماديّين"، و"صاحب الجرمان"، و"صاحب السرماتيّين". وهذه الألقاب، مثلها مثل قطع النقد الرومانيّة الحاملة صورة الأمبراطور متوّجًا بالنصر، أو الحاملة رسوم أسرى حرب ساجدين، إشارة للبلدان التي أخضعتها الجيوش الرومانيّة، إنّما يُراد منها أكثر من مجد باطل لا طائل تحته. فهي ترمز إلى الشراكة التي لا انفصام لها بفضل القوّة الألهيّة، هذه الشراكة المؤلّفة من الأمبراطور ومن الظفر، عربون السلام على الأرض[1].

الفضائل الأمبراطوريّة

من الصفات العديدة التي أُطلقت على الأمبراطور، صفتا "الحامي" و"المخلّص"، ومع أغسطس نرى رتاج الصرح الأمبراطوريّ مزيّنًا بالغار يعلوه إكليل من خشب السنديان، وهو "الإكليل الشعبيّ" الذي يقدّمه المواطنون لمنقذهم. فالأمبراطور هو، بالفعل، حامي الدولة وحامي الرومان Servator أو Conservator، لا بل أكثر من ذلك، هو مخلّص الجنس البشريّ بأسره. فالخلاص أو الفداء الذي بذله، يبرّر إلى حدّ بعيد

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريّتها، ٢: ٣٠٠ ـ ٣٠٢.

لقبه: "أبو الوطن". هذا اللقب الذي أصبح من ألصق ألقاب الأمبراطور. وكانت قطع النقد الرومانيّ، في عهد أغسطس، تحوي سلسلة لا تنتهي، تقصّ على الناس في تداولهم لها، هذه الفضائل الأساسيّة التي تحلّى بها، كما أنّها تحاول أن تبرز، بما تحمل من شارات ورموز، مناقب الأمبراطور، ولا سيّما الشعار الآخر الذي تحمله ويرمز للعناية الإلهيّة تنويهًا بالخيرات التي أسبغها، والمنافع التي أفرغها على الشعب الرومانيّ والأمبراطوريّة الرومانيّة، فهو "رمز السلام على الأرض"، و"الإسعاد لبني البشر". وهذه الإيديولوجيا الأمبراطوريّة، وما فيها من مدلول ومفهوم، تفيض بالطبع ببعض الألفاظ والتعابير الرومانيّة الأصل والطابع. وإذا كانت قد شاعت وذاعت بسرعة، فالفضل في ذلك يعود للسوابق الهلّينيّة التي اعتمدتها. فليس من المستغرب والحالة هذه، أن نشهد عبادة الأمبراطور تنطق بفكرة الرسالة أو الدعوة الإلهيّة التي تمّت على يد شخص هو فوق البشر، فتتبلور معالمها في ما رأينا من هذه المظاهر على اختلاف نواحيها[1].

عِبَادة الأمبَراطُور

تعلّمت روما، نتيجة احتكاكها باليونان، أن تنسب ألقاب الشرف المقدّسة إلى الأفراد. ففي سنة ٢١٢ قبل الميلاد أُقيم احتفال على شرف "مارسليوس Marcellus" في "سيراقوزة". وفي سنة ١٩٥ قبل الميلاد منح "فلامينيوس Flaminius" في مدينة "خالكيس Chalcis" مرتبة الكهنوتيّة التي بقيت طوال ثلاثة قرون. وأُنشدت ترنيمة

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريّتها، ٢: ٣٠٢.

للأمبراطور "تيتُس Titus" (٨١ ـ ٤٠ق.م)، وأصبحت ترنيمة زيوس وآلهة روما تنتهي بعبارة: "نعماك يا أبّولّو، نعماك يا تيتُس يا مخلّصنا". وفي مدينة "أفيسُس" كان هناك هيكل لآلهة روما ولـ "ب. سرفيليوس أزوريكوب P.Servilius Isauricup" الذي كان قنصلاً من سنة ٤٦ حتّى ٤٤ قبل الميلاد. وكان السياسيّ الرومانيّ "جايوس فيرس Verres" حاكم قبرص، الذي اشتهر بالابتزاز والاغتصاب وفرض الضرائب الباهظة واحتقار حقوق المواطن الرومانيّ، موضع تبجيل في قبرص، إلاّ أنّه في النهاية قد حوكم وأمر مارك أنطونيو بإعدامه؛ وقدّمت آيات الشرف لشيشرون وشقيقه "كوينتُس Quintus" ولكنّهما رفضاها. وقبل سنة أو سنتَين من ميلاد السيّد المسيح أقيم احتفال لـ "بولس فابيوس ماكسيمُس Paullus Fabius Maximus" ارتبط بعيد "أبولّو سمينثُس Smintheus" وارتبط الإسمان حتّى ظلّ الاحتفال بهما معًا تحت اسم "سمينيثا ـ بولس" في "طرود Troad" جنوب مدينة طروادة لمدّة قرنَين بعد ذلك. وفي أقصى الشرق وفي الجنوب كان تقديس الشرقيّين للملك أمرًا مألوفًا، ولقد نظر الرومان إلى الفكرة بافتتان ورهبة. فقلّد القائد الرومانيّ بومبي (١٠٦ ـ ٤٨ ق.م) سنة ٨٩ الألوهيّة ووافق على ذلك التقليد لأغراض سياسيّة. وكان قيصر يلهو بالتأليه الذي خُلِع عليه بعد موته. وأصبح مارك أنطونيو، بغير خجل، هو "ديونسيوس أوزوريس" زوج "كليوباترا" ملكة مصر التي أصبحت "إيزيس"، وأطلقا على طفلَيهما اسم الشمس والقمر. وأقام أغسطس بحاسّته السياسيّة البارعة نموذجًا للمستقبل، فكان عليه أن يصبح في مصر الملك المقدّس، لكنّه كان حَذِرًا في أماكن أخرى، فلم يشأ أن يكرّر الرومان اقتراف الإثم مرّة أخرى بحقّ الحكم. ولقد كان لدى اليونان جمعيّات مختلفة لشتّى الأغراض تُسمّى الـ"كوينا Koina"، فكيّف الرومان هذه الجمعيّات بحيث تناسب عبادة الحاكم، غير أنّ أغسطس لم يسمح لنفسه أن ينال وحده شرف التأليه، إذ لا بدّ لإسمه أن يقترن باسم

روما والـ"لارات Lares"، فمن روما أخذ لقب "Divi Filius" أي ابـن الإلـه "يوليـوس"، ويوحي هذا بأنّه يشبه "هرقل Heracles" أشهر الأبطال في أساطير اليونان والرومـان، الذي اعتبر أنّه ابن الإله "زيوس" من "الكمينا"، وضمّ مجمع الآلهة أغسطس إليـه نظـرًا لخدماته في سبيل الإنسانيّة، وقد كان ذلك السبّب في تقريع "تيـبريوس Tiberius" لأحـد رجـال حاشيته المنـافقين عندمـا تحـدّث عـن "واجبـات الأمـبراطور المقدّسـة" إذ عنّـف الأمبراطور ذلك "المجتهـد" وكـان توبيخـه لنفاقـه الـذي يشـير إلـى ألوهيّـة المسـتقبل لا ألوهيّـة الحـاضر. أمّـا المصـابون بجنـون العظمـة، مـن أمثـال "كـاليغولا Caligula" و"نيرون" و"دوميتيان Domitian"، فهم وحدهم الذين طالبوا بأن يُعبَدوا في حياتهم، وأنْ يُنظر إلى كلّ منهم بوصفـه "سيّدًا وإلهًـا Dominus & Deus" أي مالكًـا للعبيـد وإلهًـا للفانين. وقد نادى "دوميتيان" بتأليه أبيه وأخيه وزوجته وأخته وطلب مـن الموظّفيـن ألاّ يذكروه في وثائقهم إلاّ بلقب "سـيّدنا وإلهنـا". وكمـا أنّ بنيـة السـماء تعكس، فـي الأعـمّ الأغلب، بنية الأرض، فقد كان مجمع الآلهة يصوَّر على أنّه نـوع مـن مجلس الشـيوخ السماويّ الأعلى، مضافًا إليه أعضاء مختارون لجدارتهم. ومن ثمّ ظهرت عمليّة تأليـه الأباطرة الممتازين بعد وفـاتهم. حتّـى أنّ القـائد المتبلّـد "فسـبازيان Vespasian" عندمـا شعر بسكرات الموت تقترب، وكان قد احتفظ لآخر لحظة بروح الدعابة، صاح: "آه يـا عزيزي، وأسفاه! أظنّ أنّني صائر إلى أن أكون إلهًا". قال هذه العبـارة ثمّ وقـف علـى قدمَيه وهو يكاد يغمى عليه وقال: "إنّ الأمبراطور يجب أن يموت واقفًا"[١].

وقـد رأى بـاحثون أنّـه خلافًـا للعُـرف المعمـول بـه لـدى بعـض الممـالك الهلّينيّـة، فالأمبراطور الرومانيّ هو موضوع عبادة، وهو فـي قيد الحياة، تقدّمها لـه هيئـة عامّـة:

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ١٢٥.

كالدولة أو الولاية أو المدينة، بصورة عاديّة وبصفته فردًا. فالدولة ترفع له تكريمًا إلهيًّا وتجعل من بعض ذكرياته الخاصّة أعيادًا وطنيّة عموميّة، فتُطلق مثلاً على الشهر الذي وُلد فيه يوليوس قيصر اسم "يوليو"، واسم "أغسطس" على الشهر الذي نال فيه أغسطس القنصليّة لأوّل مرّة، وسجّل فيه أكبر انتصاراته الحربيّة. ودرج الناس على استعمال هذه التسميات حتّى يومنا هذا. والحلَف أو القَسَم باسم الأمبراطور، هو شيء مقبول وجائز، كما أنّ رسومه وصوره هي من المقدّسات. وراحت الحكومة تُشرك عبادة جن أغسطس أو نبوغه بالتكريم الذي كانت أحياء روما تقدّمه للأرواح المشرفة على مفارق الطرق أو تقاطع الطرق، فتصبح في الاصطلاح العامّ: الآلهة الأغسطيّة. فالمعجم الهلّينيّ غنيّ بمثل هذه المسمّيات. فاستمدّوا منه أسماء الأشهر، والقسم مثلاً. وذكر الباحثون أنفسهم أنّ هنالك إهداءات وتقادم مؤثّرة للغاية تُشرك رأسًا أو مداورة، إسم الأمبراطور، أو أحد أفراد الأسرة المالكة، بشتّى أسماء الآلهة، فنشأ في معظم المدن جمعيّات تحتفل بهذه العبادة وتقيم لها المراسم والأعياد، وتقدّم الذبائح والقرابين على شرفها. وتنظر السلطات الإداريّة إلى هذه المواسم التذكاريّة بعين الرضى. وهي تتدخّل لتنظّمها. وبعد أن كانت هذه الهيئات تحمل في الشرق أسماء شتّى، نراها على عكس ذلك، في الغرب اللاتينيّ، أكثر انسجامًا وانضباطًا؛ من هذه الهيئات مثلاً هيئة الرجال الستّة، التي ما أن تنتهي مدّتها القانونيّة حتّى تتحوّل إلى جمعيّة أو شركة حقيقيّة. ففي هذه الهيئات يهيمن اسم واحد هو أغسطس الذي يتغيّر مدلوله ومفهومه مع تعاقب الأيّام والأزمان. فأغسطس، إنّما يشير في الأوّل، إلى مؤسّس الأمبراطوريّة وموطّد أركانها: فطالما هو على قيد الحياة، فاللفظ إنّما يشير إلى فرد معيّن، وإليه تتّجه، بالطبع، كلّ عبارات التكريم والتبجيل والعبادة. ثمّ يصبح الإسم لقبًا أو كنية، يحرص على حمله كلّ خلفائه من بعده. وإذ ذاك تفقد مظاهر التكريم والتقديس طابعها

الفرديّ أو الشخصيّ، وتتّجه بالأكثر، إلى الرتبة والوظيفة منها إلى حامل اللقب. وهذا التحول نلاحظه كذلك يطرأ على عبادة "روما أغسطس" التي انتشرت كثيرًا خارج إيطاليا، وهي عبادة لها طابع رسميّ. تضطلع بها جمعيّات عامّة وتنطبع هذه العبادة بطابع الأمبراطوريّة نفسها من الوجهتَين المحليّة (البلديّة) والإقليميّة. فمنذ العهد الجمهوريّ، استبدلت مدن الشرق ومقاطعاته عبادة ملوكها Basileus بعبادة روما. غير أنّ أغسطس يرفض أن تُقام عبادة خاصّة به، إلاّ أنّه يسلّم بإنشاء عبادة خاصّة "بروما أغسطس"، تخصَّص لها الأعياد والمراسم، إلاّ أنّ مدلولها الخاصّ ما لبث أن ضعف، وفقد من شأنه في هذه الازدواجيّة واختفى تمامًا مع خلفائه. وكانت هذه العبادة تأخذ بالانتشار والاتّساع بفضل مؤازرة السلطات الإداريّة لها، فيجري الاحتفال بها على نطاق البلديّات المحليّة، ليصبح الاحتفال، في ما بعد، في إطار يشترك فيه عدّة بلديّات. وهذه الاحتفالات تُقام بانتظام، وعلى قدر كبير من الفخامة والأبّهة، فتنفق المدن عليها وعلى المباني الخاصّة المعدَّة لها، وعلى الألعاب والملاهي التي ترافقها، وعلى الموظَّفين المكلّفين السهر عليها والإعداد لها، مبالغ طائلة كثيرًا ما استنفدت موازنتها. فانتشار هذه العبادة، ومدّة قيامها، والآلهة التي تكرَّم فيها، تشير بوضوح إلى اشتراك النخبة الاجتماعيّة في هذه الأعياد الموسميّة التي تُقام بالولاية. أمّا في روما فالدولة نفسها تنشئ عبادة خاصّة هي عبادة الأمبراطور الراحل، وعمليّة التأليه هذه يقرّرها مجلس الشيوخ، فيرفع الأمبراطور إلى مصاف الآلهة. ويكفي لذلك أن يتقدّم شاهد للشهادة من الهيئة المذكورة ويؤكّد، بيمين، على أنّه شاهد، أثناء الاحتفال بجنازة الأمبراطور وحرق جثمانه، روحه تطير على أجنحة نسر. وهكذا يحتفظ مجلس الشيوخ بطريقة يرفض معها تكريم الأباطرة سيّئي السمعة والسيرة والسريرة. ويكون الرفض هذا حكمًا قاطعًا عليهم. ولكنّ هذه الطريقة لا تخلو من الخطر ومن سوء

المغبّة، لذا فالمجلس يتحفّظ بالمجازفة فيها إلاّ في الحالات الوراثيّة التي لا ينتطّح فيها الخلف للدفاع عن سمعة السلف والحفاظ على ذكراه. وعلى كلّ حال، فإنّ الاصطلاح الذي سار عليه أغسطس في ما لقيصر، وأتبعه طيباريوس في ما لأغسطس، وكرّسه العرف والاستعمال، هو أنّ الأمبراطور الراحل لا ينادى به إلهًا بل إلهيّ. فهو لا يؤلّه، إنّما يكرّم كالآلهة. والبون الشاسع بين الوضعَين والاصطلاحَين. ومع ذلك لم يحُل هذا دون تشييد معبد للراحل الإلهيّ، ولا دون إنشاء مجمع كهنوتيّ أو رهبنة خاصّة تنقطع لتكريمه، تحمل اسمه، يُنتخب أعضاؤها من بين أغنى طبقات المجتمع[1].

وقد اعتبر باحثون أنّ عبادة الأمبراطور في روما كانت دينًا سياسيًّا، فلم يكن في استطاعة آلهة الأولمب اليونان أن يقيموا أمبراطورية موحّدة، أي أمبراطوريّة مقدّسة قويّة. أمّا في روما، فقد أصبح الأمبراطور إلهًا لأنّه أمبراطور، وهو مركز العبادة على نحو ما كان "إينياس Aeneas" مركز الإنيادة بوصفه رمزًا لروما[2]، ومعنى هذا أنّ العبادة تحصل على أهميّة خاصّة من أطراف الأمبراطوريّة: من بريطانيا حيث ظهرت منذ البداية عبادة "كلوديوس Claudius"، ومن آسيا حيث تنازعت المدن حول أحقّيتها في لقب "راعية المعبد Neokoros" في العبادة الرسميّة للمقاطعة. وفيما يرى باحثون أنّ عبادة الأمبراطور استمرّت في القرن الثالث إلى أن غيّر خليفة كلوديوس الثاني: "أورليان Aurelian" (٢١٢ ـ ٢٧٥م) مبدأ الحكم مضيفًا إليه نعمة من الله، ممّا مهّد الطريق أمام الأمبراطوريّة المسيحيّة، على الرغم من أنّ شخصيّة الأمبراطور قسطنطين ظلّت تتلقّى التوقير والتبجيل، وهو الأمبراطور الرومانيّ الذي أصدر

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريتها، ٢: ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

٢ ـ راجع: الإنيادة، نقلتها إلى العربيّة عنبرة سلام الخالدي، دار العلم للملايين (بيروت،١٩٧٥) ص٢٩ ـ ٣٧.

منشور ميلان الذي أقرّ التسامح مع المسيحيّة، واعتنق المسيحيّة وهو على فراش الموت، فأصبحت لأوّل مرّة الديانة الرسميّة لروما[1]، يرى آخرون أنّ أمر العبادة الأمبراطوريّة انتهى إلى الفشل، إذ رفض الأباطرة أمثال طيباريوس وكلوديوس وغيرهما التكريم الإلهيّ. هذه العادة التي عرفها على أشدّها وسار عليها إغريق بلدة "جيثيون" من أعمال ولاية لاكونيا، وإغريق الإسكندريّة. وهذا الإعراض أو المجافاة مردّه، على ما يظهر، لما لاقوه من اشمئزاز سكّان روما ومن فشل التجربة المؤسفة التي قام بها كلّ من كاليغولا ونيرون، ودومتيانُس وكومود، فراح الشعب يقتصّ لنفسه منهم، وأماتهم شرّ ميتة، كانت درسًا لقوم يعقلون[2].

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ١٢٦.

٢ ـ تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريّتها، ٢: ٣٠٥.

الفَلسَفَةُ والدّين الرومَانيّان

لقد أخذت الأمبراطوريّة الرومانيّة بالعقائد والفلسفات اليونانيّـة. فالفلسـفة التشـكّكيّة أو السفسطائيّة لم يكن لها أيّ صدى، والفلسفة الكلبيّة اتّجهت بـالأخصّ مـن الجمـاهير والشارع، وبقيت كلتاهما شبه مجهولتَين في رومـا. والفلسـفة الإبيكوريّـة Epicurisme وحدها، كانت ملحدة معطّلة، إذ إنّ الخوف والإلحاد المرتبطَين بالعمل الإلهيّ المتوقّـع، يذهبان بالهدوء التامّ الذي تتوقّف عليه سعادة الإنسان. وقد خفّ تأثير هذه الفلسفة فـي روما بعد القرن الثالث قبل الميلاد، في حين ازدهرت في الشـرق الهلّينـيّ، حيـث راح أتباعها ينتظمون في نواد وحلقات، وحافظت على نشاطها حتّى عهد الأمبراطور مارك أوريل، الذي أسند إلى أتباعها أحد الكراسي الأربعة في أثينا. فتكتّـل رجـال الفكر مـن الشيع والمذاهب الفلسفيّة الأخرى ضدّها وتصدّوا لها بالردّ العنيف. أمّا البيثاغوريّة فقد تقدّمت في أذهان الناس دينًا جديدًا أكثر منه فلسفة. لا سيّما وأنّها راحـت تعلّـل أتباعهـا بالسـعادة فـي الحيـاة الأخـرى. وراح بعضهـم ينتحـل القـدرة علـى اجتراح المعجـزات والتنبّؤ والكشف عن الغيب كـالمجوس. فقد نهـج السـواد الأكبر بينهم نهجًـا ليّـنًـا فـي الحياة، مفضّلاً الانطواء على نفسه، رحيمًا، حليمًـا، وانقطـع للتـأمّل والتجريـد العقلـيّ، مرتديًا لباسًا من الكتّان الأبيض وهو مسترسل الشـعر. إلاّ أنّ هـذه الفلسـفة لـم تحـافظ على حيويّتها ونشاطها إلاّ في اليونـان. ولم يتمكّن الأفلاطونيّون من كسب أتباع لهم فـي روما، بينما تكاثر عددهم في الشرق الهلّينيّ، فقد عرفوا أن يقوّوا الدعـوة الدينيّـة التـي

بشّر بها مؤسّس هذه الديانة، وجعلوا من فكرة اللّه محورًا لتأمّلاتهم، وحاولوا أن ينقّوا هذه الفكرة من الشوائب التي علقت بها، وأن يعيدوا إليها صفاءها ورونقها، وأبعدوها عن صفاتيّة العالم الماديّ، وأقاموا بين اللّه والعالم وسطاء ممثّلين بهؤلاء الأبالسة الذين لا حدّ لهم ولا حصر، وبذلك انفتح المجال للأخذ بكلّ الصور الدينيّة وأشكالها بما فيها من خرافات وأساطير شعبيّة.

من جهة أخرى لاقت فلسفة زينون التي حملت اسمه Stoïsme نجاحًا أيضًا. وبعد أن كان زينون رقيقًا عند أحد معتوقي الأمبراطور نيرون، وطرده دمتيانُس من روما ليعود إليها من جديد في عهد هدريانُس، تمكّن أبكْتيتس من مواصلة النهج ذاته التي وضعه بانمايتُس وأكمله بوزيدونيوس. وهكذا استطاعت فلسفة زينون أن ترفع باسم الفضيلة صوتها عاليًا في وجه الأباطرة الذين عُرفوا بشططهم، في القرن الأول، كما استطاعت، في القرن الثاني، أن تؤثّر عميقًا في حلقات المثقّفين ونواديهم وجمعيّاتهم، قبل أن يساعد مارك أوريل بسلوكه على تكثير أتباعها ولو في الظاهر. وبقيت هذه الفلسفة ناشطة في الشرق في هذَين القرنَين. وجعلت من الإله الذي آمنت به وحدة نظام هذا الكون وباعث الحياة فيه. إلاّ أنّ تابع هذه الفلسفة لم يلبث أن تبيّن الضعف البشريّ الذي عليه الإنسان، والحافز الذي يحفزه للتعلّق بالألوهيّة، ألا وهو القلق المستحوذ عليه أكثر من دافع العقل. وكان بحاجة لمَن يقنعه بأنّ حراسة الألوهيّة تسهر كذلك على الإنسان، فكلاهما موضوع حبّه. وقد برهن مارك أوريل عن تقوى مفرطة حتّى حدود الخرافة، معنيًا نفسه بتقديم القرابين والأضاحي وبطوالع الغيب، حتّى أنّ بعضهم تاهوا وراء رمزيّة سقيمة[1].

---

١ - تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريتها، ٢: ٤٠٣ - ٤٠٥.

تلاقحت هذه النظريّات الفلسفيّة الدينيّة وتمازجت. وتكاثرت أسباب التلاقي والاتّصالات لكثرة ما بينها من تجانس وتقارب في نزعاتها الدينيّة. ولا عجب أن يوجد بينها في أمور الدين، مَن يقول بوجود العناية الإلهيّة، أو الربّانيّة، وإن اختلفت هذه التعاليم في ما بعد، حول نسبة تدخّل هذه العناية في تقرير مصائر الحياة على الأرض، ولا سيّما حياة البشر، إذ كان الاعتقاد السائد لدى العموم أنّها تتدخّل في بعض الظروف الخاصّة، إمّا مباشرة أو بالواسطة. وقد توصّلت إلى شيء يشبه الإجماع في ما بينها، إذ سلّمت بأنّ هذه العناية هي عطوفة على الإنسان، يقف حيالها موقفًا كلّه أمل ورجاء، يستنزل بركاتها، كلّما أنس من نفسه الضعف والتعاسة، وهو أبدًا على استعداد ليعرب لها عن شكره وامتنانه بجميع الوسائل التي بين يدَيه. وقد نتج عن هذا الوضع، في المجال الدينيّ، عدّة نتائج. منها ما يتّفق مع هذه المشاعر التي تأثّر بها أغسطس نفسه، إلاّ أنّها تجاوزتها بشكل غريب بعد أن أضفت عليها من اتّساع وشمول كان من شأنه أن يسمّر الخوف في قلب أغسطس. من ذلك مثلاً، هذه العاطفة الدينيّة المفرطة التي تغلغلت إلى أعماق شعور الإنسان، والتي، إن قادته، من جهة، إلى حلم معسول راودته فيه رؤى من الأماني العذاب، قد عرّضته، من جهة أخرى، إلى مواقف مخزية من التسكّع والتذلّل. ومن ذلك مثلاً الاعتقاد بما توجّهه هذه الآلهة من وعد ووعيد، بحيث يرى المرء نفسه مضطرًا للتصديق بالعجائب والمعجزات تطالعه كلّ يوم لتفسير وتعليل ما يتعاقب عليه من بركات. ومن هذا الباب المسدوف، أي الذي فتحه أغسطس قليلاً، تدافعت إلى الأذهان والنفوس والعقول أغرب العقائد تصديقًا وأصدمها للعقل السليم، فاستقرّت فيها واستبدّت بها. فكيف السبيل بعد الآن، للإبقاء على هذه الحدود والسدود التي يعزون إقامتها إلى أغسطس ضدّ بعض الآلهة، وفي وجه بعض العبادات والطقوس الغريبة المنشأ. فقد سلّموا بالفعل، بوجود وسطاء أو

آلهة ثانويّة، بين العناية الإلهيّة وبين عالمنا الهيوليّ هذا. وبين هؤلاء الوسطاء مَن هو مجرّد فكرة، مجهول، غير معروف البتّة. ومن الطبيعيّ جدًّا أن يُنزل الإنسان، حتّى مَن كان منه عالي الثقافة، جميع آلهة الوثنيّة هذه المنزلة: فالتضرّع إليها ليس فيه ما يضرّ أو يسيء. وهكذا يحافظ الإنسان على الطقوس والعبادات التقليديّة، وعلى مراسم عبادة هذه الآلهة وتكريمها، وعلى الاعتقاد بهواتف الغيب، إذ يرى أنّ باستطاعة الجنّ أو الأبالسة تقديم النصح لأبناء البشر. وهذه العناية الإلهيّة التي تغمر الكون بأسره، لا تعرف الحدود ولا السدود. فالتمييز بين إله وإله، غريبًا كان أم يونانيًا، أم رومانيًّا، متهلينًا كان أم متليتنًا، لا محلّ له على الإطلاق. فعلى نسبة استلطاف الناس لهذه الآلهة يأتي تأثيرها، مشروطًا بدرجة الإخلاص وحرارة العاطفة ونوع التكريم الذي يُرفع إليها. وفي هذه المنافسة الحرّة، فلا عجب أن تحظى الآلهة الغريبة أو الأجنبيّة، ولا سيّما آلهة الشرقيّين منها، بالمرتبة الأولى، وذلك بفضل ما تتمتّع به من طابع غير رسميّ، وبفضل ما لها من غنى الرمز، وبفضل ما توحي من ثقة بالنجاة والخلاص.

ومع ذلك، ففوق الأسماء والكنى والألقاب والجنسيّات، تُلاحَظ المشابهات بأيسر ممّا تلاحظ الفروق، عند الذين لم تعطّل حرارة العواطف والرغبة في التمتّع بالعطف والحماية، القوّة العاقلة والناقدة في النفس. ومن هنا طلعت حركة التوفيق بين الأضداد المتباعدة التي ربّما انتهت إلى شيء من توحيد العنصر الإلهيّ أينما وُجد. وهذا بالذات ما حدا بأديب بثينيا، "ديون ده بروس"، الذي لُقّب بحقّ "فمّ الذهب"، إلى أن يكتب في أواخر القرن الأوّل:

> أخذ البعض يدّعي أنّ أبولّو، وهيليوس (الشمس) وديونيسيوس هم واحد، وأنت تقول القول ذاته. وأكثر من هذا بكثير، يُجمع عدد كبير من الناس ببساطة كلّيّة، على أن

يروا، في كلّ الآلهة مجتمعة، قوّة واحدة، وقدرة واحدة، بحيث لم يعد من فرق قطّ، بين تكريم هذا أو ذاك، من بينها[1].

وأخيرًا أخذ الناس يعلّلون النفس أنّ باستطاعة الأبالسة، أخيارًا كانوا أم أشرارًا، حتّى الصغار منهم الذين يَسمون فوق ضعف البشر بكثير، أن يرغموا الناس، ببعض الوسائل المغرية التي لدَيهم، على التصرّف حسبما يريدونه منهم. وهكذا نرى بأشكال مختلفة، أعمال السحر والشعوذة، آخذة بعضها برقاب البعض، في حياة الإنسان. وهكذا شهدنا طلوع ثورة دينيّة حقيقيّة، تجلّت في الشعور الدينيّ، بفوز الرمزيّة الفرديّة. أمّا الحياة الدينيّة فقد تلبّست مظاهر لا حصر لها ولا حدّ، لم يلبث بعضها أن زال ومات، تاركًا وراءه مغزى الطقوس الدينيّة التي تجلّى بها وبمعناها، بينما استأثر البعض الآخر بكلّ الشهرة. فالمراسيم الميتة هي التي أحياها أغسطس وبعثها حيّة من جديد. أمّا الحيّة منها فهي التي أقصاها أو وضع لها حدودًا لا تتعدّاها. والتطوّر السياسيّ الذي أخذت الحضارة الرومانيّة بأسبابه إنّما تمّ وفاقًا للاتّجاه الذي أراده أغسطس واستطاع أن يوجّهه. أمّا التطوّر الدينيّ فقد تمّ بصورة معكوسة تمامًا[2].

السِّحْـر والخرَافَة

جاء التنجيم إلى الغرب من بابل، وشجّع عليه الفيلسوف اليونانيّ الموسوعيّ الرواقيّ "بوزيدونيوس" Posidonius صاحب "التاريخ العامّ"، و"الفلسفة الطبيّة"،

---

١ - راجع: تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريّتها، ٢: ٤٠٦ - ٤٠٧.

٢ - تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريّتها، ٢: ٤٠٧.

و"الآلهة". فقد كان الرواقيّون والأفلاطونيّون في صف التنجيم، في حين كان الأبيقوريّون والمسيحيّون ضدّه، وتفترض نظريّة التنجيم وجود علاقة بين الناس والنجوم: "فنحن نشارك الكواكب في القدرات والمشاعر"، ولمّا كان مسار "زحل" بطيئًا، فقد اعتقدوا أنّه يجعل الناس كسالى، أمّا كوكب الزهرة فهو المشرف على الحبّ، في حين أنّ كوكب "المشتري Jupiter" يهب الناس القوّة، وعطارد يبارك التجارة... وارتبطت الأفعى بإله الشفاء، والبرج الذي يحمل هذا الاسم يساعد على الشفاء. وكان التنجيم شبه علم، كما كان حساب خرائط البروج عملاً معقّدًا. وكان يُطلق على المنجّمين لقب الـ"رياضيّين Mathematici". وانفجرت الحركة في عهد الأمبراطور الرومانيّ "تبيريوس Tiberius" (٤٢ ق.م - ٣٧)، الذي اعتكف في "كابري" ومعه "حشد من البابليّين"، وفي ذلك الوقت كتب "مانيليوس Manilius" الرواقيّ قصيدة في التنجيم. وربّما اعتُبر التنجيم بما فيه من إيمان بالقضاء والقدر، ركيزة للوضع القائم، ولعلّه كذلك شجّع على الطموحات الخطرة. ولقد كان المنجّمون يُقمعون بين الحين والحين، وإن كان التنجيم لم يُمنَع أبدًا لمدّة طويلة. وفي عهد الأمبراطور "ماركوس أوريليوس" كتب "فيتيوس فالنز Vettius Valns" وهو في حالة وَجد، عن مشاركة المنجّم للآلهة. واستخدم "ستفانوس Stephanus" البيزنطيّ اللغة نفسها تقريبًا، في القرن الخامس الميلاديّ.

لقد كان التنجيم خرافة منتشرة على نطاق واسع، لكنّه لم يكن سوى خرافة واحدة بين خرافات كثيرة.

فقد استُخدم السحر لأغراض طبيّة، فكانت كتابة الحجاب السحريّ للوقاية من المرض، وقد حفظت لنا المدوّنات تعويذات مثل "هرّب يا عفريت داء الكلب من حامل هذا الحجاب". وكان "بلني" يؤمن إيمانًا غريبًا بالخرافات، من ذلك أنّه كان ينصح

لعلاج الصداع أن تُلتقط حشائش نمت فوق رأس تمثال، ثمّ تُلفّ في قطعة قماش وتُربط حول عنق المريض وتُربط بخيط أحمر.

وكانت هناك اللعنات التي تُنقش، في الأعمّ الأغلب، على رقائق معدنيّة، ثمّ تُدفن في التراب، وهي تصلح لعدّة مناسبات، فأحيانًا يكتبها أولئك الذين يفشلون في الحبّ، وأحيانًا المقامرون الذين يريدون إضعاف جياد السباق التي لم يراهنوا عليها. وهناك مثال نموذجيّ وُجِد بجانب عين ماء بالقرب من "أريزو Arezzo" يصبّ اللعنات على شخص يدعى "ك. ليتوريوس لوبُس Q. Leturius Lupus" ويُسمّى أيضًا "كوكاديو Caucadio"، ليستعدي عليه عرائس البحر أو المياه المغليّة لتقضي عليه خلال عام. وقد حصل اكتشاف طريف في "برغاموم Pergamum" على بعد ١٦ ميلاً من بحر إيجيه، وهو عبارة عن عدّة مشعوذ، قوامها منضدة برونزيّة ذات ثلاث قوائم منقوش عليها بإتقان صورة إلهة الظلام "هيكاتي Hecate"، وطبق مستدير عليه علامات سحريّة، وخاتمان، وواضح أنّ الخاتمَين يعلّقان بخيط فوق الوعاء ليشيرا إلى الرموز المناسبة كلّما اهتزّا. وتحدّث مؤرّخون عن قضيّة أثارت الرأي العامّ في القرن الرابع، شملت أدوات مماثلة، استُخدمت لتحديد خليفة "فالنز Valens". وقد سبق وتحدّثنا عن قصّة الكاتب اللاتينيّ من أصل أفريقيّ: "أبوليوس Apulius"، الذي اشتهر في القرن الثاني الميلاديّ، والذي تُعتبر قصّته "الحمار الذهبيّ" من أهمّ ما وصل إلينا من القصص الرومانيّة، وقد كانت مليئة بالسحر والشعوذة، وقد يكون ذلك مجرّد جانب من تراث رواية القصص، ولكنّ إقبال القرّاء عليها في ذلك الزمن، أمر له مغزاه. بيد أنّ هذا الأديب نفسه تزوّج من أرملة ثريّة اتّهمته أسرتها بأنّه سَحَرها، وكانت التّهمة مضحكة لسخافتها، وقد تمكّن أبوليوس بمرافعته الحاذقة من السخرية منها أمام المحكمة، ولكنّ وصول هذه القضيّة أصلاً إلى المحكمة يكشف عن سيطرة الخرافة

على ذلك العصر. ولعالم النبات الرومانيّ "بلينوس الأكبر" (٢٣ ـ ٧٩م) الذي كتب عن التاريخ الطبيعيّ ٣٧ مجلّدًا تكلّم فيها عن الكون والجغرافيا وعلم الأجناس والحيوان والنبات، أهميّة خاصّة هنا، ففي شخصيّته جانب من الرجل العقلانيّ الذي يهاجم استخدام السحر، ولكنّه مع ذلك يؤمن بالعين الشرّيرة والتخفّي، وبتغيّرات الجنس، أي التحوّلات من جنس لآخر، وبتأثير القمر، والقوّة المرعبة لدماء الطمث، والأعداد الوتريّة، وبالدوائر السحريّة، وبقوّة الحديد، والتأثير الوقائيّ للبصق، واستخدام الوصفات السريّة أو السحريّة الغامضة[1].

الحيَـــــاة
بَعدَ المَوت

كانت المعتقدات العامّة عن الحياة بعد الموت في المجتمع الرومانيّ معقّدة بنفس درجة تعقيدها في معظم المجتمعات الأخرى، فقد كان الأسلاف في التراث الرومانيّ على نفس درجة الأهميّة التي كانوا عليها في التراث الأفريقيّ، فكان الرجل الأرستقراطيّ يحتفظ بتماثيل أو أقنعة لأسلافه لكي يُنتج منها نسخًا في الظروف المناسبة. وكانت الـ"لارات Lares" تعبّر بصفة عامّة عن أرواح الأسلاف. وكان المعيار الأخلاقيّ لروما هو "طريق الأسلاف Mos Maiorum". أمّا الـ"دي مانز Di Manes" فهي أرواح الموتى التي يشعر نحوها الرومان بالهيبة والإجلال. وكان عيد الوالدَين Parentalia الذي يقع في شهر شباط (فبراير) هو في الواقع عيد الأموات، أي عيد جميع الأرواح. وكان يُحتفل به أساسًا داخل الأسرة أكثر ممّا يقام في مكانٍ عام.

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١٢٧ ـ ١٢٩.

وامتدّت المعتقدات الشعبيّة إلى "الأشباح"، وهناك قصصٌ ممتازة عن الأشباح عند "شيشرون" و"بلني". كما امتدّت تلك المعتقدات إلى السحرة القادرين على استحضار أرواح الموتى. واجتمع الإيمان بالشياطين والعفاريت عند الإتروسك، والإيمان بالأسطورة اليونانيّة لتعزيز الخوف من العقاب بعد الموت الذي سخر منه شيشرون وسينكا، لكنّ الأبيقوريّين شعروا أنّه مفروض على الآخرين، غير أنّ النقوش على شواهد القبور لا تكشف بصفة عامّة عن خوف ولا عن رجاء، وإنّما يعبّر بعضها عن الأسف، لأنّ المتوفّي ترك متع الدنيا، بينما يعبّر بعضها الآخر عن الرضا لأنّه أفلت من متاعب الحياة، والصيغة الشائعة للتعبير الأخير هي: "أنا لم أوجد، ولست بموجود، ولا أبالي"... وبعض النقوش الأخرى تتحدّث عن "النوم الأزليّ"، والدليل الرئيسيّ على الأسف مرتبط بالقبور التي كانت تقع على جانبَي طريق "أبيا Via Appia" الذي يؤدّي من روما إلى "كابوا Capua"، وكانت تلك القبور قد صُمّمت أساسًا لتكون "دار الموتى"، وكان يُلحق بهذه القبور أحيانًا غرف طعام ومطابخ حتّى يستطيع الأحياء المشاركة في مأدبة تُقام لتكريم الميت بمناسبة الاحتفال بذكرى يوم ميلاده. وفضلاً عن ذلك، فمنذ عصر "هدريانس" حتّى القرن الثالث، تظهر سلسلة من التوابيت الفخمة التي تصوّر مناظر ترمز إلى الفنّانين الذين دخلوا دار الخلود. ويتّخذ "يونسيوس" من "أريان" ابنة "مينوس Minos" ملك كريت عروسًا له، أو يظهر في هيئة المنتصر. ويجتاز "كاستور Castor" وشقيقه "بولوكس Pollux" مع بنات "لويكيبُّس Leucippus" الباب إلى حياة جديدة، وكان كاستور ابن "تينارُس Tyndarus" ملك طروادة وليدا وتوأم بولوكس، وشقيق هلن، آدميًا، أمّا أخوه بولوكس فكان خالدًا، ولمّا مات الأول حصل الأخير على تصريح من جوبيتير بأن يتناوب الشقيقان الحياة معًا. وترمز ربّات الفنون Muses إلى لمسة الإلهام الإلهيّ، أمّا "برومثيوس" فيخلق الإنسان ويهبه الحياة، ويظهر

"هركولس Hercules" وهو ينجز المهامّ التي من أجلها وُهب الألوهيّة مكافأة له. وتتحدّث مناظر المعارك والصيد عن الانتصارات، وعن الراعي "أنديميون Endymion" أجمل شباب الميثولوجيا الرومانية، أحبّته "سيلين Selene" إلهة القمر وأيقظته من نومه بقبلة. أمّا دورةَ الفصول فتنبئ بميلاد عام جديد، وأمّا أسطورة مجموعة حوريّات البحر الـ"ناريدات Nereids" والـ"تريتون Tritons" الذي تصفه إلهة البحر بجسم رجل وذيل سمكة، فتصوّر الرحلة إلى جزر الـ"بلست Blest" بأسلوب اعتمد على زخرفة الأمواج، وأصبح بعد ذلك نمطًا ثابتًا، في حين تؤكّد الزهور والأكاليل على وجود الحياة[1].

إلَه الشمس السُّوري

يُعبدُ في رومَـــــا

كانت الشمس في أجزاء متعدّدة من الشرق موضوعًا بارزًا للعبادة، ففي بلاد "إليريا Illyria" على ساحل البلقان، وُجد تراث قيّم لعبادة الشمس. وفي مصر كانت الشمس على المدى الطويل الإله الرئيسيّ بين الآلهة. وفي لبنان كانت مدينة "بعلبك" على سفح جبل لبنان الشرقيّ معروفة عند اليونان باسم "هليوبوليس" أو مدينة الشمس. أمّا في فارس فقد كانت الشمس أحد الضبّاط الأساسيّين لـ"أهورامزدا" في صراعه مع الظلام. وكان لـ "سول Sol" إله الشمس عبادة قديمة في روما، ولكن في عصر الأمبراطور أغسطس حلّ أبّولّو محلّه. وكان من الطبيعيّ مع تحرّك مركز الجاذبيّة للأمبراطوريّة الرومانيّة تجاه الشرق، أن تزداد عبادة الشمس قوّة. ولقد كانت قويّة

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص١٢٩ ـ ١٣١.

بـالفعل فـي الدعايـة للأمبراطوريّـة، فكـان بيـت نـيرون الذهبـيّ مسـكنًا ملائمًـا للشـمس المجسّدة. كما أضفى الأمبراطور الرومانيّ (٢٠٦ ـ ٢٢٢) "أنطونيوس Antonus" على الشمس احترامًا خاصًّا، إذ كان في شبابه كاهنًا في معبد إلـه الشـمس. ولقـد أصبحـت عبادة الشمس مهيمنة في عهد أسرة "سيفيروس Severus" (٣٠٦ ـ ٢٣٥ ق.م.)، فكـان إله الشمس يصوّر مع لحيـة "سـيفيروس" المتميّزة، واتّخـذ الأمـبراطور لقـب "الـذي لا يُقهر Invitus"، وكان اللقب الخاصّ بإله الشمس، وكان ذلـك تطـوّرًا طبيعيًّـا، فالشـمس رمز توحيديّ رائع ونقطة تجميع للأمبراطوريّة بأسرها، بعـد أن انحطّـت قيمـة الديـن القديم. كما أنّ اغتصاب العروش قد جعل من الصعب أن يعـامل الأمـبراطور بوصفـه نقطة مركزيّة للعبادة. وحتّى مبالغات الأمـبراطور "هليوغـابولس Heliogabalus" وهـو نفسه الأمبراطور الرومانيّ السابق ذكره "أنطونيوس"، الذي نصّبــه الجنـود أمـبراطورًا تحت اسم "ماركوس أورليوس أنطونيوس"، لم تستطع تدمير قوّة الرمز، ففي سنة ٢٧٤ ميلاديّة، نصّب "أورليان Aurelian" إله الشـمس إلهًـا أعظـم للأمبراطوريّـة الرومانيّـة. وإنّ المؤرّخ والناقد والمستشرق الفرنسـيّ إرنسـت رينـان (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢) الـذي اهتـم بالدين من الناحية التاريخيّة، قال ذات مرّة: "لو أنّ المسـيحيّة انهـارت لكـان العـالم مـن أتباع مترا Mithraist" إله الشمس أو النور عمومًـا، وقـاهر الظـلام عنـد الفـرس. وقـد اعتبر باحثون آخرون هذه الفرضيّة غير صحيحة، وقالوا بأنّــه لـو انهـارت المسيحيّة، لسادت عبادة الشمس، ولكن فـي صـورة أخرى غـير صـورتها الفارسـيّة. والواقـع أنّ مسـيحيّة الأمـبراطور قسـطنطين كـانت مسـيحيّة مبهمـة غامضـة، فأسـرته كـانت تديـن بالولاء التقليديّ لإله الشمس، ولقد جاءته الرؤية الشهيرة للصليب من الشمس وهو فــي طريقه إلى روما، وواصلت الشـمس ظهورهـا علـى مـا سـكّه مـن نقـود خـلال عشـرة أعوام، وعلى قوس النصر الذي أقامه في روما. ويحمل تمثاله المُقام فــي القسـطنطينيّة

التاج المشعّ لإله الشمس، مصنوعًا، كما اعتقد هو نفسه، من مسامير الصليب الحقيقيّة. لقد كان إلهه إلهًا للقوّة، ولم يكن أبدًا إلهًا للحبّ، ومعنى ذلك أنّ الشمس لم تهزم هزيمة كاملة في معتقد قسطنطين[1].

أمّا عن دخول عبادة الشمس إلى روما، فيُروى أنّ "إلاكابالس"، حفيد "جوليا ميزا Julia Musea" السوريّة الأصل، شقيقة الأمبراطورة "جوليا دومنة" زوجة الأمبراطور "سبتيمُس ساويروس"، الذي وُلد في حمص، وورث الكهانة، قد دعمه الجيش السوريّ وهو في عمر الرابعة عشرة، فهزم في أنطاكية سنة ٢١٨م "مكرينُس Macrinus" قائد الحرس الأمبراطوريّ الذي كان قد اغتصب الحكم من "كراكلاّ" إبن جوليا دومة إثر اغتياله في مدينة إديسًا سنة ٢١٧م. وبعد سحق إلاكابالس لمكرينُس، دخل الأمبراطور الكاهن إلاكابالس مدينة روما منتصرًا، وهو يحمل الحجر الأسود المقدّس في عربته. وكان هذا شعار إلهه الحمصيّ وهو إله الشمس الذي تُسمّى بإسمه. وكان يحتفظ به في الأصل في معبد حمص الفخم الذي كان يزدان بالذهب والفضّة والجواهر، والذي كان يتمتّع بحقّ التجاء الناس إليه. وأصبحت عبادة الإله السوريّ متفوّقة في العالم الرومانيّ. وكانت الطقوس التي أدخلت معها فخمة جدًّا ترافقها ذبائح ثمينة كانت تقدّم على مذابح تنوء بالعطور، ونصب عليها خمور معتّقة لتختلط مع دم الضحايا. وأضاف الأمبراطور إلى ألقابه العديدة لقبًا جديدًا وهو "الكاهن الأعلى للإله الشمس إلاكابالس الذي لا يقهر"[2].

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١٣١ ـ ١٣٢.

٢ ـ حتّي د. فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، دار الثقافة (بيروت،١٩٥٨) ١: ٣٨٠ ـ ٣٨١.

ديانـــات الأســـرار
أو الديانة الشخصيّة

تحوّل الناس من أجل الديانة الشخصيّة إلى "ديانات الأسرار"، إذ كان فيهـا التعبير عن المشاعر الشخصيّة بحريّة أكثر ممّا تسمح به طقوس الدولـة والعائلـة[1]. ولـم تكـن طقوسها السريّة معروفة إلاّ للمنتمين إليها، وأشهر مـا هـو معـروف من هـذه الديانـات ديانة "إليوسس Eleusis" التي كانت لا تزال قويّـة عنـد شيشـرون وبلوتـارك. وتتكشـف قوّة "ديونسيوس" بصورة طاغية في "فيلا Villa" الأسرار في مدينـة "بومبـي Pompii"، جنوب شرق نابولي، التي دمّرتها إحدى ثورات بركان "فيزوفـ"، واكتشفت آثارها فـي القرن السادس عشر، حيث وجدت سلسلة فخمة من الرسوم الجدرانيّة التي تبيّن عمليّـة الترسيم كلّها، والتي يشرف عليها الإله، من قراءة لتراتيل الطقوس الدينيّـة، إلـى تقديم للقرابين، ورضاعة الرضيع، والتنبّؤ بالغيب، وكشـف النقـاب عـن القضيـب الغـامض، والجَلد بالسوط أو طقوس الموت، ورقصة البعث، والإعداد لـلزواج المقدّس... وكلّهـا رسوم تعبّر عن سجلّ رائـع للعبـادة. ولقـد جـاءت أسـرار "إيزيـس" و"أوزوريـس" مـن مصر حيث كانت إيزيس الإلهة المنقذة، بينما كان أوزوريس الإله الذي مُزّق أشلاءً ثـمّ وُلد من جديد. وكان المتوفّي في مصر يتّحد مع أوزوريس في هويّة واحدة، ويخـاطَب على أنّه أوزوريس. وكان إيزيـس وأوزوريـس يقدّمـان الحمايـة فـي العـالم الأرضـيّ، وكذلك في العالم الآخر. وكانت رواية أبوليوس "الحمار الذهبيّ" التي كـانت مغامراتهـا الحيّة تخفي وراءها هدفًا حادًّا هي شهادة واضحة على افتتان كاتب رومانيّ من أصـل أفريقيّ بعبادة إيزيس. وكان لـ"سيبل Cybele" الإلهة الأمّ العظيمة فـي آسيا الصغرى،

---

[1] CUMONT FRANZ, *LES RELIGIONS ORIENTALES DANS LE PAGANISME ROMAIN* (PARIS,1929) PP. 24 SEQ.

بدورها أسرارها. وكان دخول العضو في الجماعة يتمّ عن طريق الـ"توروبوليوم Taurobolium" أو "التعمّد بدم الثور" الذي اعتقد البعض أنّه يجلب حياة أبديّة، فقد عَبدَ الفرس القدامى الثور الذي مات ثمّ بُعث حيًّا، ووهب الجنس البشريّ دمه شرابًا ليسبغ عليه نعمة الخلود، وسمّوه "هوما". في حين أنّ البعض الآخر كان يكرّر الاحتفال نفسه بعد عشرين سنة. وقد سُجّل وجود التعميد في مدينة "بوتيولي Puteoli" على ساحل "كمبانيا" في بداية القرن الثاني الميلاديّ، فبيّنت الصورة الحيّة التي وصفها له "برودنتيوس Prudentius" الشاعر المسيحيّ اللاتينيّ في القرن الرابع، وفي الأصل كان أولئك الذين وهبوا أنفسهم للأمّ يتوقّع الناس منهم إخصاء أنفسهم، مضحّين بخصوبتهم من أجل خصوبة العالم. لكنّ ذلك لم يعد قائمًا منذ عصر "كلوديوس Claudius" وانتشرت العبادة في عصر الأمبراطوريّة بين جماهير الشعب، وكانت هذه العبادة شائعة في الأمبراطوريّة.

كان الإله "مترا" هو الإله المخلّص أو إله الشمس عند الفرس وهو إله القبلة الزرقاء وحليف "أهورامزدا"، وكانت هذه الديانة أحدث ديانات الأسرار الجديدة وأكثرها شعبيّة. وقد بدأت كعبادة زرادشتيّة ثمّ لقيت في القرن الثالث الميلاديّ ترحيبًا عظيمًا وخاصّة بين الجنود الرومان. وقد استهوتهم بصورة خاصّة قوّة هذا الدين الذي صوّر الحياة كصراع مستمرّ بين إله خيّر وبين قوّة شرّيرة. وبدا الأمر لمدّة بأنّ المصير هو إمّا فوز المسيحيّة أو ديانة ميترا. ومن صفات ديانات الأسرار كونها سريّة، وكان الانتساب إليها مقتصرًا على الذين أتيح لهم الاطّلاع على أسرارها[1]. وكان الترسيم يتمّ على سبع خطوات، فالمراتب الدنيا، أو الخدم Servitors، كانت

---

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ٣٦٩.

الغـراب، والعريـس، والجنـدي؛ والمراتـب العليـا، أو المشـاركون، كـانوا الأسـد، و"الفارسي"، ورسول الشمس، والأب. ويتضمّـن الترسيم اختبـارات حقيقيّـة أو رمزيّـة للقدرة على التحمّل. وكانت آخر مرحلة في الاطّـلاع هـي إبـلاغ الشـخص بـأنّ الـذي يتمتّع بمثل هذا الامتياز يبلغ الخلاص. وكانوا يبحثون عن الخـلاص بواسطة الاتّحـاد الشخصـيّ مع مخلّص إلهيّ اختبر الحياة والموت بنفسه[1].

ولم تكن الديانة "المثرية" تتطلّب أعدادًا كبيرة، فالمعابد المزدانة بنقش بـارز علـى الحجر لمثرا وهو يقتل الثور الـذي يرمـز بدمـه للحيـاة، كـانت دائمًـا صغيرة، كمـا أنّ أعضاء الديانة في معظمهم كانوا من الجنود والتجّار مع بعض الخدم المدنيّين، واختلـط التنجيم بالعبادة التي فرضت متطلّبات أخلاقيّة، ووعدت بالنعيم المقيم بعد الموت.

لقد اعتـبر بـاحثون أنّ الديانـة المسيحيّة "كـانت إحدى ديانـات الأسـرار الشـرقيّة، فكانت عوامل تأثيرها متعدّدة: شخصيّة مؤسّسها القويّة الساحرة، نوع الحياة والصحبة، وكلّ ما كانت تعنيـه الكلمـة الجديدة "أغـابي Agape" أي المحبّـة، أو الحـبّ المسيحيّ، والمراكـز التـي أُعطيـت لنسـاء مثـل "بريسـيكا Prisca" و"فوبـي Phoebe" و"نيمفـا Nympha"، وقد أعقبهنّ في القرن الثاني شـهيدات مثـل: "بلاندينا Blandina" و"بريتـوا Perpetua" و"فيلستياس Felicitus". كمـا كـان هنـاك التنظيـم القـويّ للكنـائس، والإقنـاع الذي قضى على الخيارات الكثيرة في العالم القديم وواجه الاستشهاد بشجاعة، واعتبر الدم المسيحيّ بذورًا، ورسالة الأمل لكلّ البشر". وفي اعتبار هؤلاء الباحثين أنّ الباحث "أ. د. نـوك A.D. Nock" قد عـبّر عن هذه الفكـرة تعبيرًا جيّدًا بقولـه: "لقد تُـرك للمسيحيّة أن تجعل هذه الأسرار ديمقراطية"[2].

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ٣٧٠.

٢ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ١٣٢ ـ ١٣٤.

وفي الواقع أنّه كان للمسيح في سورية ذاتها منافسين في القرنَين الأوّلَين. وكان أقوى هؤلاء "حدد - رومانو" الذي تحوّل في العصر الهلّنستي إلى "زفس" أو "جوبيتير" الذي كان من دمشق أو من هيليوبوليس - بعلبك، أو من هيرابوليس - منبج. وانتشرت عبادته في جميع الأمبراطوريّة. وكانت رفيقته "أتارغاتس" منافسة لإيزيس وللعذراء. وهناك زفس أو جوبيتير آخر في بلدة "دوليكه"، وقد عاش "حيث يوجد الحديد". ونجح جوبيتير دوليكينوس، وهو بأصل "تيشوب" إله الحثّيّين، في نشر عبادته في الأمبراطوريّة كلّها بصحبة الجيوش الرومانيّة. وكما كانت الحال بالنسبة لسائر الديانات الشرقيّة، فقد نقل الجنود والعبيد والتجّار طقوس عبادته إلى أكثر البلاد الأوروبيّة. وكان أخلص أتباعه في بادئ الأمر الحدّادون وهم أحسن مَن يتقن الحرفة في آسيا، غربيّ الصين. فحيثما تجد جماعة هذا الإله المتفرّقة الحديد فهناك تقيم أكوارها وتمارس الفنون التي ورثتها. وكان إلهها يسافر معها[١].

عبَادَات الشـــرق

في العَصر الرومَانيّ

في الشرق تمامًا، جرت في العهد الرومانيّ عمليّة إلباس الآلهة لبوسًا رومانيّة. فالإله "بعل"، الذي كان موضوع عبادة في "هليوبوليس" (بعلبكّ) ودمشق، والإله "دوليخه" الذي كانت عبادته تُقام في مقاطعة "كوماجين"، والذي أخذ الإغريق بتسميته "زفس"، تحوّل إلى المشتري "جوبيتير" في العهد الرومانيّ، دون أن يجري تجريده من الصفات والمناقبيّة التي عُرف بها في مواطن عبادته الأصليّة، كما حاول الغرب السير

١ - CUMONT FRANZ, *ETUDES SYRIENNES* (PARIS, 1917) PP. 173 SEQ.

على هذا النهج ذاته مع الآلهة التي اقتبسها، دون أن يبدّل من عبادتها وطقوسها الدينيّة. فقد اقتبست روما الكثير، دون أن تعطي الشرق شيئًا يُذكر، وذلك بالرغم من موقف أباطرتها المعارض، الذين لجأوا، للحدّ من هذه الحركة، إلى أساليب شتّى من العنف والشدّة كالنفي، إن لم نقل الاضّطهاد، صحبتها حوادث إعدام بالجملة. فبعد أن تمّ لأغسطس النصر على أنطونيوس وكليوبترا، أخذ على عاتقه إصلاح الديانة الرومانيّة وبعث مناسكها ومراسمها من جديد، فوقف في وجه هذا التيّار للحدّ منه. وسار سيرته طيباريوس ونهج نهجه بصورة أشدّ وأعنف. ثمّ عقب ذلك فترة من التساهل والتسامح والقبس من جديد لم يكن الأباطرة بغرباء عنها قطّ. وقد رأى باحثون أنّ هنالك دوافع وبواعث عدّة لهذا الاندفاع الشديد الذي لا يقاوَم. فالشرق أمدّ روما بالكثير من الأفكار الجديدة والنظريّات الفلسفيّة على اختلاف ألوانها من سياسيّة واقتصاديّة وفكريّة، كما أمدّها بالكثير من الرجال والأرقّاء الذين امتازوا بحدّة الذكاء وبالمرونة، وبالخدمات التي أدّوها لأسيادهم، كما أتاحت لهم حركة العتق التي نشطت بين صفوفهم، مخالطة جميع الطبقات الاجتماعيّة. ومع هذا الدفق من الهجرات، وهذه المجاري الفكريّة التي دخلت روما، دخلها في الوقت ذاته، عدد كبير من آلهة الشرق وما لها من عبادات ومراسم وطقوس، عرفت أن تستبدّ بنفوس الرومان، وتملك عليهم مشاعرهم، وذلك بما أضفت على الحياة الدينيّة من مفاهيم لم تمكن معروفة عندهم من قبل، لقيت هوًى في قلوب الرومان لإشباعهم منازعهم الروحيّة، وعرفت أن تجتذبهم وأن تغريَهم على اعتناقها. وهذا الإغراء أو الانجذاب خضع له الإغريق من قبل، قبل أن تضعهم فتوح الإسكندر وجهًا لوجه مع الشرق، فكان لها الوقع الآسر نفسه على الرومان، للأسباب ذاتها. فهذه الطقوس الجافّة والمراسم الباردة التي كان يُحتفل بها رسميًّا باسم الدولة وتجري برئاسة أوّليّ الأمر فيها، كانت تتّجه من الفرد دونما نظر إلى وضعه

الاجتماعيّ، إذ كان يجد نفسه معها أمام آلهة قريبة إلى نفسه، بعد أن أحسن تجريدها ممّا أضفوا عليها من مسحة الخلود والجبروت والقسوة، وهي آلهة جاشت مثله بالأحاسيس والمشاعر: كالخوف والقلق والحبّ، تتألّم وتموت ثمّ لا تلبث أن تنفض عنها غبار القبر، ناهضة مشرقة، جيّاشة بالحياة، تشبّهًا بالطبيعة. وكثيرًا ما كانت هذه الطقوس تثير في نفس الرومانيّ الشجى والأسى، كما تثير فيه الرجاء بالخلاص بعد قيامه، بما توجّب عليه من مراسم الوضوء والتطهير والنضج، جسديًّا وروحيًّا، بعد أن زكت وطابت بالقرابين التي يرفعها لها عن رضى وطيب خاطر. ففي مشاركة القوم هذه الاحتفالات وما يجري فيها من طقوس العبادة، وفي مشاركتهم الأسرار الدينيّة، كانت نفوسهم تقع في شبه انخطاف وذهول روحيّ، بعد أن خلُصت من أدران المادّة. وكانت هذه الطقوس في مراسمها المختلفة، تفسيرًا وتعليلاً لأسرار الحياة، وذلك بإشراكها الفرد نوعًا ما، في عمل القوى الغامضة التي تسيطر على مصائر الإنسان، كما تعطيه، عن طريق السحر والنجامة، مسحة من العلوم الطبيعيّة. وهكذا أشبعوا هذه المراسم، شتّى الرغائب والمنى التي كانت تجيش في النفس البشريّة، بينما طقوس الاحتفالات الرسميّة كانت تجري في جوّ بارد، جافّ، عارٍ من الوقار الرسميّ، برئاسة وإشراف ممثّلي السلطة. وقد راح فريق من المشعوذين والممخرقين، والسحرة والمنجّمين، والمجوسيّة والمريدين الكلدان، وأتباع إيزيس، ممّن عجّت بهم روما أفواجًا وفرقًا لا حدّ لها ولا حصر، يستثمرون سذاجة عاطفة هذه الجماهير الدينيّة، بالرغم من سهر الشرطة واستعمالها الشدّة أحيانًا، وذلك بما يأتونه، مأجورين، من الاعيب تتنزّى بالخداع والغشّ والتضليل. فإذا ما رأينا أنفسنا عاجزين اليوم عن تحديد التبعة التي تقع على "جوفنال" في ما نمّ به من الافتراءات التي غلّف بها الشتائم التي كالها، فقد وجد في هذه الأعمال المشبوهة ما يغذّي حقده الحقين. ولكي يُلهبوا الأخيلة ويهيّجوا

الأعصاب، لم يكونوا ليتورّعوا قطّ عن اللجوء إلى أقذع الوسائل وأن يفتعلوا الحوادث الغامضة، ليثيروا دهش الجماهير فيقيموها ويقعدوها، فينصبون في الأماكن التي تجري فيها حفلات الاشتراك بالأسرار الدينيّة، التماثيل الناطقة أو المتحرّكة، وأطياف من الصوت والضوء، والأبواب التي تنفتح أو تغلق من ذاتها، والتنكّر بالأزياء والملابس الغريبة أثناء الحفلات الدينيّة، والآلات الموسيقيّة الصائتة، والهتافات الهستيريّة والصياح المهتاج. فمن الطبيعيّ جدًّا، والحالة هذه، أن تتحرّك الجماهير وتهتاج، وأن يطفو عليها زَبَد الطفيليّات ونزق المتطرّفين والروافض وأعمالهم النكراء: فالحفلات الخاصّة بقطع العَفْص Gui، وتمثيل بعض الأسرار الدينيّة المخالفة للآداب العامّة، أو حفلة رشّ المؤمنين بدماء الذبائح، كلّها أمور وشؤون من شأنها أن تثير في نفوسنا اليوم الانقباض والاشمئزاز. ولكن، هل كان بعض الطقوس الدينيّة أكثر مراعاة للتقليد، بأقلّ إثارة لأذواق المعاصرين اليوم؟ إنّ تاريخ الأديان المقارَن يقدّم لنا أكثر من مَثَل على أنّ التقوى والورع كثيرًا ما تلبّسا بمظاهر انقبضت لها النفوس، وأثارت المقت والكره، ومع ذلك يجب ألاّ يغرب عن بالنا أنّ الطقوس الشرقيّة التي اقتبسها الرومان، بعد اليونان، غذّت نفوسًا وأعدّت قلوبًا عُرفت بنبل الأخلاق والمبادئ السامية[1].

في هذا اللوقت، زخر الشرق بمثل هذه الديانات وخصبت فيه العبادات. وهذا الخصب الذي افترّ عنه منذ ألوف السنين، لم يبدُ ما يشير إلى أنّه أصيب بالنضوب والنزوح. فطلوع النصرانيّة ليس بالشاهد الوحيد على هذه الخصوبة. ويستشهد باحثون[2] للتدليل على هذه الحقيقة، بما ورد من تفاصيل مثيرة، وإن لم تكن كلّها صحيحة، في الرسالة النقديّة التي وضعها "لوكيانوس" بعنوان "ألكسندروس أو النبيّ

---

١ - تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريّتها، ٢: ٤١٠ - ٤١٢.

٢ - تاريخ الحضارات العام، روما وأمبراطوريّتها، ٢: ٤١١.

الكاذب"، وقد قصّ فيها على لسان أحد الملحدين الكفرة، مولد أحد الآلهة المعنيّين بالكشف عن طوالع الغيب، في إحدى مدن "بفلاغونيا" الصغيرة، وهو الإله المعروف باسم "أبونوتيخوس"، في عهد الأسرة الأنطونيّة. وهذا الإله تلبّس صورة أفعى لها رأس إنسان، عُرفت باسم "غليكون"، وهي تجسيد للإله "اسكلابيوس". وقد راح ألكسندروس، بوحي من الآلهة، يستقبل الإلهة وأحلّها محلاً لائقًا بها في أحد المعابد، وأخذ يجيب باسمها على الأسئلة التي يتلقّاها أو تُطرح عليه، ويردّ عليها بهاتف صوتيّ يخرج من قعقعة جهاز تألّف من عدّة مواسير أو أنابيب رُكّبت على وضع خاصّ. ومثل هذا الهاتف كان يكلّف طالبه أغلى بكثير من الهواتف العاديّة الأخرى. وسواء أصحّت أم لم تصحّ تُهم التضليل والخداع التي عزاها لوكيانوس للقائمين بهذه الألاعيب، فالمهمّ في الأمر تلاقي مثل هذه المعلومات وصَهر هذه التقاليد والأساطير المتباينة الأصل والمنشأ في إلفة تامّة، وذلك بفضل مذهب توحيد الآراء في الحقلَين الروحيّ والطقسيّ الذي كان ضاربًا أطنابه إذذاك. كذلك من المهمّ النجاح البعيد الذي لقيته هذه العبادة الجديدة، وهو نجاح بلغ من الشدّة والقوّة بحيث أنّ أحد أعضاء مجلس الشيوخ ممَّن تولّوا منصب القنصليّة في روما من قبل، وأصبح في ما بعد صهرًا لألكسندروس المذكور، نقل إلى الأمبراطور "مارك أوريل"، هاتف غيب، يدعو الأمبراطور لإلقاء أسدَين في نهر الدانوب، فيؤمّن، بذلك، النصر على البرابرة. أمّا شاهد الاستمرار فيقوم في أنّه، بالرغم من وفاة ألكسندروس، حوالى عام ١٧٠، نرى بعد نحو خمس وسبعين سنة نقودًا تحمل صورة غليكون، تُضرب في بلدة "أبونوتيخوس" التي أصبحت تُعرف في عهد مارك أوريل باسم "إيونوبوليس"، وهو إسم نجهل وجه التسمية فيه ومعناه، إنّما بقي باسمه الحديث: "إينبولي". ويجد صاحب البحث أنّ هذا المثل يرينا إلى أيّ درجة بلغ الاختمار الدينيّ في ربوع الشرق بعد الازدهار العظيم الذي نعمت به

الأمبراطوريّة، والسهولة التي كانت تتمّ بها اتّصالات الناس بعضهم ببعض، فجاء ذلك ليُكمل الفوران الدينيّ والغليان الروحيّ الذي طبع العهد الهلّينيّ من قبل. فعبادة الإلهة "تيخت" خسرت كثيرًا من جرّاء الطابع الرسميّ الذي اتّسمت به. ومثل هذا الأمر لم يخلُ من أثر بيّن على طالع الأمبراطوريّة والمدينة أو الجماعة. فالاهتمام بأمر الخلاص، وتوق النفس البشريّة إليه، كلّ ذلك أوجب حلولاً أكثر فرديّة وتحلّلاً من الرسميّة الجامدة، فلم تلقَ يومًا الآلهة صانعة العجائب، والآلهة التي في طقوس عبادتها أسرار، من الرواج، ما لقيته، إذ ذاك. فقد تكاثرت أنواع هذه الآلهة وأصنافها، وكانت تماثيل "سيرابيس" وهي من الفئة الأولى، تنافس "اسكلابيوس"، كما نافست تماثيل "ديونيسيوس"، وهو من الفئة الثانية. كذلك انتشرت عبادة هذه الآلهة الشعبيّة وأُقيمت لها هياكل ومعابد في أماكن كثيرة، منها هيكل "برغاموس" على اسم "أكلابيوس" حيث رأى والد الطبيب المشهور "جالينوس" حلمًا أوحي فيه إليه بوجوب تعليم ابنه الطبّ، ونال هذا الهيكل من سعة الشهرة ما وازى الشهرة التي تمتّع بها هيكل "إبيدور". فأينما يتّجه المرء كان يطالعه ناطقون بهواتف الغيب، من كلّ شكل ونوع، يتوافد إليهم، للكشف عن طوالع الغيب وأسرار المستقبل، أكثر الناس أخذًا بأسباب الثقافة، وتصديقًا منهم للغرائب والمدهشات التي طالما نعتوها بالمعجزات، أو سعيًا وراء تفسير الرؤى والأحلام. وانتشرت بالتالي أعمال النجامة لاستطلاع طلع الأقدار المخبوءة إيّما انتشار. وهذا الاتّجاه العارم الذي بلغ الهوس، نحو القوى الخارقة الطبيعة أدّى إلى حركة شاملة من تبادل الطقوس والعبادات ومزجها بعضًا ببعض. وقد استنتج باحثون أنّه "قد يمكن للرومان أن يغلبوا السوريّين ولكنّ آلهة الرومان قد تخلّت عن مكانها لآلهة سورية"[1].

---

١ - Mommsen Theodor, *The Provinces of the Roman Empire*, (London, 1909) Vol II, p.123.

وفي الواقع أنّ الجماعات المحليّة في الشرق لم تتحمّل في ظلّ نظام الولايات الرومانيّ سوى قيود قليلة في ممارسة استقلالها الذاتي. فقد احتفظت بديانتها ولغتها وعاداتها الخاصّة. وأخذ الرومان على عاتقهم مسؤوليّة حمايتها. وكان هذا يتمّ بواسطة الجيوش الإيطاليّة. وكانت تؤخذ الجزية من السكّان الوطنيّين بدلاً عن الخدمة العسكريّة. وكان الحكّام الرومان الذين يمارسون إشرافًا عامًّا على الشؤون الداخليّة يعيّنون عادة لمدّة قصيرة ولا يتقاضون من الدولة راتبًا، هذا إذا استثنينا ما كانوا يستطيعون جبايته بأساليب مريبة وبتلزيم الضرائب. غير أنّهم لم يتعرّضوا لديانة السكّان قبل ظهور المسيحيّة[1].

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ٣١٤.

NOBILIS
بيروت